الأستاذ رقيق ميلود

بين المهجر و الحنين إلى الوطن
(مذكرات مُهاجر)

الأستاذ رقيق ميلود

بَيْنَ المَهْجَر وَالحَنين إلى الوَطَن

(مُذَكَراتُ مُهاجِر)

دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع

المكتبة الوطنية الجزائرية 2017 .
ردمك : 3 - 72 - 908 - 9947 - 978
الإيداع القانوني : السداسي الثاني 2017.

الاهـــــداء

- إلى أمّي وأبي، تَغمَّدهما الله برحمته الواسعة.
- إلى زوجتى وأبنائي وبناتي وأفراد أسرتي الكبيرة والصغيرة.
- إلى كل من عَرفني من قريب أو بعيد.

أهدي

هذه المذكـــــريات

تقديم

بقلم الدكتور بخيتي عيسى [1]

بين التاريخ والسيرة

يتمتع تاريخ أيّة أمة بمادته الرافدة من شتى الآثار الحسية والمعنوية، التي تَدل أو تقرّب مادتها من استنباط الحقائق واستدلال المنطق، والرُّسوخ على أرضيةٍ قريبةٍ من مُحاكاة الواقع الذي تُمثِّله. ولعلَّ علم التاريخ من أهم العلوم في تثبيت هُوية أية أمة، من خلال تعريفها بماضيها.. وهو الكفيل الوحيد بعد ذلك على ما ينبغي لها من استشراف مستقبلها.. وقد اهتمت الأمم منذ القديم بتدوين تاريخها، وسهَّلت على الأجيال المُتعاقبة معرفةَ ذات الإنسان وعقدِه الشرعي تجاه وطنه وأمته وهُويته وأرضه وحدودها، باطنها وظاهرها، وأهم معالمها.. فباتَ علم التاريخ يشكِّل ركيزةَ العلوم الإنسانية قاطبة، بما يحتويه من ديوان جامع...

---

[1] - الدكتور بخيتي عيسى، أستاذ في معهد الآداب و اللغات بجامعة بلحاج بوشعيب بعين تموشنت والحائز سنة 2016 على جائزتين في فرعين مختلفين من الجائزة العربية السنوية "ابن بطوطة" التي يمنحها المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق – أبو ظبي، في فرع تحقيق النصوص: موسوعته في 7 أجزاء بعنوان "جمهرة الرَّحلات الجزائرية في الفترة الاستعمارية".. وفي فرع الدراسات : أدب الرحلة الجزائري الحديث –سياق النص وخطاب الأنساق- .

هذا ما يُمليه علم التاريخ، بينما تَكَرَّسَت لدينا انطلاقاً من مناهج التعليم بمختلف أطوارها، أنَّ التاريخ الصحيح هو ما نَجده في الكتب الحاملة لصفته في هذا المجال، التي تَروي سيرةَ الأمة وتاريخها في حقبها المتوالية، وهي الذِّهنية التي تحكّم فيها النَّسَق السياسي، باعتباره المؤثِّر مباشرةً في كلِّ ما يعرفه الأفراد من تحوُّلات سريعة وجذرية وهَلِعة في غالب الأحيان.. وهي الأحداث التي يظهر فيها أبطال غير عاديين.. يصبحون مع مرور الزمن، أساطير، ومادة عجيبة للحكي والتداول.

إن اللاّفت في شأن التّاريخ أنَّ هناك سُلطة معنوية فرضها هذا النَّسَق المذكور، وهو ما يجعله يتمتَّع بصفة التحيُّز لقضايا دون أخرى..حيث يصبح التاريخ هو احتواء الإطار العام للأمم، المُلَجِّم بحدود القضايا والمحطات الكبرى التي تمّت من خلالها التحولات والانتقالات من دولة إلى دولة أخرى، أو عبر المعارك والثورات التي يكون فيها الفصل لطرف على طرف، وينفرد في ذلك الحديث عن بطل أو ثُلَّة من الرجال وإقصاء كل ما تبقى، ويصير بذلك التاريخ مَلحمةً من تأليف قائد واحد..

في هذا النمط يخلّف التاريخ مستوى واحداً من المجتمع لا يخرج عن القصور وبيوتات الحكم وساحات المعارك.. بَيْدَ أنَّ المجتمع تتخلَّله بُنية ثقافية غير مُقيدة بفرد أو جماعة، في حين تضيع

المستويات الأخرى للمجتمع وتصير محكوماً عليها بالفقدان في غبار تلك المعارك التي خرج منها الزعماء والأبطال.

إنَّ التاريخ الذي يسجل عناوينه انطلاقاً من قرارات الحسم الجليلة، هي عناوين كبرى وهي تمثل صلب الموضوع وعَصَبه، في حين ليس بإمكانها احتواء المادة التاريخية كلها، ولعلنا إذا ما أمْعَنَّا النظر، نجد أنَّ الجوانب الهامشية من التاريخ هي المادة الحقيقة له، أمَّا ما يُسجِّله التاريخ من عظائم الأمور، فهو اتجاهٌ من اتجاهاته، ونتيجة أحيانا من عامل التاريخ الهامشي... ذلك أنَّ السياسة وهي جوهر تاريخ الأمم ليس بمستطاعها أن تنفردَ باحتكار زمام تفاصيل حياة الناس عموما، أو تجعل منه تاريخا بديلا يترسخ في أذهان الناس على أنه التاريخ الحقيقي، وهو ليس كذلك إلا جوازا، لما يتمتع به من بهرجة ومن امتلاكه للقوة، يصبح من خلال ذلك التاريخ البديل في غياب التاريخ الشرعي، الذي يتراجع إلى تاريخ هامشي.... هذا الهامش هو التاريخ الذي يمكث فيه العالم والأمّي، المعلم والمتعلم، العبقري والأبله، العاقل والمجنون، الطبيب والمريض، السيد والخادم، والتاجر والحرفي والصانع، الشجاع والجبان، القوي والضعيف، الغني والفقير، الحكيم والسفيه... وهؤلاء جميعهم وغيرهم من أصناف المجتمع وشرائحه يشكّلون النسق الثقافي له، وإذا ما وازَنَّا بين السياسي والثقافي فإنَّ رصيدَ كلّ منهما يشهد على سمو الثقافي على السياسي في احتوائه للمجتمع.

إنَّ التاريخَ الذي غُرِس فينا حتَّم علينا أن نقبل بمُسَلَّمات انطلاقاً من تأليهِ أبطاله بما تنسجه لهم من عصمة، وانحيازه إلى قومية محضة، حتى أنَّه في كثيرٍ من الأحيان يصير مقيتا عندما تراوده نزوة الإيديولوجية، وهو يسطّر كما يشاء ما كان محتملا، وجعل من القضايا السابقة معادلة فرضتها عناوين النتائج ذات النصر المظفر.. فلا أحد بإمكانه معرفة شيء عن تكوين صلاح الدين الأيوبي– مثلا- ، ما نعلمه هو أنَّه بطل الأبطال هازم الصليبيين ومسترجع بيت المقدس،.. أما عن عبقريته وشخصه فهي مجرد أوهام بثها الباحثون إلصاقاً به وبإكراه... ففي غياب الاعتراف يضيق التاريخ ويضيّق واسعا من رحابة مجالاته. ويخلق تاريخا مقابلا للتاريخ الأصلي لا يشبهه إلا في الزمن والنتائج..

ولما استفاد العرب في العصر الحديث من مختلف الانجازات الغربية العلمية والإنسانية، وأفادوا من كل ذلك إفادات غَدَت بديلاً لكل تفاصيل الحياة العربية، وتَغَيَّرت بذلك ملامح شتى، ظلت لصيقة بهم التصاق المعتقد بالمقدس، وأبى العقل إلا أن يفكّك تلك القوالب النمطية، وأخذ منهم تجاربهم فحاولوا تجريبها..وفي ذات الإطار استفاد الأدب والعلوم الإنسانية من هذه التجارب، وخاض يخطو خطوات كبيرة، مُقَلِّدا أساليبَ الكتابة الجديدة، من مقالة، ومسرحية، وقصة، ورواية، ولو أنَّ أدبَ الاعْتِراف قد تَشَكَّل قبل ظهور كثير من الأجناس الأدبية، إلا أنَّ العرب اتخذت منه موقفا مؤرقا،

وظل هذا الجنس من الكتابة كابوساً يحرم التطرُّق له، وربما عُدّ عيباً أن يتحدث الإنسان عن نفسه.. ولم تظهر صور الاعتراف في أدبنا الحديث إلا مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين، مع طه حسين وأحمد أمين والعقاد، وميخائيل نعيمة، وحلَّت بذلك عُقدة التَّحَدُّث عن النفس.. ولم يكن هذا الفعل منبوذاً أو مهجوراً عند العرب القدامى، بل تعطّل لأسباب ودواعي غير مبرّرة.. في حين قد عرفت العرب هذا النوع من الكتابات، وليس أدلّ على ذلك ما تمثِّله من أعمال، على سبيل المثال: أسامة ابن منقد في كتابه "الاعتبار"، والإمام أبي حامد الغزالي في كتابه "المنقذ من الضلال"، وكتاب ابن خلدون "التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا" بل حتى في الأدب الجزائري وما يمثله كتاب "فتح الإله ومنته في التحدث عن فضل ربي ونعمته" للعلامة أبي راس الناصري المعسكري... أو ما كان مُفعماً في كُتب الرحلات عبر مسار طويل من تاريخ هذه الأمة..

إن إطلالة على مثل هذه المُدوَّنات تكشف لنا أن الكتابة عن الذَّات قد تتوازى مع التواريخ العامة، لكنها في الأخير تُمثل نفسَها مُعلِنةً عن بيئة خاصة، ونموذج فريد في معرفة عصر الكاتب ومحيطه بالإضافة إلى نوازعه النفسية والثقافية والإيديولوجية...وتَبَيَّن أنَّ هناك خميرة أو مدرسة تصنع الأبطال وهي الأرضية الشعبية، لأن الشخصية البطلة مهما بلغت من ريادة فلا بدَّ أن تكونَ قد رضعت من المجتمع بؤسَه وشقاءَه ومعاناته بحلوها ومرها، ومنه نستطيع

القول؛ إن التاريخ الحقيقي، هو التاريخ الذي تُمليه الذَّات، لا الذي تخمّن فيه القرائح.. لأنه هو الذي يلوّن طباع وطبوع الحياة المختلفة، فكم لَمسنا ذلك في حياتنا أن الثقافة وهي المحدد الحقيقي لدرجة وعي المجتمع تستنكف عن السياسة التي لا تمثل إلا نفسها في حب تملك ونزعة استغلال.. وزيف قرار...

وفي هذا الإطار، عندما نتحدث عن نوع هذا الجنس من الكتابة في الجزائر، فإنّنا ندرج أنفسنا معترفين أنه جاء متأخراً جداً مقارنة مع ما أنتجته العرب. فما عدا قصة "الفتى" التي كتبها الأديب والشاعر (رمضان حمود) مطلع العشرينيات من القرن العشرين، لم تظفر المكتبة الجزائرية بشيء من هذا القبيل على مسافة زمنية طويلة، بل حبلت بهذا الجنين إلى أن جاءها المخاض مع مطلع القرن الواحد والعشرين، أو بعض الأعمال التي سبقتها بزمن يسير، مسقرة عن تدفّق كبير من إنتاج عَدَّهُ الدَّارسون بشارةَ خيرٍ، خاصة عند جيل يعدّ جيلا فريدا في تاريخ الجزائر المعاصرة، ولو أنَّ الجانب الثقافي والفكري جاء متذبذباً لعدة اعتبارات، وكون جل كتّاب هذه المرحلة من رجال السياسة ومن مجاهدي الثورة التحريرية الجزائرية المظفرة..

وما يُميز هذا الجيل من المخضرمين أنَّهم خاضوا تجارب فريدة يستطيعون من خلالها المقارنة بين مستويات متعددة.. خاصة وأنهم شهود بل مساهمون في صناعة أهم مرحلة في تاريخ الجزائر المعاصر،

وهي المرحلة الفاصلة بين الاستعمار والاستقلال، وما يتمخض عنهما أو يتولد عنهما من نتائج يستطيع من خلال ذلك من عاش المرحلة أن يقارنَ بين عظائم الأمور وصغائرها. بين قيود الجلاد وحرية الانعتاق، بين العوز والرخاء، بين عسر الحياة ويسرها، بين حرمان التعلم وإتاحته، بين التشرّد والدفء العائلي، بين انعدام السيادة والعيش تحت كنفها...كل هذا يستطيع أبناء هذا الجيل أن يسَجِّله من خلال وثيقة هامة يشهد من خلالها على جملة مشاهد أو أحداث عايشها ببراءة وكتب عنها ببراءة.. مندفعة من ذاتية أحيانا إلى موضوعية أحيانا أخرى لتشكل مادة خاما يستطيع أن يتفرّغ إليها البحث ليستشف عناصر تاريخية من وحي النسق العام لجملة الكتابات كلما تضاعف منتوجها.

وفي هذا الصدد تأتي مذكرات الأستاذ ميلود رقيق تُدلي بدَلوها وتشارك أخواتها من الكتابات، وتُسهِم في هذا النشاط لتُلَبي دون طلب ولكن بوعي أو بطلب من الضمير أن يَرصُدَ ملامحَ مرحلةٍ من عمر شخصه، لكنها في الحقيقة تنقل مرحلة عمرِ مجتمع اجتمعت ظروف اليأس فيه، واختلفت طرائق هجرتهم بين شرق وغرب وشمال، طمَعاً في سلعة غالية لم تتوفر عليها بلادهم أو بحثاً عن عَيْشٍ كريمٍ يَقيهم شَرَّ البلاء الذي كَبَّلَهم .. تختلف المُعاناة وتتراوح المسرَّات وتَتَدَفَّق الآمالُ والطموحات لكنها في الأخير تُعبر عن

ضمير واحدٍ، فالذي عاناه من لجأ إلى تونس هو الشعور نفسه تجده عند من لجأ إلى المغرب...

لا يَدَّعي الأستاذ ميلود رقيق في هذه المذكرات، أنَّه يَحمل قلمَ أديبٍ أو وعيَ مُؤَرخ، أو يدعي أنه بَطل استكشافٍ، إنما هو مُجرد إملاءُ ضميرٍ يَحثُّه على ترك أثَرٍ لعلَّه يُشكِّل حَدَثاً إذا ما دَعَت الضَّرورة أنْ يكونَ شاهداً على مرحلة هامة من تاريخ الوطن، وكيف فَعل بأبناء جيله التَّشريد واللُّجوء غير الطَّوعي، والشّرب من مِحن الحياة القاسية.. ولعلها أيضا- وهذا الأهم بالنسبة للكاتب حاليا- محاولةً منه أن يفرغ شُحنَة ألَمٍ لازَمتْه طويلاً وواكبته عمراً ليس بإمكانها أن تبقى في كيانها الداخلي فتسبب عاهة أخرى في نفس صاحبها، فسبيلُ البَوحِ هو أرقى العِلاجات الممكِنة في هذه المناسبة، إنَّها في هذا الشّأن تُريد كذلك أن تُصحِّح أخطاء البصر لأبناء جيل ما بعد الاستقلال، حينما يَرَوْنَ في الجيل الذي سبقهم بصفته الحالية التي برئ ظاهريا لكن الاكتواء لا يزال إيلامه غائرا، وهذا الذي لا تبوح به إلا صورة التعبير...

إنها المأساة لكنها المدرسة، فصاحبُ هذه المذكرات، يقرأ هو نفسه من الحياة، أن مدرسة النجاح هي التي يكون فيها شيء من المرارة والقساوة أحيانا، إنه يرى في هذا الجيل وفي نفسه حسرة.. منبعها الازدواج المتناقض، قساوة الحياة التي مر بها وجعلته يتكوّن من خلالها تكوينا شاملا.. وبين رَغَد العيش الحالي وما يصنعه من

أجيال تَنعم في الخيرات وتكفر بكل شيء، وكأنَّ لسانَ حالها؛ أنَّ الدنيا إذا لم تقْسُ عليك ستكفر بها حتماً. وهي الخلاصة التي يريد الأستاذ رقيق أن يدلي بها كشهادة من خلال تجربة حياة..

تقف مذكرات الأستاذ رقيق على محَطات بسيطة بساطةَ صاحبِها، لا هي استعملت الأنا لتكون فاعلا ومُغَيِّرا للأمور والقضايا المختلفة، كما تفعل مذكرات السياسيين في الغالب، ولا هي تقرأ الحياة الخارجية بعُمق كما هي شأن مذكرات الأدباء والمفكرين، لكنها بين هذا وذاك، تقف مستسلمةً مفعول بها، تَسرد أحداث أثّرت في حياة شخصِه سلباً وإيجاباً.. فرَصد بعضها، وكأنَّه يقول لقارئه، هذه طريقي إلى النجاح، لم يكن ميسوراً، فخُذ العبرة.. ويقرّ شاهداً على معاناة جيله حين تَنَكَّرَ لهم الزَّمن فأخذوا الرحالَ مضطرين ملتاعين إلى بلد آخر يكفلهم.. وبذلك يكون للقارئ الكيفية المحضة التي يرى بها هو، كيف يقيس الأشياء، وكيف يخلق من هذا النص نصاً أو نصوصاً جديدة..

د.عيسى بخيتي

عين تموشنت يوم: 07- 07- 2017

تَوطِئَــة

قال وهو يُحدِّث نفسه ذات يومٍ:

إيــهْ!!! نحن نتقدم في السن، فتَصبح الذِّكرياتُ العديدة تُراودُنا، منها المُؤلِمة ومنها المُفرِحة، نَبكي أحياناً من ألَمِها أو من فرحها. ذكرياتٌ تأخذُنا إلى عالم الطُّفولة والشباب.

يَصير كلُّ شيءٍ ماثلاً أمام أعيُنِنا وكأنَّه كان بالأمس القريب. حينها نقول لأنفسنا: لماذا لا نَتركُ هذه الذِّكريات تَنْسابُ كَقَطراتِ المَطرِ التي تَنزلُ من السَّماء صافيةً عَذبة، نَتركُها تَتَلاطمُ كَتِلك المياهِ المُتَدَفِّقَة من شَلاَّلِ الذِّكريات، شَلاَّلاً ناصعَ البَياضِ فتغسلُ أجسامَنا؟ لماذا لا نَفعل ذلك، لَعَلَّنا نَشعر براحةٍ وطُمَأنينةٍ تُخَلِّص أنفُسَنا من عُقَدِ الماضي ومن كُلِّ شيء يُعَكِّرُ صَفوةَ حاضرِنا؟

ثم استَطْرَدَ قائلاً :

أَنَكْتُبُ إلى أولئك الذين عاشرُونا وعاشوا مَعنا وتَقاسَمْنا معهم الذِّكريات؟ أم نَكتبُ إلى مَن سَيخلفونَنا في الحياة، لعلَّهم يَتذكَّرونَنا ولو بكلمةٍ أو بدَعوةِ الإلهِ الذي خَلَقنا ورزقَنا وأطال في عمرنا إلى وقت كتابة هذه الـمُذكِّرات.

عندما هَمَّ بالكتابة، احْتارَ في البداية من أين يَبدأ؟ أَيَبدأُ من اليوم الذي وُلِد فيه كما حَكَتْ له أمُّه- الله يَرحمها؟. .. أم يَبدأُ ويَكتبُ عن أيام الطُّفولة وهو يلعب مع الصِّبيان؟ أم يكتب عن تلك اللَّحظات التي خَطَا فيها أوَّلَ خَطواته نحو المدرسة؟ أم عن كلِّ ذكرياتِه ويَملأ بها الصَّفحات لعلَّها تَحكي لغيره قصتَه مع حياة الغُربة التي عاشها لمدة 25 سنة في أرض المهجر بالمغرب الأقصى، بين قُراه الريفية ومُدنه الحَضرية، بين عالَمِ البَداوة وعالم المدينة.

هناك وُلد وتَربَّى وتَعَلَّمَ ونَشَأَ وعاش عَيشةً ليست كلها بائسة ولا ميسورةً، بل حياتُه كانت تشبه كثيراً الفصولَ الأربعة: فيها الرَّبيع والصَّيف والخَريف والشِّتاء. لكل فصل من هذه الفصول الأربعة دوراتُه كدورات عمر الإنسان: من الطفولة إلى الشباب، ثم الرجولة وأخيراً الكُهولة التي لا تَرحم كُلَّ مَن كُتبت له الحياة.

سأترككُ أيها القارئُ الكريم، تَكتشفُ من خلالِ هذه المذكِّرات ما عاشه صاحبُنا في حياته حتى السنّ الثلاثين من عمره، قد تكتشف من خلالها الفرقَ بين الأمس واليوم، بين الماضي والحاضر، بين الهجرة والحنين إلى الوطن.

الكاتب، شعبة اللحم في 05 جويلية 2017

البريد الإلكتروني:
midereg@yahoo.fr

01

بَينَ الكُتَّابِ وَالمَدرسَة

1- الأصلُ والولادة والنشأة:

2- «السَّقَّاية":

3 –المسجد وكُتَّابُ القَرية:

4- قرية «النْعَيْمة» وحَوْشُ الجَدِّ:

5- ويَدخلُ المدرسة:

6- ذِكْرياتٌ لا تُنْسىَ:

1-الأصلُ والولادة والنشأة:

كان صَبياً لا يَعرفُ عن حياة أسرته سوى أنّها هاجرت مع آلاف الأُسَر إلى المغرب الأقصى واضْطرّت أن تعيشَ في بلد غير بلدها. هو يعرف الآن أنه وُلد هناك بعيداً عن موطن أجداده، وتَرعْرَعَ مثلَ جميع الصبيان في وسط اجتماعي ريفي تُمَيِّزُه البساطة.

لم تَكُن حياتُه تختلفُ عن حياة إخْوَته في شيء، يلعب كما يلعبون، ويمرح بمثل ما يمرحون، بحسبِ ما يُتاح لهم من لَهْو ومَرَح. ويشارك في الحياة العامة بما كان يُناسب وضعَ الإنسان آنذاك. من أحوال وأعمال. يُشارك في الفلاحة من زَرْعٍ وحَرْثٍ على الرغم من صِباه. كان الرَّعْيُ ضرورة مُلحّة، يُبادر فيه من حينٍ لآخرَ آخِذاً بزِمامِ القطيعِ ومُراعيا حَذَرا بما يَخرج من الطبيعة من حَشرات وحَيَّاتٍ. كان جَلْبُ الماءِ شيئاً عَسيراً ويُعتبر نشاطا آخرَ تفرضُه طبيعةُ الحياةِ وطُقوسِها. ولله دَرُّ الأحْمِرَة التي ساهمت بقسط كبير في تزويد الناس بالماء الشّروب، يَضعون فوق ظهورها بَراميلاً يَملئونَها ماءً. وكان حينَها قائداً مُداوِماً بين البيتِ و"السَّقَّاية".

يتذَكَّر اليومَ ذلك المكان المنعزل الذي اتَّخَذَهُ أبوه «سي محمد لَفْقيرْ»- هكذا كان أهل البلدة يسمونه- مكاناً استقرَّت فيه عائلته المتكونة من سبعة أفراد هو ثامنهم. كل ما يعرفه أنه ازداد هو وإخوته وَسَطَ تلك القبائل والعروش، وأنه لم يَكن يعرف آنذاك عنها شيئا سوى أنّ بعضَها يَتكلَّم لغَةَ أمّه وبعضها الآخر لا يعرف من

كلامهم سوى بعض الكلمات. قيلَ له فيما من بعدُ، أنَّ هذا المزيج من الناس منهم من يتكلَّمُ اللغة العربية ومنهم من يتكلَّم الأمازيغية.

تميَّزت أيَّام طفولته الأولى بالرَّتابة والبساطة في كل شيء: في المَأكل والمَلبس، وحتى في الحديث أو الاستماع إلى ما تَرويه لهم أمُّه «الحُرمِية»- هكذا كان أبوه ينادي عليها بهذا الاسم أمامهم- وهم حولَ «كانون» نارٍ ينتظرون طهيَ رغيفَ خبزٍ أو طعام أو حَسَاءً يَسُدُّ رَمَقَهُم ويُطفِئُ نارَ جوعِهم.

وضَعتْ أمُّهُ «المُقراج »[1] لتسخينِ الماء ليَمْلأَ أبوه به إبريقَ شاي قد يُنعِش أجسامَهم ويزيد أنفسَهم أَمَلاً إلى غدٍ أفضَلُ من حاضرهم.

هكذا كانت حالُ أسرتِه لا تختلفُ كثيرا عن حال بقيةِ الأُسَرِ المهاجرة هناك.

في تلك البُقعة بالذَّاتِ من تلك الأرض التي آوَتْهُم، كانت جوارِحَهم تَتطلَّعُ وتَتشوَّقُ بأن لِتَرى وطنَ أجدادهم يَتخلَّص من ظلام الاستعمار، ويعود النَّازحون إلى الأرض التي تربى وعاش ومات فيها أجدادُهم.

هل يمكن، هو وأسرته، بأن يَنعموا يوماً ما مثلَ غيرهم في هذا العالم بالحرية والإنعتاق؟ لا شك أن كُلَّ أفراد هذه الأُسَر المهاجرة تَشْرَئِبُّ أعناقَهم وتَتَطَلَّعُ جوارحَهم إلى ذلك اليوم المشهود، وكُلُّهم

---

[1]- المقراج، هو البُقْراجّ: وِعاءٌ مِنْ مَعْدِنٍ لَهُ عُرْوَةٌ وَبُلْبُلٌ يُسْتَخْدَمُ لِتَسْخينِ الماءِ(معجم المعاني الجامع). يُستعمل اسم المقراج في الْمَغْرِبِ و غرب الجزائر.

شوقٌ وحَنينٌ يوم يَلتئِمُ شَمْلَ الأُسَر المهاجرة مع الأُسر التي بَقيت ولم تُغادر البلاد.

تفتَّحَت عيناه على الدُّنيا وأدْركَ ما يُدركه كل صبي في سنواته الأولى من العمر، وعندما كَبُرَ صارَ يتطلَّعُ كلَّ يومٍ لتتخلص نفسه من الغربة وقسوتها. كان في قرارة نفسه يحسد أطفال الأُسَر التي بقيت هناك لأنها- في نظره- يتمتع أفرادها على الأقل بدُفء الوطن، ليس كأسرته التي كانت تَئِنُّ تحت وطأة هذه الغربة التي لم تخترها طوعا، بل فُرضت عليها فرضا، خاصة بعدما تأكد جدُّه بأنَّ البقاءَ هناك فناءٌ ودمارٌ.

هو يَعلم اليومَ بعدما كَبُرَ أن قِصَّةَ الأُسَر الجزائرية المهاجرة إلى دُوَلِ الجوار بدأت منذ أن وَطَأت أرجُلَ الأقدام السُّود أرضَ الجزائر. بدأ عَددُها يتزايد مع وطأةِ الجيوش الاستعمارية الفرنسية وهي تَغْتصب أراضيهم قَهْراً وَجوراً، في الشمال والجنوب، في الشرق والغرب. حاول أرباب هذه الأسر بما أوُتوا من قوة صَدَّ هجماتِ الجيوش الشَّرِسَة وانخرطوا في صفوف المقاومات الشعبية في كل جهة من جهات الوطن، غير أنَّ ذلك لم يمنع القوى الجبارة المتسلِّطة من غزو كل شبر من أراضي بلادهم. لهذا لم يبقَ خيارٌ أمامَهم سوى الهجرة الجماعية إلى تلك البلاد المجاورة للبحث على الأقل عن مكان آمنٍ يَقي عائلاتهم من الفَناء.

سأل أباه يوما: متى وَقَعَتْ هجرتكُم يا أبي؟ أجابه قائلا:

- لا أتَذَكَّرُ ذلك بالضَّبط يا بُني، كلّ ما أعرفه أنّي كنتُ في ريعانِ شبابي عندما هاجر جدُّك مع عدد كبير من عائلات مختلف القبائل بعد فشل ثورة سيدي بوعمامة في مقاومتها لفرنسا، هكذا سمعتُهم يقولون.

استنتج الصبي فيما بعد أنَّ تاريخَ هجرة أسرته، كانت في نهاية القرن التاسع عشر أوفي بداية القرن العشرين، لسبب واحد على الأقل وهو أن أباه – رحمة الله عليه – ولد في نهاية القرن التاسع عشر سنة 1889، كما تشهد ذلك وثائق الحالة المدنية التي يَستعملُها إلى اليوم في الوثائق الإدارية المختلفة.

كانت المنطقة الأولى التي اتَّخذَها جَدُّه "بن ميلود" وأبوه "سي محمد لفقير" مُستَقَراً لهم لا تَختلف عن المناطق التي جاءوا منها: هضابٌ عليا من الأراضي المنبسطة لا تكاد عينُكَ تَحُدُّها من الجهات الأربعة. أرضٌ ما هي بالقاحلة ولا بالخِصبة. إذا سَقطَ المطرُ اخضرَّت أعشابُها، وإذا شُحَّتْ يَبُسَ كلُّ شيء فيها. فلا تجدُ المواشي ما تأكلُه. فيضطرُّ السكانُ الرحالة الذين يحترفون تربية المواشي من أغنام وماعز وإبل من البحث عن أماكن جديدة. يطوون خيامَهم ويحملونها عل أظْهُرِ الجِمالِ حتى إذا ما وَجدوا أرضاً بها أعشاب، حَطُّوا الرحالَ وضَربوا خيامَهم وفَرِحوا بما أتاهم اللهُ من نِعَمِه. لا تجد في هؤلاء القوم البُسطاء ما يُعَكِّرُ صفو تفكيرهم ونَمَطِ معيشتِهم البَدوية الأصيلة، أحرارٌ بُسطاءٌ في كل شيء. لا يعرفون

من تعقيدات حياة المُدنِ شيئا يجعلهم يَتَخَلَّون عن حياتهم البسيطة في الأكل والملبس أو يُجَرِدُهم مِمَّا تَوَارَثُوهَ عن آبائهم وأجدادهم من عاداتٍ وتقاليدَ منذُ زمنٍ بعيد.

في هذه المنطقة السَّهبية الشّاسعة الأطراف، توجد مدينة سُمِّيت بالقبيلة التي تَقطنُها، مُضافٌ إليها عَين من عيون المياه الغزيرة المتدفِّقة من أراضيها. إنَّها "عَينُ بني مَطْهَر" أو كما يَحلو لأُناسٍ آخرين تسميتَها بـ"بَرْقَنْتْ"أو بَرْكَنْت Berguent [1]

وهو اسم أمازيغي كان يُطلَق على اسم مكانٍ من الوادي الذي يُحيط بها من الجهة الغربية والمسمى بوادي "الشارف".

في الجهات الأربعة من هذه المدينة قبائل «بني مطهر»وهم سكان المكان، وقبائل أولاد "سيدي علي" في غربها و"بني كيل" في جنوبها. تعتبر هذه المدينة أيضا بوابة نحو المنطقة الصحراوية.

---

[1]- تسمى أيضا «رأس العين»، سكنتها قبيلة بني مطهر، وهي قبيلة كبيرة ذات فرعين هما: بني مطهر الشراقة المتواجدة مضاربهم في تلاغ ومرحوم ومنهم أولاد حمدون وأولاد العيد و أولاد الصديق. أما الفرع الثاني فهم المتواجدين بالمغرب في عين بني مطهر منذ قرون ويتكون هذا الفرع من عدة دواوير ومنهم الفقرة و أولاد قدور وأولاد داود و أولاد حمادي و أولاد بن عيسى. كما يؤكد كثير من الباحثين في تاريخ القبائل أن هذه القبيلة كانت همزة وصل بين الجزائر والمغرب.

هنا في هذا المحيط الواسع، وُلد صاحبُنا بـ"بَرْقَنْتْ"وسُجل في دفاتر حالتها المدنية التي كانت تشرف عليها المكاتب العربية التابعة للإدارة الفرنسية؛ وهنا دُفن جَدُّه وجَدَّته بعد أن تركا وراءهما أبوه لوحده يتعارك مع الحياة باذلا كلَّ ما في وُسعه لرعايته هو وإخوته حتى يقدروا على مواجهة الحياة.

اتخذ أبُوه "سي محمد لَفقير"من هذه الجهة مَلجئاً يَسْتَرزُقُ منه قوتَ عيشهم. لقد كان هذا المكان يُشبه إلى حَدٍّ بعيدٍ تلك الأماكن التي تَنحَدر منها أسرتُه. كان أبوه يُحَدِّثهم كثيرا عن تلك البقاع بالهضاب العليا الغربية لبلده، وكُلُّهُ شَوقٌ يَحِنُّ إليها. يتذكَّرُ صباه ونشأته الأولى قبل أن تَغْدُرَ به وبأسرته أيادي الاستعمار. يُحَدُّثهم عن عرشه وقبيلته وأصلهم، ويُرَدِّدُ لهم دوما هذا المثل الذي لم يَنسَهُ أبدا:«الشَّمْسْ مِن لِّي تَطلَّع في السْمَا وهي تْقُولْ: أصْلُكَ أصْلُكَ حَتى تَتْمَسىَّ».

أصلُ أسرة صاحبنا من قبيلة عَريقة تُسمى «عِكْرِمَة «(أوكما يَنطقها الناس : عَـكَّرْمَـة). هذا ما أكَّدَهُ له أبوه مرارا وهو صغير، وبعد أن كَبُرَ أصبَحت هذه المسألة لا غُبارَ عليها. كُلُّ وثائق الحالة المدنية لأصوله تثبت ذلك وهي مدوَّنة بسجلات بلدية "عين بن خليل" التابعة اليوم لولاية "النعامة".[1]

---

[1] - قبيلة عكرمة عرش من عروش قبائل "حَمْيَانْ " الهلالية المعروفون بالحِمْيَة والكرم والجود وصِلة الرحم.

هولا يتذكر الشيءَ الكثير عن البُقعة الأولى التي سَكَنتْها عائلتُه، سوى أنه ازْدادَ في رُبوعِها هو وإخوته. تشاء الأقدارُ أنَّ بقاءَهم فيها لم يكن إلا بضعَ سنين، بعدها انتقل بهم أبوهم إلى مكان آخر أقرب إلى أهل أمه «الحُرْمِيَة ».

و"الحُرْمِيَةُ". اسم أشتقَّه أبوه لأمه نسبة إلى عرش "الحُرميّين" المنتمي بدوره إلى قبيلة "المْهَايَة الشمالية" المغربية، وحتى هذه الأخيرة مقسومة إلى فرعين. ، فرع في الجنوب بمنطقة "تِيوْلِي" [1] الواقعة شرق مدينة "جرادة" [2] المعروفة بفحمها الحجري، وفرعٌ شمالي بالمنطقة الواقعة غربَ مدينة وجدة عاصمة الجهة الشرقية للمملكة؛ ومن هذه الأخيرة تنتمي أمه. [3]

1- " تِيوْلي": جماعة قروية تابعة اليوم لإقليم جرادة من الجهة الشرقية بالمغرب يفوق سكانها 5 آلاف نسمة حسب إحصاء 2014.

2- توجد مدينة جرادة جنوب غرب مدينة وجدة عرفت قديما بمنجم الفحم الحجري الذي استخرج منها سنة 1936 من طرف الفرنسيين. وحسب الأسطورة الشعبية فان اسم جرادة يأتي من كون أحد الرعاة شاهد جرادة على ظهر شاة قادمة من الظهرة (الهضاب العليا لمنطقة ببرقنت) ولم تطر وتغادر ظهر الشاة إلا بعد وصول القطيع إلى قمة " الشَخَّار" (الشخار اسم جبل ومنطقة جبلية تقع شرق المدينة).

3- تعتبر قبيلة المهاية من أكبر قبائل المغرب الشرقي، تتحاد مع قبائل بني يزناسن شمالا، **وقبيلة السَّجعة غربا**، و قبيلة زْكارة و بني يَعْلا جنوبا. أرجع السيد حاكمي مصطفى البوشيخي مقدم وخادم الطريقة الشيخية الشاذلية أصل و نسب قبيلة المْهاية إلى هلال بن عامر، وبالتحديد من عياض بن مشرف بن أثبج بن أبي

2- "السَّقَّاية":

هذا المكان الجديد هو الذي كان مُنطَلَقا لحياته كلّها. احتضنه في رَيعان شبابه. يتذكَّرُهُ مع كل بقعة خَطتها رِجلاهُ بتلك الدَّواوير المنتشرة هنا وهناك حول قرية صغيرة قابعَةٍ في سَهلٍ تُحيطُ به الجبال من الجنوب والشمال، سَهْلٌ مُنفَتِحٌ أُفُقُه نحو الشَّرق حيث توجد تلك المدينة الكبيرة، وفوقها تُطِلُّ من الناحية الشرقية الجنوبية جبال وطنه المسلوب. يتراءى لك جبل «عصفور» [1] وهو ينظر إليك وينتظر عودتك. يَضيقُ هذا السهل غربا تاركا مَسلكين، الأول للطريق الوطني المعبد والثاني لخط السكَّة الحديدية. ، كلاهما يربط بين شرق وغرب المملكة.

ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر، فأصلهم عربي مواطنهم تحيط بمدينة وجدة، كتيولي والنعيمة، وعين بني مطهر، يرجع الى الموقع الالكتروني:
.http://www.sidiahmedbencheikh.com/Kabilat-Lamhaya.php

وتنقسم قبيلة المهاية إلى البطون التالية :أولاد سعيد، الرحامنة، السْبيطيين، الشبكة، الحْداحْدَة والمدافْعيين. معروفون شرق المغرب وفي بعضهم في الجزائر وأروبا.كما تتفرع قبائل المهاية الى عدة فروع: أولاد معمر و الوساطة و أولاد بركة و أخيرا العشاش وكل فرع يتفرع بدوره الى بطون او دوار كما كنا نسمع و نحن صغارا، و هكذا نجد أن العْشاش تضم الزْوايد- اللْواحَك- اولاد حْبال- المعاتيك- الحُرميين- النْهاريين- اولاد بْراز- المدافعية .

[1] - هو جبل ينتمي إلى سلسلة جبال تلمسان الغربية يفصل بين الجزائر والمغرب يطل على وجدة من الناحية الغربية و على مغنية من جنوبها

وأنت تُلْقِي بنظرِك في هذا الأُفُق الواسع، تَتَراءى لكَ المنازل الطوبية المنتشرة هنا وهناك وَسط حقولٍ زراعيةٍ تَنتظر قَطرةَ ماءٍ من السماء تَسقيها فَتُطفِئ ضمأها. أرضٌ شبه قاحلة لا ماءَ بها ولا شَجر. لم يفكر أهلُها في حفر بئرٍ يشرب منه الإنسان والحيوان لكون مائها غائِرا بَعيدا في أعماقِ الأرض.

الكلُّ يعتمد على ما تَجود به حَنفية القرية التي جُلِبَ ماؤها من بَعيد. تَرى الأطفالَ والنِّسْوَةَ كلَّ يوم متجمعين حولها. هذا يَملأ براميلَه بمياهها المتدفّقة ويَحمِلُها فوق أظهر الأَحْمِرَة، وذاك ينتظر دورَه لتَشرُبَ قطعان ماشيته. الكلُّ منهمكٌ ليأخذ نصيبَه من الماء وَسَطَ الغبار المتطاير في فصل الصيف، أو وَحْل ترابِ الأرض في الشتاء. الكلُّ يُحْدِثُ صَخَبا وضَجيجا وعِراكاً أحياناً. المهم أنَّ كلَّ واحد يَقصد هذه "**السقاية**" يأخذ نصيبَه من الماء ولو تَطَلَّبَ ذلك ساعات طوال.

أما القرية في حدِّ ذاتها، فلم تَكُنْ سوى محطَّة للسكة الحديدية العابرة للسهل. يتوقَّفُ القطار فيها أحيانا؛ فينزل منها المسافر العائد لأهله، أو يركب إحدى عرباتها كل قاصدٍ للمدينة، إما

لقضاء حاجاته في التَّسَوُّق أو زيارة أحد الأقارب الذين حُظِيوا بالظَّفَرِ بسَكنٍ ووظيفة. لقد أوتِيَ هؤلاء حَظّا خَلَّصهم من بؤس القرية وضَنَكِ الحياة فيها.

3-المسجد وكُتَّابُ القرية:

حول هذه المحطَّة التي تحوَّلت إلى قرية صغيرة، سمَّاها أهلها «النْعَايمة» أو «النْعَـيْمَة» تَصغيراً لحَجم بناياتها وعدد سكانها[1] آنذاك. بُـني بها مسجدٌ صغيرٌ تُؤَدَّى فيه الصلاة، وبجانبه قاعَةٌ لتعليم الصغار القرآنَ الكريم والحروف العربية الأبجدية، تَتَوسَّطُهما ساحة غُرست فيها شَجرةُ تينٍ تُغَطِّي بضلالها الكُلَّ من أشعَّة الشَّمس الحارَّة في فصل الصيف والخريف. أما في فصل الشتاء فلم يَكن هناك أي شيءٍ يَقي هذا المكان من البرد القارس بعد أن تَفقِد شجرةُ التين أوراقَها وتَتناثر في فناء المسجد. هذا هو المكان الوحيد الذي يتعلَّم فيه أطفال

1- بلغ عدد سكان جماعة "النعيمة" 1088 نسمة وفقاً للإحصاء العام للسكان والسكن سنة 2014.

القرية والدواوير المجاورة القرآن الكريم والحروف الأبجدية للغة العربية قبل دخولهم المدرسة.

يُشرِف على المدرسة إمامٌ متمَرِّسٌ حافظٌ للقرآن كلِّه، لا يُضاهيه فقيهٌ آخر في المنطقة. لم يعرف الصَّبيُّ إماماً أو فقيهاً غيرَه في الجهة. "سي أحمد الصنهاجي"– الله يرحمه برحمته الواسعة– شيخٌ ذو لِحيةٍ تملأ وجهَه الناصع بالبياض. كبير الهيأة، يملأه الوقارُ من كل جانب: في لباسِه المتكوِّن من الجِلباب الأبيض، والقُبُّعَة الحمراء التي لا تُفارق رأسَه. يُقال أنه من أهل «فاس» العامرة. وأهل فاس مَعروفون منذ القِدَم بفقائها وعلمائها في الدين والشريعة الإسلامية. هو يحمد الله أن الحظَّ وافاه فكان من طلبة "سي أحمد الصنهاجي". لا ينسى فضلَه طوال حياته لكونه هو من عَلَّمَهُ القرآنَ الكريم والحروف الأبجدية، وبهما خَطا خطواته الأولى في التَعَلُّمِ والحياة.

وهو يتذَكَّر "سي أحمد الصنهاجي"، يَتذكَّر كلَّ أصدقائه بالكُتاب، يتذكَّر يومَ كان يجلسُ على الحصير ولوحتُه الخشبية بين رجليه يحفظ منها ما أملاه عليه هذا الفقيه الفاضل. يَتَذَكَّر كيفَ بدأ وكيفَ أتَمَّ "السَّلكة"[1] وحَفظ القرآن كلّه.

ترجع ذاكرة صاحبنا ويَتَذَكَّر تلك القرية الهادئة النائمة. لا يوجد بها سِوى زُقاقَين اصطَفَّت حولهما بعضُ الدَّكاكين البسيطة

[1]- هي حفظ 60 حزبا من القرآن الكريم.

لبيع بعض المواد الغذائية أو لاحْتِرافِ الحِدادة أو الإسْكافَة أو لإصلاحِ عَجلات العَربات والدرَّاجات الهوائية. هولا يعرف في ذلك الوقت سوى هذه الدرَّاجات التي تُسمى بـ"البِيسيكلات". وحتَّى هذه الأخيرة لا يَقْتنيها ويَركب عليها ويَدوسُ برجلَيْه على دَوَّاسَتَيْها سوى مَن أُوتِيَ حَظّا عظيما. يَتذَكّرُ يوما أنَّه رَكب "بيسيكلات" صديقٍ محظوظٍ له. وما إن انطلقت به حتى أسقطَتْه أَرْضا بعد أن الْتَوَتْ عَجلَتُها الأولى ومَزَّقت سرواله. لا ينسى ذلك اليوم المشؤوم أبداً حيثُ رَجع من القرية إلى الدار لتغيير سِرواله، فَفَاتَهُ وقتُ الدَّوام على المسجد.

يتذكّرُ كالبارحة أنه عندما عاد إلى الكُتاب ناداه الفقيه قائلا:

- »وأنت يا وَلْد "سي محمد"وينْ كنتِ؟؟ دَابَا راكْ عَادْ جَايْ تْـتَكَسلْ علَـي"!!

لم يترك الفقيه للصَّبي فُرصة ليجيبَ أو ليُبَرِّرَ تأخُّرَه. أخذ عصاه الطويلة وضربه ضربا غير مبرح. لقد كان يُكْنُّ لأبيه احتراما وتقديرا و"مَعَزَّة كبيرة". أبوه يُكرمُه دائما بالسَّمن و"الكْليلة" والجُبن كلما زار القرية. أما يوم عيد الأضحى، فكبشُ العيد يأتيه حتى الدار إكراما له.

4-قرية "النْعَيْمة" وحَوْشُ الجَدِّ:

طاحونة القرية خَصَّها صاحبُها بمكانٍ مُمَيزٍ بين كل الدَّكاكين، لأن كُلّ واحد من أهل البلد يَقصُدها لطحن الشعير وقليل من القمح لكونهما القوت الغالب في معيشة سكان القرية وسكان منازل الفلاحين المنتشرة هنا وهناك.

لم يكن بالقرية ولا بالدَّواوير المُجاورة في هذا الفضاء الواسع من السَّهل المترامي والمبنية منازل سكانه بالطُّوبِ لا كهرباء ولا قارورة غاز. الشمع أو"الكانكي"[1] والحَطب وحدهما الكفيلان لإضاءة وطهْي الطعام وخبز الشعير. الأول يُحسَبُ له ألفَ حساب حتى لا يُستعمَلَ فوق الحاجة، أما الحَطَبُ فيُشترى من السوق أو يُقلَعُ ويؤتى به من شجر السِّدْرِ[2] المنتشرِ بكثرة في هذه الجهة المتميز مناخها بالجفاف. لم يكن حظ الواحد من الشَّمع إلا ما فَضُلَ منه بعد تناول العشاء؛ يستعملونه

1- هو فانوس يشتغل بمادة تسمى «الكاربيل".

2- السدر أو السدرة شجرة شوكية تنمو في المناطق الجافة.

للإيواء إلى فراش النوم في الساعات الأولى من اللَّيل، أو ينهضون باكرا على ضوئه عندما يذهب كلُّ واحد إلى مآربه؛ هذا يخرج قطيع الغنم والماعز مبكرا لترعى بعد أن أصابها الجوع في ليلها الطويل، وذاك يُدَبِّرُ شؤونَ يومه في أي عمل يُعيلُ به أسرته. أما الأمُّ فكانت الأولى مَن تنهض في الصباح الباكر؛ لتحضر الفطور من خبز وشاي وتترك قطعا منه ليأخذه كل واحد لغذائه. فغالبا لا يجتمع شمل الأسرة إلا بعد غروب شمس كل يوم.

في هذا الوسط البيئي بدأ الصبي يَتعرَّفُ على أشياء وأشياء. منها التي يتذكّرها، ومنها التي اسْتُعْصِيَت على ذاكرته بعد أكثر من ستِّين سنة خَلت.

يتذكَّر ذلك القطار وهو يَملأ السهلَ بصوته المدوي كالرَّعد والدُّخان يتصاعَدُ من قاطرته. ويتذكَّرُ "حَوْشَ"جده "سي عمرو". منزلٌ بُنيت بيوتُه كلُّها بالطُّوب الذي يُستَخرَجُ ترابُه من نفس المكان. يَحفرون حفرة كبيرة ويُضيفون لها التُّراب المستخرج منها بالفؤوس شيئا من التِّبن. يُعجَن الكُلُّ ويُرفَسُ بالأرجل حتى إذا ما اختلَط الكُل واسْتوَى وُضعَ في قالبٍ مستطيلٍ من الخشب. يُترك الطُّوب يَجف تحت أشعة الشمس الحارقة حتى يصير كالأجر الصَّلب فيأخذه البنَّاءون ويبنون به الجدران. لا أسمنت ولا رَمْلَ ولا حَصَى كما يفعلون اليوم يشترونه جاهزا من معامل الآجر.

بيتُ جده مُتكَوِّن من دارِ خالِه "سي علي" والدَّار الكبرى التي يجتمع فيها الجميع عند كل مأدبة عشاء. بقُربها بيتان واحد على يمينها تُسَمَّى البيت الصغيرة والثانية على يسارها اتُّخِذَت مطبخا تُشعَلُ فيه النار في «الكانون» لِطَهْي الطَّعام وصنع خبز الشعير أو تسخين الماء في "المقراج" لتحضير الشاي. في شرق هذه البيوت الأربعة إسطبل مستطيل الشَّكل هو مَبيت للمواشي كلّ ليلة.

بُني «حَوشُ»جدِّه منعزلا في شرق القرية بأقل من كيلومترين تفصل بينهما طريق تُرابي مُحاذي للسكَّة الحديدية. كان الصبيُّ يقطعه كلَّ يوم ذهاباً وإياباً لجلب الماء من "السَقَّايَة" أو للذهاب إلى الكُتَّاب والمدرسة مشيا على الأقدام.

في هذا "الحَوش" تَربَّى صاحبنا وعرف الدنيا وتَفَتَّح العالم من حوله.

قبل أن يصيرَ عضوا من أفراد أسرة جده، كان يرافق أمه "الحُرْمية" كلَّما زارت أباها "سي عمرو". كان يَسْتَرِقُ السَّمعَ من أبناء خاله "سي العيد" و"سي علي" وهم يتحدَّثون عن المدرسة والكُتَّاب، أو يحفظون بعض الدُّروس من المحفوظات والسُّور القرآنية. يغار منهم وهم يُحدِّثونَهُ عن "الجامع « والمدرسة، ويتمَنَّى أن يكون مثلهم. لم تتح له مثل جميع الأطفال أن يدخل المدرسة إلا في سن العاشرة من عمره. ولولا جَدِّه "سي عمرو" – الله يرحمه – لَما عَرفها أبداً، ولَظَلَّ طولَ عُمره أُمِّيا.

ما زال يتذكَّر ذلك اليوم الذي تَفتَّحَ فيه الأُفُق واسعاً أمامه، بعد أن تَمَكَّن جَدُّه "سي عمرو" من إقناع أبيه بأن يَتْرُكَه عنده ليُدخِلَه الكُّتاب والمدرسة مثله مثلَ بقية أحفاده.

شاركته في ذلك جدته من أمه "دَادَة" التي يُكِنُّ لها أبوه كلَّ الاحترام. الإثنان "سي عمرو" و"داد+ة" هما من كانا وراء دخوله الكُتَّاب أولا، ثم المدرسة ثانيا.

لم يكن الأمر سهلا في البداية حتى يَقتنع أبوه بالفكرة. فهولا يريد من الحياة سوى أن يبقى كُلّ أبنائه مجتمعين حوله يُعينونَهُ على تَحَمُّل أعباءَ الحياة. لا يَستغني عن أحدٍ منهم مهما كَلَّفه ذلك من تضحية. كيف لا وهو الذي كان يسعى بجميع الوسائل ليبقى الجميع مجتمعين تحت كنفه!. يَكفيه فقط أن أُسرَتَه هاجرت قَصرا وظُلما وتَغَرَّبَتْ بعيدةً عن جُذورها التي نَبَتَت فيها، بعيدةً عن عَرش قبيلتها «عِكْرِمَة الغْرَابة»[1] التي كانت يوما ما تنتمي إليها وتحتمي بحماها، فأصبحت كالشجرة المقطوعة من جذورها.

إلحاح الجد "سي عمرو" والجدة "دادَّة" جعل أباه يرضخ في النهاية إلى طلبهما ويقبل بأن يبقى الصبي في منزلهما.

---

[1] - هي عرش من عروش قبائل "حَـمْيان" الهلالية، تقتسم مع عرش "المغاولة" منطقة عين بن خليل بولاية النعامة حاليا. يقال أنها قبيلة تنحدر من الأشراف؟؟

غَيَّرَ هذا القرار من مَجرى حياة الصبي كلها، ووجَّهها وِجهة لم يعرف كنهَها إلا بعد أن كَبُرَ وتعلَّمَ. لقد ترك هذا القرار بصماته على مسار حياته بكل ما اكتنفته من أحداث لا تزال عالقة في ذاكرته إلى اليوم.

5- ويَدخلُ المدرسة:

كان من المحظوظين من أبناء جيله الذين أُتيحَت لهم فرصة التعليم، ومَزجوا بين التَّرَدُّدِ على الكَتاتيب القرآنية والتَعلُّمَ في المدارس الحكومية قليلة الانتشار آنذاك. ولحُسن حظِّه أنه كان من بين هؤلاء. أدخله جده «سي عمرو» - الله يرحمه – الكُتَّاب والمدرسة، وعرف لأول مرّة اللَّوْحَ الخشبي والقلم المصنوع من القصب يكتب به بالصَّمْغ . كما عَرف المِحْبَرَةَ وقَلَمَ الرِّيشة الذي لن ينساه أبدا. دفاترُه أغلى شيءٍ يملكه، يحتفظ بها في كيس من الكَتَّان خاطَتْه له والدَتُه "الحـُرمية"- أسكنها الله فسيح جنانه- بكل عناية وافتخار. ما زالت ذكرياته مُحتفِظَةً بها على الرغم من أنَّهُ لم يعُدْ يسمعها اليومَ كما كان يتباهى به هو وزملاؤه في ذلك الزمن الجميل.

في خمسينيات القرن الماضي، يتذكَّر أنه كان صبيا مثل جميع الصبايا لا يعرفون من الحياة إلا ما تَيَسَّرَ منها، ومع ذلك كانوا رغم سنهم كبارا يتطلَّعون إلى ما هو أفضل وأحسن عما كان عليه حالهم.

كان كُلُّ واحدٍ منهم يصبر على كل شيء لا يستطيع الوصول إليه، سواء أكانَ هذا الشيء ماديا أم معنويا. كُلُّ ما كان يَهمُّه هو وأقرانه أن ينجحوا في دراستهم ويحقِّقوا آمالَ أُسَرهم في الدراسة، وويْلٌ لِكُلِّ واحد منهم يتغيَّب أو يتأخَّر عن مقاعد الدراسة، فلا الأبُ ولا الأمُ ولا الوليُ من يُبَرِّر غيابَه أو تأخُّرَه. لم يكن حال صاحبنا مثل حال أبنائنا اليوم، يستنجدون بأوليائهم عند كل تقصير في المواظبة أو الانضباط في المؤسسات التي يدرسون فيها. كان يعتبر ذلك إهانــةً له وتنقيصاً لشخصيته وعدم قدرته على تحمُّل مسؤولياته كاملةَ غيرَ منقوصةٍ.

تقع المدرسة التي قضى فيها صاحبُنا المرحلة الابتدائية في تلك القرية التي لم تكن في الأصل سوى محطة قطار صغيرة. يديرُها الهلال الأحمر. هكذا كان يسمع، أو يعرفه من خلال علب المأكولات التي كانت تُقَدَّمُ لهم عند كل وجبة غذاء، مَكتوبٌ عليها "الهلال الأحمر". لم يكن يدري أي هلال هذا، هل هو لوطنه المسلوب، أو هلال الدولة المُجيرة، أو هلال العالم الذي كان يتفرَّج على المجازر التي كانت تُرتَكَبُ ضد شعب بلاده البريء وهولا يطمح في شيء سوى الانعتاق واستنشاق رائحة الحرية.

تتوسط المدرسة ساحةٌ ما هي بالصغيرة ولا بالكبيرة، يتوسطها علم أحمر به نجمة خضراء، يقف لتحيَّته الجميع كل صباح قبل بداية كل دوام. حجرات الدراسة تَلُفُّ الساحة، وُجِّهت طاولاتُها نحو

الاتِّجاه المعاكس لها حتى لا تلهي التلاميذ عن النَّظر إلى كل داخل أو خارج منها أو إليها.

لا يتذكَّر صاحبنا عدد تلاميذ هذه المدرسة بالرَّغم من أنه كان واحدا منهم، ربَّما كان عددُهم أقَلُّ بكثير من عدد تلاميذ اليوم الذين تكتظُّ بهم المدارس الابتدائية. ولا يتذكَّر كل الأصدقاء الذين ربط معهم علاقات طيِّبة عدا القليل منهم. ساهم الوقت وطول الزمن وبُـعد المكان في تذكُّرهم جميعا، ومع ذلك يحتفظ في مخيِّلته بأغلى الذكريات، ذكريات التَّلمذة والصبا وبراءة النَّفس وصَحْو الضَّمير. ذكريات المعلِّمين الذين كان لهم الفضل في تعليمه الحروف الأبجدية والحساب ومختلف المعارف التي تَـدَرَّجَ في استيعابها وهو ينتقل كل سنة من مستوى إلى آخر حتى وصل إلى تحصيل الشهادة الابتدائية.

لم تَكن المدرسة وحدها المكان الذي تعلَّم فيه صاحبنا، بل كان الكُتَّابُ أيضا المكان الثاني لتعليمه وتربيته. ينهض باكرا قبل صلاة الفجر فيلتحق بكُتَّاب القرية مثلُه مثل أقرانه . يحفظ [1] كل ما كتبه في اليوم السابق من الآيات القرآنية، يردِّدُها على فقيهِ المسجدِ "سي أحمد الصنهاجي"، مباشرة بعد الانتهاء من صلاة الصبح. ووَيلٌ

---

[1]- يعتبر حفظ القرآن الكريم ونحن في المرحلة الابتدائية واجبا على كل واحد منا يريد أن ينجح في مساره الدراسي، وشرفا للأسرة التي كانت تفتخر بأن ابنها من حفظة القرآن وأمرا جللا إذا أصبح فقيها بعد ذلك.

له ولأقرانه إنْ لم يتمكَّن أحدٌ منهم من حفظ لوحته [1]، فقد يناله من عصا الزَّيتون ما يعلِّمُه كيف يُواظب بجدٍّ وكيف يجتهد حتى يكون الفقيه راضياً عن عمله.

لم يكن يغادر المسجد صباحا إلا بعد أن تقترب ساعة الدَّوام في المدرسة عند حدود الساعة الثامنة. ويبقى طوال اليوم فيها، لا يغادرُها إلا بعدَ الانتهاء من كل الحصص المبرمجة من لغة عربية وحساب وفرنسية وغيرها. قد يتصوَّر أحدٌ منا اليومَ أنَّ الرجوع مساء إلى المنزل يكون عَقب الانتهاء من الدوام في المدرسة، غير أنَّ الأمرَ كان عكسَ ذلك تماما، حيث كان المسجدُ والفقيه "سي أحمد الصنهاجي"، مرَّة أخرى في انتظاره، يُمْلي عليه اللَّوحة الجديدة التي يشرع في حفظ ما دُونَ فيها قبل أن يـُؤذِّن المؤذن لصلاة المغرب، وهو الوقت المسموح بعده للالتحاق بالبيت لقضاء ما تيسر من ساعات الليل، ثم يتكرر العمل بعد ذلك في اليوم الموالي كما وقع تماما في اليوم الذي سَبَقه .

قد يتساءل أحدٌ منا اليوم ويعتبر هذا الدَّوام على المسجد والمدرسة أمرا عجيبا لفِتِيَة لم يَبلغوا بعد سنَّ المراهقة، غير أنَّ مَن يتذكَّر ذلك مثله، يزداد عَجبُه من تلك الإرادة والعزيمة التي جُبِلَّ عليها الجميع منذ الصبا. هو يتساءل في قرارة نفسه حول الشيء

---

[1] - لوحة القرآن هي عبارة عن لوحة ملساء مصنوعة من الخشب، يكتب عليها القرآن الكريم بمداد الصمغ المصنوع من الشجر وتمحى بعد الحفظ بتراب الصلصال.

الذي كان يدفعهم للقيام بكل هذا. فهل كانت الإرادة والعزيمة وحدهما كافيتين للقيام بذلك؟

لا شك أنَّ الأمرَ فيه دوافعٌ أخرى كانت تَكْمُن في تلك الخفايا النفسية والذاتية والاجتماعية التي لم يدركها الصبي إلا بعد أن كَبُرَ وتفتَّحت الحياة أمام أعينه؛ منها - على سبيل المثال لا الحصر - أنَّ الظروف التي كان يعيشها وأقرانُه، تختلف تماما عن الظروف التي يعيشها صبايا اليوم، فشتَّان بين حياة الأمس وحياة اليوم.

فهذه الظروف لا يستطيع أحد أن يفهمها إلا مَن كان مُخَضرَما؛ يعرف كيف عاش الناس قديماً وكيف هم ينعمون اليوم بشتى الأشياء التي لم يكن أولئك يعرفون عنها حتى الأسماء التي سُمِّيت بها.

يتذكَّر تلك الأيَّام وكأنَّها اليوم قريبة من ذاته وأحاسيسه، كيف لا وهي جزء لا يتجزَّأُ من حياته في الصبا. عندما يتذكَّرها اليوم يَتيهُ عَقْلُه بين العديد من الذكريات، ذكريات الماضي البعيد بكل ما يحمله من آهات وحنين: آهات الحياة القاسية التي عاشها، وحنين الصِّبا وهو يقاوم كل ما يقف أمامه للوصول إلى تحقيق ما يصبو إليه من أهداف تخرجه من وضعيَّته.

كنتَ لا تجد أحدا بين هؤلاء الصبية يتجرَّأُ ليَشْكُو حالَه للآخر، أو يَتحَسَّر على ما هو عليه .

كان وأقرانُه يعملون المستحيلَ من أجل أن يَتَفَوَّقوا في دراستهم لينجحوا في تحقيق أحلام ترتضيها أنفسهم أولا، ثم أهلهم ثانيا. كان نجاحهم مرتبطا بما يُنفَقُ على دراستهم، وإذا لم يـُوَفَّقُوا في ذلك فسيكون مصيرهم العمل في الحقول الفلاحية المتنوعة، فيكون بذلك فردا منتجا يساهم بدوره في تحمل جزء من أعباء الأسرة ولو بقسط مل لمواجهة الحياة.

كان المطلوب من الأطفال في سنه ممن لم يسعدهم الحظ بالدخول إلى المدرسة بأن يبقوا خارجها إلى الأبد. حتى إذا ما كبروا أوجب عليهم القيام بكل عمل في خدمة الأرض أورعي الماشية . الأرض هي المصدر الوحيد لهؤلاء القوم وما تجود به من زراعات بدائية، فهي المصدر الوحيد لعيش وإعالة أسرهم. الكل ينبغي أن يساهم بعمله إلا مَن حُظي بفرصة الدخول إلى الكتَّاب والمدرسة.

إذن، كيف لا يعمل هؤلاء بجد وتفاني ليضمَنوا لأنفسهم البقاءَ في هذه الوضعية التي كانت أقل عبئا من وضعيات أقرانهم في خدمة الأرض!!

يتذكَّر هذه الأيام وكأنَّها كانت بالأمس القريب، ويتذكر معها الكثيرَ من الذكريات، ذكريات الأقران الذين كان يلعب معهم أحيانا عندما تأتي المناسبة؛ فاللَّعب عندهم كان من الكماليات، والوقت الذي يستغرقه يومهم كان قصيرا قِصَرَ ليالي الصيف ونهار الشتاء. كانوا لا يعرفون للعب معنى، وكأنهم خُلقوا لكي لا يلعبوا

مثل الآخرين. ربما كان هناك أطفال آخرون يعرفون معنى ولذة اللعب، المهم أنَّهم لم يكونوا مثلهم في شيء، سواء في هذا الذي يسمُّونه لعبا أو شيئا آخر كانوا يجهلونه. هذا لا يعني أنَّهم لم يتشوَّقوا يوما للعب، فكلُّ الصَّبايا يطمحون للعب مع أقرانهم في نفس سنهم إلاَّ هُم.

مرَّت عليه أيام المرحلة الابتدائية كلّها في سلسلة تتشابه حلقاتها من البيت إلى الكُتَّاب، ومن هذا الأخير إلى المدرسة المجاورة للسكَّة الحديدية.

هكذا كانت حياته مرتَّبَة ترتيبا عجيبا، عندما يتذَكَّر بعض الأحداث يقشعِرّ جسده لا لسبب سوى لكون تلك الأحداث كانت قاسية قسوة المعيشة آنذاك، زادتها صرامة الفقيه "سي أحمد الصنهاجي"- الله يرحمه- ومعاملة المعلمين لهم في المدرسة المُتَّسِمَة بالانضباط والمواظبة لا غير. حتى أيَّام آخر الأسبوع أو العطل كان يقضيها إما في مساعدة أهله أوفي التردُّد على الكتاب فلم يكن يعرف للعطلة معنى.

يتردَّد على كُتاب القرية صباحا ومساء، همُّه الوحيد حفظ القرآن الكريم عن طريق اللوحة الخشبية، يكتب فيها ما يُمْليه عليه الفقيه من سور قرآنية. قَلَمُه مصنوعٌ بدقَّة من القصب، ومِداد "السَّمْق» الذي يكتب به والمستخرج من جذع تلك الشجرة التي لا تنمو إلا في الصحراء. في كل يوم يستظهر ما حفظه، وبعد أن

يتأكَّد الفقيه من ذلك، يأمره بمسح اللوحة بالماء والصلصال، حتى إذا ما جفَّت تحت أشعة الشمس، يُدلِكُها ويَسَطِّرها استعداداً لملئها بالآيات القرآنية من جديد.

وهكذا دواليك، كل يومٍ يمرُّ كسابقه سواء أكان ذلك في الصّيف أم في الشتاء أم الربيع أم الخريف.

لا ينكر اليوم فضلَ الكُتاب ومعه الفقيه "سي أحمد الصنهاجي" الذي علَّمه قواعد اللغة العربية ومكَّنَه من حفظ القرآن الكريم، لقد كان هذا الفعل عَوْنا وسندا كبيرين لينجحَ في دراسته ويَخْطُو بخطوات ثابتة نحو تَعلُّم معارف أخرى عن طريق ما كان مبرمجا من مواد في المدرسة الحكومية.

6-ذِكْرياتٌ لا تُنْسىَ:

كم هي ذكريات تلك الفترة التي ما تزال عالقة بذهنه، يَتذكَّرها قريبة من حياته رغم مرور أكثر من نصف قرن من الزمن. منها الذكريات المؤلمة لقسوة لحظاتها، ومنها المفرحة التي تُعيد للإنسان الذي يَتقدَّم في السن بعض اللحظات من شبابه ولو لفترة قصيرة من الزمن؛ حتى إذا ما فكَّر فيها يجدّ نفسه أحيانا منبهرا كيف وقعت؟ ولماذا وقعت؟ ويطرح على نفسه رّجماً من الأسئلة.. كيف لا وعَلماءُ النفس يقولون إن كل ما يعيشه الإنسان عندما يكبر ما هو إلا صورة متجدِّدة من الماضي ولو بطرق أخرى.

يتذَكَّر يوماً كان يوم جمعة، انتظر هو وزملاؤه الفقيهَ يخرج كعادته لينزل ضيفا عند أحد أهل البلد لحضور مأدبة غذاء بعد كل صلاة جمعة. وبمجرَّد مغادرته الكُتَّاب الذي كان بجانب المصلى، جاء أحد الأقران يناديهم بصوت هافتٍ حتى لا يسمعه الصبيان الصغار. كانوا شُلَّة من الأصدقاء يكبرون الآخرينَ سنّا ويتقدَّمونهم في حفظ سور وأحزاب من القرآن الكريم. كان هذا الذي يناديهم قائدهم ومسؤول عليهم. ، كلَّما غاب الفقيه لسبب من الأسباب يتركَه وراءه لحفظ النظام والاجتهاد في "التكرار»لا غير. وويل لكل مُقَصِّر يبلِّغ به الفقيه بعد عَودته.

إنه كبيرُهم "ولد سي البشير" الذين لَبّوا نداءَه حُبا أوكَرها. عندما تبعوه إلى المصلى تفاجأوا وهو يخرج "دلاّعة " كبيرة كان قد أتى بها من السوق الأسبوعي الذي ينعقد كلَّ يوم خميس. جلسوا القُرْفُصَاء فوق حصير المصلى، وكل واحد منهم يُحَمْلق في "ولد سي البشير" وينتظر أنْ "يَفْتَحْها" ويوزعها قِطعا قطعا ليأخذَ كلُّ واحد منهم نصيبَه . كانوا أربعة أو خمسة، لا يتذكَّر العدد بالضبط، هذا لا يهم.

بعد لحظات قليلة، كان السكّينُ الصغير الذي أخرجه «قائدهم»يُقَسِّمُ "الدلاَّعة" إلى أجزاء متساوية، وبعد أن أخذ كلُّ واحد حقه. ، تفاجأ الجميع بالفقيه وهو يدخل عليهم وهم في تلك

الحالة. فلِسُوءِ حظِّهم عادَ يومَ ذاك بعدَ أن نسيَ شيئا لا يتذكَّره. اكتفى بوعدهم بتدَبُّرِ أمرِهم بمجرَّد الرجوع.

بقيَ الصَّبية ينتظرون ما سيكون مصيرهم بعد تلك الحادثة التي تمثَّلت في أكل "دلاَّعة" فوق حصير مكان الصلاة . بقي كلٌّ واحد منهم يتصوَّر نوعَ العقاب الذي سيسلِّطُه عليهم. الكلُّ يعرف الفقيه وسَوْطِه بعَصي الزيتون على أرجل المُخطئ بعد أن يربطها بالفَلَقة[1].

ها هو الفقيه يعود عند وقت العصر، وبمجرد الانتهاء من الصلاة ومغادرة المصلين، نادى عل واحد منهم وأمره بأن يأتيه بحزمة من عصي الزيتون من الحديقة المجاورة. أخذ كل واحد منهم حقَّه من "الفَلَقة"، غير أن الذي لا ينساه صاحبنا، هو ذلك العقاب الغليظ الذي سَلَّطه على صاحب "الدَلاَّعة" "ولد سي البشر".

كان الفقيه يعرف طباعَ وسلوكَ كل واحد منهم، ولا يدري الصبي كيف عرف الفقيهَ بالذَّات الشخصَ الذي قام بذلك الفعل؟ كلُّ ما يتذكره أن رِجْلَي صاحبهم صارت تقطر دماً ولم يستطع أن يرجع إلى بيت أهله، إلا بعد أن أحضر والده عربة صغيرة "بَرْويطَة"

---

[1]- الفلقة: عبارة عن عصا غليظة خشبية مثقوب طرفاها وفيها حبل توضع فيها الرجلان ويشد عليهما من طرف أثنين ثم يقوم الفقيه بالضرب على أرجل المخطئ بعصاه الطويلة أو بالسوط المصنوع من الجلد.

حمله فيها ليبقى على تلك الحالة ولم يُشْفَ من جراحه إلا بعد خمسةَ عشرَ يوما.

بقيت هذه الحادثة عالقة في مُخَيَّلَته إلى الآن، وبقيت معها ذكريات أخرى كلُّها حول الطرق التي كان يبتدعها الفقيه ليعاقب بها كل من يتجاوز حدودَه المرسومة أو يتجاوز قواعد حفظ النظام في الكُـتَّاب. الكل مُتعارف عليها ويحترمها ولا يتصَوَّر ذهنُ أحدٍ أن يتجاوزها كيفما كان الحال والأحوال.

لم تَزِدْه تلك المعاملات التي تَعوَّدَ عليها وزملاؤه من فقيه المسجد إلاَّ صبرا على المثابرة، تعلَّموا من خلالها كيف يحترمون الوقت ويُثَمِّنُونَه، سواء أكان هذا الوقت خاصا بالمداومة أم بالصلاة أم بالوقت الذي يستظهرون فيه «اللَّوحة»على الفقيه. وويلٌ للذي لا يحترم الوقت المخصَّص لهذه العمليات. إذا لم يتمكَّن أحد من حفظ لوحته مثلا، يؤنبه الفقيه بعباراته التي لا تخلو من السُّخرية والغلظة، وفي ذلك تنقيصٌ لشخصيته أمام صبايا القرية، أو يقومُ بضربه بإحدى عصويه [1]، وجسمهم آنذاك لم يكن يتحمَّل مثل هذا الضرب المبرح بسبب نحافته ورثَّة الثياب التي كانوا يَرتدونها. في الحالة الثالثة التي كان يخشاها الصبية، أن يخبر الفقيه أولياءهم

---

[1]- كان للفقيه عصوان، الأولى قصيرة غليظة يستعملها في «الفلقة»أو عندما نستظهر عليه ما حفظناه، والثانية طويلة رقيقة عندما يغفل أحدنا على الاستمرار بالحفظ بدون انقطاع يضربه بها للتنبيه.

بفعلتهم عندما يلقاهم في السوق أوفي المسجد كل جمعة، فقد يؤدّي ذلك إلى أن يتَّخذ الوالد قرارا بعدم مواصلة ابنه الدراسة، وفي ذلك خسارة له ولمستقبله لا تُعَوِّضها أي خسارة ويبقى غده مجهولا لا يعلم ما ستُخَبِّؤه له الحياة.

هذا جزءٌ يسير من ذكريات حياته في الكُتَّاب، أما في المدرسة التي دخلها متأخرا مقارنة بأقرانه وعمرُه حوالي عشر سنوات، فلا يتذكر منها إلا القليل اليسير. كل ما يتذكره أنَّ تَرَدُّدَه على الكتاب كان مفيدا له ولأقرانه في مُزاولة الدراسة في المرحلة الابتدائية. تعلم هو وأقرانه في سنِّه أو دون ذلك الخطَّ والإملاء وتعابير اللغة العربية وقواعدها. كانوا متفوِّقين فيها بدرجة لا تصدَّق، لا يجدون صعوبة في كتابة النصوص الإنشائية التي يكلِّفهم بها معلِّم اللغة العربية. وكذلك الشَّأن بالنسبة للحساب وقواعده. الكل قادرٌ على حل المسائل الحسابية بسهولة لا تتصوَّر. مازال يتذكّر وهو يستعدُّ لاجتياز الشَّهادة الابتدائية، كيف كان يتبارى مع زملائه في حلِّ المسائل المدوَّنة في كتَيِّب تحت عنوان: «مائة مسألة ومسألة».

أمَّا في اللُّغة الفرنسيَّة، فكان أمرُها يختلف تماما عن اللغة العربية. تعلُّمُها صعبٌ مقارنة مع اللغة العربية، ومع ذلك كانوا يبذلون قُصارى جُهْدهم في تعلُّم حروفها اللاتينية ويتَفنَّنُون في كتابتها بخطّ جميل بواسطة الريشة. حَلَّ القلم الجاف محلَّها

عندما كَبُرَ هو وزملاؤُه وانتقلوا إلى الأطوار التَّعليمية العليا. فهل القلم المصنوع من القصب والريشة ومحبرة المداد المثبَّتة فوق كل طاولة خشبيَّة في الحجرة الدراسية هي سبَبٌ من أسباب نجاحهم بدون تعثُّر في هذه المرحلة من العمر؟ أوأن الأمر وراءه أسباب أخرى لا يعلمونها يومَ كانوا في رعيان الشباب؟ هي أسئلة يطرحها اليوم ولا يجد لها الجواب الكافي المقنع.

ذات صباح في يوم بارد[1] وهم في تلك المدرسة وفي تلك القرية النَّائية، كانوا متجمِّعين في ساحة المدرسة استعدادا لتحية العلم. خَطَب فيهم مدير المدرسة ونبرات صوته تُعَبِّر عن حزن كبير، ونَعىَ للجميع وفاةَ الملك محمد الخامس- الله يرحمه- وانتقاله إلى جوار ربه. كم كان هذا الخبر مؤلماً في يومهم هذا حيثُ انفجر الجميع بُكاءً. كان الجميع يُكِنُّون له الاحترام والتَّبجيل ويعتبرونه أب الأمَّة والمدافع عنها في شؤون الحياة كُلِّها. يتذَكَّر بهذه المناسبة كيف غَرسوا في مُخَيِّلَتهم رؤية صورة الملك في القمر. منذ أن كانوا صغاراً وعندما يشاهدون القمر خاصة في الأيام الصَّحوة في فصل الصيف يقولون لهم: أنظروا إلى القمر، أنظروا إلى صورة السلطان محمد الخامس نصره الله. كانوا فعلا يَرَوْنَ صورة الملك أو هكذا خُيِّلَ لَهم. فهل هذه المُخَيَّلَة الشَّعبية التي تعَلَّموها وهم صغار جاءت

---

[1]- كان ذلك بتاريخ يوم 26 فيفري 1961

بعد نفي السلطان إلى خارج الوطن ظلما وعدوانا[1]. عَلِمَ فيما بعد أنَّ نفيَه جاء نتيجةَ مطالبته باستقلال بلاده، ولم يخضع لإرادة المستعمر الفرنسي. بقيت هذه القصة متداولة بين الجميع ولم يَنسَ أحد منهم مَلِكَه.

تمرُّ الأيام والصبي منهمكٌ في دراسته بين الكُتَّاب والمدرسة. في هذه الأخيرة تمكَّن هو وأقرانُه من الارتقاء من قسم إلى آخر حتى اجتازوا شهادة التعليم الابتدائي بتفوق وامتياز. اجتازوا هذا الامتحان في المدينة الكبيرة التي سوف يتابع فيها دراسته الإعدادية ويتفَتَّحُ العالم من حوله.

في نفس هذا العام، تمكَّن صاحبُنا من خَتم القرآن الكريم. وكم كانت فرحة أبيه "سي محمد الفقير" – رحمة الله عليه- كبيرة بهذا التفوُّق المزدوج. كان ذلك في بداية الستّينيات من القرن الماضي.

إنَّ تَمَكُّنَه من تحقيق هاذين الطُّموحين لعَمَلٌ جَليلٌ، من حقِّه أن يَفتخرَ به ويَزهُو بنفسه سواء بين أقرانه أو إخوانه. ومن حقه على أبيه الاحتفالَ به. سيحمل اسمَ فقيه بعد أن أخرج "السَّلكة " وحفظ اللَّوحة وسيشارك الفقيه –أحيانا- في إمامة الناس في المسجد وإقامة صلاة التراويح في شهر رمضان.

---

[1]- كان ذلك يوم20 أوت 1953.

قبل أن يدعو أبوه الجيران وأهل القرية وعلى رأسهم الفقيه "سي أحمد الصنهاجي" إلى الوليمة التي حضَّرها بمناسبة نجاحه المزدوج: حِفْظُ الستين حزبا وتحصِّله على الشهادة الابتدائية.

أمر الفقيه الصبية بالمرور حاملين **لوحة** مرسومٌ عليها آيات قرآنية محاطة بألوان مختلفة على كل منزل من منازل القرية لجمع ما تَيّسر من المواد الغذائية والنقود القليلة. وتلك عادة واجبة بهذه المناسبة التي لا تكون إلا مرة واحدة بعد أن يحفظ واحد منهم القرآن الكريم. ساروا في دروب ومنازل القرية المملوءة بغبار الصيف يرددون الأنشودة المعروفة التي تقول كلماتها:

بيضَـة بيضَـة لا لا
باش نـْزَوقْ لوحـْتي
لوحـْتي عند الطالَـبْ
والطالَـبْ في الجَـنَّة
والجَـنَّة مَـحْلولة

حَـلـْها مـُولانـا

مـُولانا وأصـْحابـُه

ـ۬في الجـَنة يـَنـْصـَابـُو

اللّه ومـَـا ميـنْ

يـَا رَبْ العـَالـَمينْ.......

كانت الوليمة التي أقامها- والده ـ۬في مستوى الحدث، أحسَّ فيها بنَشوَةِ النجاح، ونسي كلَّ أتعابه منها النهوض باكرا للالتحاق بالمسجد ـ۬في أيام الشتاء الباردة. كانت ملابسه لا تقيه قـُـرَّ هذا الفصل الذي كان الجميع يترَجَّى انتهاءَه بسرعة ليعقُبَهُ فصل الربيع بدفئه وأزهاره التي تملأ الحقول الفلاحية المزروعة قمحا أو شعيرا.

توافد على منزلهم يَوْمَذَاك كلٌّ من الفقيه وأصحابه وجده "سي عمرو" وأخوالُه وخالاتُه وأهلُ أمّه. ولا عم من أعمامه: قيل له أنَّ بعضا منهم ماتوا وهو مازال ـ۬في حضن أمه، والباقون منهم متواجدين بأرض أجداده .

إضافة إلى كل هؤلاء جاء إلى المأدبة كل الجيران والأحباب، ذكورا وإناثا، صغارا وكبارا حتى خـِلـْتَ هذا اليوم، يوم عُرس كبير. كيف لا والمناسبة كبيرة والحَدَث أعظم لمن يُقَدِّر العلم والتعَلُّم؛

ويعرف قيمة حفظ القرآن الكريم، كتاب الله الذي "لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ"[1].

أكَلَ الجميع من الطعام المزين بلحم الشاة التي ذُبحت بالمناسبة. كانت هذه فرصة لا تُعوَّض لكي يأكل الناس اللَّحم الذي لا يتذَّوقونه إلا نادرا فوق موائد غذائهم أو عشائهم.

كان قوت أهل البلد بسيطا بساطةَ تلك الحياة، طعام من كسكس الشعير غالبا ومعه قليل من الحليب. كانوا إذا أكلوا لا يشبعون، وإذا شبعوا لا يأكلون؛ فالشبع مقرونٌ عندهم بمناسبة من المناسبات مثل التي أقامها والدُه بمناسبة نجاحه المزدوج، أو بمناسبة أخرى مثل حضور ضيف عندهم، فهنا يكون رب الأسرة مدفوعا لإكرام ضيفه، حيث تُخْرِجُ الوالدة ما ادخرته من مؤونة بالمناسبة، ويأمر الوالد بذبح ديك أو دجاجة إكراما لضيفه. الكل ينتظر مثل هذه المناسبات بشَغَف كبير حتى يأكلوا "حقهم»من الوليمة.

انتهى تَجَمُّع أهل القرية عند منزلهم، وغادروا المكان وكل منهم مُنَشَّى بما أكلَ، وكم كانت فرحة الفقيه كبيرة بعد أن أكرمه والده ودَسَّ في جيبه نقودا لم يعرف مبلغها. كل ما يتذكَّره أنه دعا له بالتوفيق والنَّجاح في مناسبات أخرى، ودعا لوالده بكثرة الرزق والصحة والعافية، ولم ينس الحاضرين حيث دعا للجميع بدعوات الخير والعافية، ختمها بفاتحة الكتاب التي تلاها معه

---

[1]- الآية 2 من سورة البقرة.

الجميع وبصوت رخيم ارتفع في الأجواء وكأنه صوت رباني ينادي في الأفق الواسع وِسْعَ تلك البقعة من الأرض التي كانوا يعيشون فيها.

كم هي العادات والتقاليد التي كانت سائدة بين سكان تلك القرية، لعلَّ أهمَّها تلك الحَميمية والمودة العميقة التي تَعَوَّدَ عليها الجميع، يشاركون بعضهم بعضا في الأفراح والأقراح: في موسم الحصاد يتعاونون لجني ما رزقهم الله من فضله عن طريق "التويزة" خاصة إذا كان الموسم شحِّيحا. أما إذا كان الموسم مُبَشِّرا بوفرة الإنتاج، فقد يلجأون إلى تنظيم أنفسهم في جماعات تسمى ب"الشوالة"، يحصدون الزُّروعَ بالمناجل ويجمعونه في أماكن خاصة تسمى "الرحبة"، حتى إذا ما انتهى جمْع الغلال، يأتون بالحمير لتدورَ فوق السنابل وتَدْرُسَها وتستخرج حبها من سنابلها بعد ذَرِّها بمداعبة الرياح؛ ثم يُجمَعُ المنتوج قي أكياسٍ، منه ما يُستَغَلُ للمَعاش ومنه ما يوزَّع كعُشور. يُنقَلُ الأول عن طريق أظهر الأحْمِرة ليخزن في "المطامر» وهي عبارة عن حفرة عميقة تقفل بالطين بعد ملئها بالحبوب أو بمواد أخرى. يُستخرج ما يخُزَّن فيما بعد عند الحاجة للأكل أو للزرع عندما يحين وقت البذر في نهاية الخريف وبداية الشتاء.

كان موسم الحصاد بالنسبة لصاحبنا كالعُرس ينتظره بفارغ الصبر كل سنة، فهو من جهة فصل صيف وراحة من عناء المدرسة، ومن جهة أخرى هو فصل الأعراس والأفراح، يغتَنِمُ أيَّامه ليفرح

كبقية الأطفال، ويأكل ما يُحَضَّرُ فيه من أشهى الطعام. ينتظر فصلَ الصيف وكُلهُ لَهَفٌ للتمتع بأيامه الطويلة، ولياليه المُقْمرة المضيئة. حتى إذا انتهى الصيف جاء دور عام جديد في الحياة، يستعد له الجميع بكل جوارحهم فلا يدرون ما تخبؤه لهم الأيام الآتية.

في الصيف، تنتقل الأخبار من هنا وهناك، يسترقها الصبية من الجماعة عندما يلتئمون حول غذاء أو عشاء وليمة يقيمها أحد ما في منزله، أو يسمعونها من المذياع الخشبي الموضوع بجانب فراش الجد كلما فتحه ليسمع الأخبار. لم يكن لهم الحق في أن يقترب أحد من هذا الصندوق العجيب أو يفتحه ليسمع كغيره ما يجري هنا وهناك. صَمتٌ رَهيبٌ مضروبٌ عليهم وهم صغار لا حقَّ لهم في أي شيء من هذه التي يسمونها الدنيا. دنياهم ليست هي الدنيا التي يتمتع بها الآخرون. دنيا خاصة ضُرب عليها الصمت من كل جانب ولا حق لهم أن يعرفوا شيئا لا يعنيهم.

هكذا كانوا يقولون لهم، وهكذا عوَّدوهم أن يكونوا حتى يكبرون، وحينها يدركون ما كان يتداوله الكبار من حديث عن الحرب الدائرة هناك. حرب لا يعرفون عنها شيئا ولماذا هي واقعة؟ ومن هم الذين يخوضونها؟ وما هي الأسباب التي أدت إليها؟

كل ما يتذكره وهو في هذه السن المبكرة من العمر، تلك الحرائق التي كان يراها كل ليلة من ليالي الصيف في الأفق البعيد، نيران ملتهبة فوق الجبال الفاصلة بين البلد الذي آواهم وبين

بلده الذي كان وقتها يخوض حربا تحريرية ليتخلَّصَ من نير الاستعمار. هذا ما عَلِمَه بعد أن كَبُرَ وانتقل إلى الإعدادية. وقتها عرف مصدر تلك الحرائق المشتعلة هناك في الجبال.

ازداد تأكدا وهو في السنة الرابعة ابتدائي، بأن أخاه الأكبر من أبيه «سي عبد القادر». رحمة الله عليه . غادَرهم في يوم دون أن يعرف أبوه وجهتَه، أو عرفها ولم يبح بأسراره. عَلِمَ بعدما كَبُرَ، أن أخاه هذا قد التحق بإخوة له في الجبل بعد عام فقط من اندلاع تلك الأحداث التي لم يعرف سرها. لم يعد أحد من أفراد أسرته يسمع أخباره أو يتابع تنقلاته بين المناطق العديدة على طول الشريط الحدودي.

عاد المجاهد «سي عبد القادر»مرة إلى المنزل مجروحا بعد أن قضى أياما في مستشفى المدينة. كانت أمه «الحُرمية» تضمِّد جراحَه التي لم تلتئم، والصبي يلح بأسئلته على أمه ليعرف ما الذي أصابه، ومن خلال حديث مُقتضب، تمكَّن من أن يعرف أنه جُرِح هناك بعيدا وراء تلك الجبال.

عرف القصة كاملة لهذا الأخ المجاهد بعدما كبر، كيف التحق بالثورة وكيف خاض الكفاح المسلح إلى جانب إخوانه المجاهدين؟ عرف من خلال حديث أبيه يوما، أنه التحق بالجبهة ولم يخبره بذلك خوفا من أن يعترض سبيله. حكى له كيف باع المؤونة التي خزَّنها بمحل اكتراه في القرية من سمن وشعير وقمح . غافَلَه

يوما وأخذ ذلك المفتاح الغليظ وقصد المدينة بعد أن خطط لفعلته بإحكام.

عندما حكى له أبوه هذه القصة عرف أن أباه لم يكن نادما على ذلك، بل لمس في حديثه الفخر والاعتزاز. على الأقل صار ابنه الأكبر مجاهدا مثل بقية أقرانه في سنه. لو أتيحت له هو كذلك الفرصة لفعل أكثر من ذلك، لعل وعسى ينتقم من تلك الدولة الكافرة وما فعلته فيه وفي أبيه وأسرته وقبيلة «عكرمة «كلها.

عرف الصبي بعد زيارة أخيه في يوم من الأيام الأخرى، أنَّه كان مجاهدا "كبيرا"، دَوَّنَ كل أحداث نشاطه العسكري في كراس أخرجه له يوما بعد الاستقلال. كان فعلا مجاهدا، خاض الكثير من المعارك وجُرح عدة مرات، منها تلك التي تذكَّرها عندما كانت أمه تداوي جراحه.

لم تُتَحْ لصاحبنا الفرصة وهو في تلك القرية المعزولة أن يعرف كل شيء عن معاناة أُسَرٍ مُهاجرةٍ أخرى مثلَ أسرته، كانت تعيش في تلك المدينة الكبيرة، أوفي قرى أخرى تشبه قريتهم. غير أن هذا الطَّوَقَ من شُحِّ الأخبار المضروبِ عليهم وهم أطفال انْجَلَى مثل الظَّلام الذي يطرده ضوء الصباح، وبَانَت لهم حقائق الأحداث التي عرفوها بعد أن وفُكَّت معها الكثير من الخبايا والأسرار التي غُيِّبت عنهم بقصد أوبغير قصد.

عَرَفَ بعد أن كَبُرَ أنّ تلك الأسر من أسرته المهاجرة إلى المغرب وغيره من دول الجوار، تَخَرَّج منها العديد من المجاهدين الذين شاركوا في تلك الحرب الضروس التي لم تُبْقِ ولم تَـذَرْ من أرض الأجداد. ونظرا إلى وضعية هذه الأسر، وحنينها الدائم إلى الوطن، الكل كان متعطشا أن يحتضن الثورة بما يملكه من مالٍ وما يَعِزُّ عليه من نَفْسٍ. كانوا كلُّهم قابلين أن يثوروا ضد أوضاعهم – ربما – أكثر من غيرهم من الأسر الجزائرية في البلاد.

كم كانت نفسُه تَشتاقُ لسَماع ولَو قصَّة أو حادثة جرت وقائعها في تلك الفترة الصَّعبة من تاريخ بلاده. كان يعرف أنَّ من وراء تلك النيران المشتعلة في الجبال الشَّرقية أحداثا تقع هناك. وكان متأكِّداً أنها حرائق غير عادية. لو كانت عادية، لماذا تشتعل حتى في فصل الشتاء؟ أَيَمْكِنُ أن تشتَعِلَ حرائق ما في فصل بارد ممطر؟ في فصل الصيف ربما بسبب حرارة الشمس المرتفعة، ولكن في فصل الشتاء،أمرٌ لم يصدقه عقله.

قال في قرارة نفسه: إن من وراء هذه النيران المشتعلة حرب تجري هناك. ، ولكن بدون أن يعرف كل تفاصيلها.

تمر الأيام والشهور تِبَـاعا وتتسارع السنون، وتنطفئ مرة واحدة تلك النيران التي كانت مشتعلة في جبل «عصفور»[1]. عرف أن شيئا ما قد تغير. لا يمكن أن تنطفئ تلك النيران إلا بفعل فاعل.

هولا يعرف للاستقلال معنى، فما بالك أن يدرك عقله أن بلاده قد نالت حريتها وانعَتقَت من نيران الاستعمار. الذنب ليس ذنبه، لم يحدِّثه أحد بمعنى هذه الكلمة، ربما سمع الناس يتكلمون خِـلْسَة عن الاستقلال، ولكن لم يَجْرُؤْ أَحَدٌ بأن يدخل في ثنايا تفاصيله، وكأنَّ الأمر لا يعنيه.

لهذا كله لم يفرح الفتى بالاستقلال ولم يَذُقْ طعمَه، ولم يخرج مثل جميع الناس إلى الشوارع في بلده، ولم يردد بأعلى حنجرته مثلهم: تحيا الجزائر!.

يتذكَّر بعد تلك الأحداث كلِّها، أن عربات القطارات كانت تنقل يوميا وليس كالعادة جحافل من البشر. كان ينظر إليهم وهو يقطع الطريق بين دار جده «سي عمرو» والمدرسة. كانت هذه العربات ممتلئة بالأطفال والنساء والرجال والشيوخ والعجائز..

عرف من خلال الأخبار المتداولة أن هذه الجحافل من البشر هي للأُسَر الجزائرية المهاجرة. ها هي تعود إلى أرض الوطن بعد أن تَخَلَّصَ من نير الاستعمار. لم يبقَ هناك داعٍ أن تَبقَ هذه الأسر

---

[1] - هو جبل ينتمي إلى سلسلة جبال تلمسان الغربية يفصل بين الجزائر والمغرب يطل على وجدة من الناحية الغربية و على مغنية من جنوبها.

المهاجرة تعيش في أحضان بلد لم تَـنبُتْ أصولُها من ترابه، فقد آنَ الأوانُ لها بأن تعودَ إلى وطنها فيَلْتَئِمُ شَمْلُها خاصة بعد أن بزغ الصبح بضيائه وأشرقت شمس جديدة على ربوع هذا الوطن الذي قاسى المحنَ والمآسي ولمدة طويلة من الزمن.

في تلك الأيام الممزوجة بين فرح الاستقلال في مدن وقرى الوطن، كانت محن ومآسي الأسر المهاجرة تزداد يوما بعد يوم. منها من اختارت العودة طَوْعا إلى الوطن، ومنها من بقيت هناك بضع شهور أخرى تُدبِّر أمرها وتقرر العودة بعد أن تهدأ الأحداث وتستقر. ومنها مَـن بقيت مترددة بين البقاء أو العودة إلى الوطن. ربما هذا التردُّد كان منبعه أسباب لا يعرف عنها شيئا.

وتمر بعض الشهور على الاستقلال ويأتي "المخزن" يوما إلى أبيه يأمرونَه بالرحيل، ولحُسن الحظ أو لسوئه، شَفَـعَ له ولأسرته أهل البلد وعلى رأسهم فقيه المسجد "سي أحمد الصنهاجي" وشيخ القبيلة وتوسَّطوا له عند سلطات البلد بأن يتركوه وشأنه وشأن أسرته.

هكذا يشاء القدر بأن يبقى في تلك القرية ولم تُهَجَّرْ أسرتُـه هذه المرة مثل بقية الأسر المتبقية من المهاجرين.

بقى صاحبنا وإخوته وأمه وأبوه سنين من الزمن، ولم ينعموا بدُفْءِ الوطن، ولم يتمتعوا بنَشْوة الحرية كما تمتع بها غيرهم من أبناء جلدتهم. فقد كان ذلك قدرُهم، ولا مُبَدِّل لقدر الله تبديلا.

أنهى الطفل مرحلته الابتدائية في خضم هذه الظروف المتواترة هنا وهناك، وسمح له والده بأن يواصل دراسته في المدينة عند أحد الأقارب من أهل والدته بالمدينة الكبيرة. إنه خاله «سي علي» الذي كان يعمل في السكة الحديدية. غادر القرية منذ مدة وأُتيحَت له الفرصة بأن يستقر هو وأسرته بإحدى أحياء هذه المدينة العريقة. كل أبنائه أوتوا حظا من التعليم ودخلوا المدرسة؛ ليس كباقي أبناء أهل القرية، حيث لا نجد إلا واحدا أو اثنين يدخلونها.

تتوالى الأيام والسنون، ويَخطو الفتى بخطواته في الحياة، وقليلا- وهو واحد منهم- من كان يراهن على المستقبل وما ستأتي به الأيام.

بالرغم من أنَّ الجميع بَشَرٌ تواقون لمعرفة ما يخفيه لهم المستقبل ويحلُمون بأن يكون غدُهم أحسن من حاضرهم، خاصة إذا كانت حياتهم مثل حياة صاحبنا وهو صبي يتنقل بين المدرسة والكتاب، بل بين بيت جده ومسجد ومدرسة القرية. لم تكن حياته من صنع الخيال، بل كانت واقعا عاشه بكل جوارحه مثله مثل الكثير من الصبايا والفتيان أوكل من كان يعاشرهم كل صباح ومساء من قريب أو بعيد.

مُـحِيَتْ اليوم من مخيلته كثيرٌ من ذكريات الأيَّام التي قضاها وهو صبيٌّ لا يتذكَّر منها إلا القليل، عدا تلك الصُّور من الأحداث التي عايشها عندما كان يزاول دراسته بين الكُّتاب والمدرسة.

فقد تَقَطَّعَت هذه الصور من شريط حياته بعد أن أصابها القدم في الزمان والمكان.

02

من القرية إلى المدينة

1- في القطار نحو المدينة الكبيرة:

2- في دار خاله: "سي علي":

3- في حُضن المدينة:

4- إعدادية البكري:

5- في الحمام الشعبي:

استطراد (زيارة خاطفة)

أنهى صاحبُنا دراستَه الابتدائية في مدرسة القاضي عياض. كانت وما تزال تحمل الاسم نفسه، أُضيفَت لها كلمة مجموعة، وصار اسمُها الكامل اليوم هو: مجموعة مدارس القاضي عياض.

كان محظوظاً هذه السَّنة في شهر ماي 2017 أن يزورَ القريةَ وأهلَها مِمَّن لم يَشُدُّوا الرِّحالَ كما فعل الكثير منهم إلى وِجْهة أخرى. التقى بعضُهم بغير ميعاد. حدَّثَهم أحدُهم كان رفيقاً له في الدّراسة، قائلا:

- أَتَتَذَكَّرُ يا أخي تلك الأيام الجميلة، يوم كُنَّا ندرس في الكُتَّاب والمدرسة حتى نِلنا الشهادة الابتدائية في صيف 1964. كنا أيامَها من أسعد الناس.

صار هذا الصديق يُذَكِّرُه بالأسماء والأماكن وهو شاردَ الذهن، حتى خُيِّلَ له أنَّ مُخيلَته أُفرِغَت من كلِّ ما يحكيه له عن أشياء عديدة صار يجهلُها.

أجابه قائلاً:

- اعْذرني يا صاحِ، لقد أخذَ الزمانُ مَأخذَه. هناك أشياء أَتَذَكَّرُها وأخرى أَفلَتْ تماماً من ذاكرتي خاصة أسماء الأشخاص. كُلُّ ما أتَذَكَّرُه اليوم هي الطريق المحاذية للسكة الحديدية التي كنتُ أَسْلُكُها نحو"الجامع»والمدرسة. زُرتُ اليوم المدرسة التي درسنا فيها وتفاجَأتُ لكونها صارت أطلالاً بعد أن غيَّروا مكان تواجدها. ذكَّرتني

الأطلال بالأصحاب والأصدقاء. سمعت الناس يسمونها «القَازيرنة» أي الثكنة.

لم يجرؤ صاحبنا الذي صار اليوم شيخاً أن يسأل هذا الصديق لماذا كانوا ومازالوا يسمُّونها بهذا الاسم؟ .

واستطرد قائلا لصاحبه:

- ثِقْ بي يا أخي بأنِّي تَعَرَّفْتُ رغم أطلال المدرسة على القسم الذي نِلنا فيه الشهادة الابتدائية ورأيتُ بالتقريب المكانَ الذي كنتُ أجلسُ فيه. غيرَ انَّه مع الأسف، لم أتذَكَّرْ أسماءَ الأصدقاء وحتى المعلّمين الذين دَرَّسونا - الله يخلف عليهم ويجازيهم خير جَزاء-

في تلك الزيارة الخاطفة زار المسجدَ ووَجد الفقيهَ الذي خَلَفَ "سي أحمد الصنهاجي". كان يومَها شابا يانعا في مقتبل العمر، حافظاً للقرآن الكريم كُلِّه. كيف لا يحفظه وهو من عائلة الفقيه العالم المفتي لنَوازِل وقضايا أهل القرية والمُشرف والمُتَوَلىَّ على زواجهم وحتى في دفنهم بعد أن يَلقى واحدٌ أو واحدة منهم ربَّه الأعلى سبحانه.

حَدَّثه الفقيه الفاضل ذو اللِّحية البيضاء بأيام «سي أحمد الصنهاجي» وذكرياته- اللَّهم تَغَمَّد روحَه بالرَّحمة الواسعة- وجيلهم وكيف كان جيلاً صَبوراً قانعاً مُجِدّا مُخْلِصاً في حفظ القرآن الكريم ومُواظِباً على دروس المدرسة الوحيدة في القرية.

سأله صاحبُنا عن كثير من الأمور وعن البيت الذي كان كُـتَّابا وعن شجرة التين التي اختَفت عن الوجود؛ فعرف أنَّ المسجدَ أُدْخِلت عليه تَرميمات وتوسعة؛ فانْتُزِعت الشجرة من مكانها، كما انتُزعت اليوم من ذهنه الكثير من الذكريات.

وهو يزور القريةَ هذه السنة وجَدَها مع السوق و"السَّقَّايَة"على حالها رغم مرور أكثر من نصف قرن من الزمن. طبعا لم تعد المياه متدَفِّقَةً من "السقَّاية" بعد أن جُـلِب الماء من بعيد وأدخلَ إلى كثير من المنازل. ولم تعد الطَّاحونة ولا المتاجر القديمة للمواد الغذائية ما عدا بناءاتُها. تَمَنَّى أَن تُحاطَ هذه المعالم بسِياجٍ أو حَائط حتى يعرف جيل اليوم كيف كانت حال الأماكن وحياة الناس الذين سكنوا هذه الأمكنة في ذلك الزمن الغابر.

حَدَّثته زوجة خاله "سي العيد"- الله يرحمه- عن اليوم الذي غادر فيه القرية مُتَّجِهاً نحو المدينة لإتمام دراسته. كان حديثُها لا يختلف عَمَّا كتبه عن ذلك قبل اليوم.

.....

1-في القطار نحو المدينة الكبيرة:

يَتَذَكَّر ذلك اليوم حين كانت أمه "الحُـرْمِيَة"، تَجمع حوائجَه في حقيبةٍ كبيرةٍ اشتراها له أبوه من السوق الأسبوعي الذي يُعقَد كل يوم خميس.

ورغمَ إلحاح أبيه في الإسراع في العملية حتى لا يفوتهم قطار الصباح، بَقيت في رَوَاحٍ ومَجيءٍ مُتَرَدِّدَة بين الحُجرة التي ينام فيها والحجرة الكبيرة التي هي حجرة جده "سي عمر".

مرة تَدُس في الحقيبة أشياءً ثُم تَغلُقها، ومَرَّة أخرى تَفتحها وهي تقول لأبيه بأن يُفَكِّرَ معها في جَمع حوائجه حتى لا تَنسَى منها شيئاً. كانت تَبدُو له وهي في هذه الحالة أنها ستَفقِد شيئا عزيزا عليها. كانت متأكِّدَة أكثر منه بأنَّه ابتداء من هذا اليوم، لن تُتاحَ لها الفرصة لرؤيته وهو يقضي عندها يوما أو يومين في نهاية كل أسبوع قبل أن يعود إلى دار جدِّه .

تتراءى لها المدينة التي سينتقل إليها لإتمام دراسته وكأنَّها شيءٌ غريبٌ لا تُشبه القرية التي يسكنها جدُّه وعائلته، فهي بعيدة بُعدَ السماء عن الأرض. تخاف في قرارة نفسها من أن تُبْعِدَه دنيا المدينة عن ذاته، فتنقطع صلتها به إلى الأبد.

هي تعلم عِلم اليقين بأنها لن تُتاح لها الفرصة مرَّة أخرى بأن تجمع فراشَه كلَّ صباح كان يَبيتُ عندهم في منزلهم المنزوي في أطراف ذلك السهل الشاسع. لن توقظه بعد اليوم من فراشه وتُناولُه

كأسَ الشاي ورغيفَ الخبز وتدعو له بالنجاح كلّما غادرها مع بداية كل أسبوع ليعود إلى القرية.

حَمَلَ أبوه تلك الحقيبة الكبيرة، وغادروا البيتَ وقطراتُ دموعٍ تَنزلُ على خَدَّيْ أُمِّه. تُحاول أن تَتَجَلَّدَ عن فراقه بتكرار تلك الدعوات التي مازالت تَرِنُّ في أذنه إلى اليوم، رغم مرور عشرات السنين: «تَـقْـرَى وتْـقَـرّي يا وْليدي...الله يَفْتَـحْ لك أبواب الجنة».

لأول مرة أَحَسَّ بأنَّه سيفقد دِفْءَ العائلة الذي لا يُعَوِّضُه شيءٌ آخر في الحياة، إنه أَشَدُّ قَسْوةٍ من برد الشتاء أو حر الصيف. ولأول مَرَّة شَعر بأنَّ شيئا ما سَيحدِثُه فراقُ أهله آنذاك والذي ما زال عالقاً بمخيلته إلى اليوم.

لم يطل انتظارُهم كثيراً في المحطَّة، وها هو ذا القطار يُغرِقُ الآذانَ بصفَّارته القوية ليعلن توقُّفَه، وها هم كلُّ مَن كانوا معهما من أهل القرية يَستعدُّون للصُّعود في إحدى عرباته وعُيونُ بَقِيَّة المسافرين الذين أتوا من بعيد تُحَمْلِقُ فيهم وتُدَقق النَّظَرَ في لباسهم.

صَعَدَ الفتى وأبوه وأخذا مكاناً لهما في عربة مكتظَّة عن آخرها. إتَّكَّأَ أبوه بذراعه على حقيبته. بينما بقي هو واقفا أمام النافذة ينتظر اللحظةَ التي يَمرُّ فيها القطار قرب منزل جدِّه. ولسوء حظه حَجب دخان القاطرة عليه الرؤيا ولم يَتمكن من رؤية من كان

بجانب الدار. هل كانت أمُّه واقفةً أمامه تُودِّعه للمرَّة الثانية؟ أم أنَّها غادرت المكان لتلتَحقَ بمنزلهم البعيد عن القرية؟

القطارُ مملوءٌ على آخره بالرجال والنساء والأطفال الذين جاءوا من بعيد. إنَّه القطار الذي يربط بين الشرق والغرب، عَرف فيما بعد أنه قطار الليل، يركبه كل مسافر من مكان انطلاقه بالغرب كل مساء ليصل إلى قريتهم في الصباح الموالي. علم أيضا أنَّ هذا القطار هو السبب الرئيسي الذي جعلَ قريتهم لا تبقى معزولة عن العالم الذي يحيط بهم.

لم تكن المسافة بعيدة بين القرية والمدينة وهي آخر محطة يصلها القطار. فبالرَّغْمِ من سرعته المحدودة، كان عليهم أن ينتظروا أقل من ساعة ويصل الجميع. لهذا لم يكن عسيرا عليه أن يبقى هو وأبوه جالسيْن على أرض عربة القطار أو واقفين ينتظران ساعة الوصول.

لم تكن هذه المرة الأولى التي يركب فيها صاحبنا القطار ويسافر إلى المدينة، بل سبقتها مرات عديدة كانت تُتاح له فيها الفرصة لمرافقة أمه لزيارة خاله "سي علي". غير أن هذه المرة لم تكن كسابقاتها. لقد جاءها اليوم ليمكُثَ فيها أياماً وربما شهوراً أو سنين كاملة، جاءها هذه المرة لمهمة يؤدِّيها، ولا يدري هل سينجح فيها أم

يرجع من حيث أتى "**بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ**"[1] ، فيخيب سَعيُه ويَضيع جُهدُه ويُخَيَّب ظَنَّ أسرته.

سمع كثيرا من قبل عن أحوال العيش في المدينة وأجوائها، وسمع أنها ليست كالتي أَلِفَها وتَعَوَّدَ عليها في القرية.

قِيلَ لهم وهُمْ صغارٌ أنَّ سُبُل الحياة مُيَسَّرةً لكل من يعيش في المدينة، فهناك الكهرباء والشوارع الفسيحة والأسواق والدَّكاكين المملوءة بمختلف السلع. وهناك الناس من كلِّ الفئات والطَّبقات ومن كُلِّ الأجناس. لا تستطيع أن تُمَيِّزَ بين هذا أوذاك من حيث النَّسب. فأنت لا تستطيع أن تعرف أنَّ فلانا تزوج بفلانة من قبيلة أو دُوَّار كذا، أو أن "فَلْتان" هو من أولاد عشيرة كذا.

في المدينة، لا تجد أسماءَ القبائل والعشائر المنسوبة إلى رئيس قبيلة أو قائِدَ قرية تَرَبَّعَ على عرشها لِرَدْحٍ من الزَّمن قبل أن يموت تاركاً اسمَه متداوَلا بين أبنائه وأحفاده وعشيرته. في المدينة لا تجد سوى أسماءَ الأحياء والشَّوارع أو على الأقلِّ أرقام الأزقة والمنازل.

النَّاسُ في المدينة لا تجمعهم أواصرُ القبيلة أو العشيرة، وإنَّما تجمعهم المصالح المادية والاقتصادية أكثر من المصالح الاجتماعية والمعنوية. فهنا لا تسمع كثيرا أن فلانا تزوَّجَ ابنةَ فلان، أو أنَّ أحدا باع واشترى من غيره ماعزا أوشاة، أو كان محصوله من القمح أو الشعير أكثر من غيره من أبناء عشيرته، وإنَّما تسمع أخبارا أخرى لم

---

[1]- مثل يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة.

يَتَعَوَّدْ عليها الفتى وهو صغير، مثل هذا كان دخله اليومي أحسن من سابقه، أو ذاك رَبِحَ من تجارته أرباحا وفَّرَتْ له قضاء كُلَّ حاجياته ومَكَّنَتْهُ من تغطية مصاريف الكراء وشراء قارورة الغاز وكسوة الأبناء ودفع مصاريف تمدرسهم، فهو بذلك يومَها أسعدَ الناس وأوفرهم حظا. والكارثة تُصيب كُلَّ مَن لا دَخْلَ له، تجده يُفَكِّر في مصاريف يومه قبل غده.

كُلُّ شيءٍ في المدينة خاضعٌ للعرض والطلب، والكلُّ يُباع ويُشتَرى، فلا تستطيع قضاءَ حاجتك إلا إذا كان جيبُك مملوءاً بالنقود، فأنت لا تستطيع غَضَّ النظر عن أشياء هي في القرية كماليات وعند أهل المدن من الضَّروريات.

عالمُ المدينة، عالَم مملوءٌ بالأسرار والألغاز، أبواب منازلها موصدة لا تسمع ما بداخلها من أحاديث أو آهات، بينما في القرية، ليس فيها مَن يَكتُم سرَّه عن الناس أو يَدُسُّه وراء الأبواب غير المغلقة، الكلُّ يعرف عن غيره أَدَقَّ التَّفاصيل عن حياته ونوع عمله بل حتى همومه وأفراحه.

تجد الناس في المدينة كالنَّمل، حركتهم دائبة ليلا ونهارا لا يعرفون سُكونا إلا بعد أن تتعبهم مشاغلهم اليومية، بينما حركة أهالي القرية ساكنة هادئة سُكُونَ يومياتهم العادية، لا يطبعها تَهافتٌ ولا جَرْيٌ كَجَرْيٍ وتهافت سكان المدينة على قوتهم اليومي.

انتبه من غفلته وهو يفكِّر في تلك المقارنة بين حياة المدينة وحياة القرية، ووجد نفسَه غارقة في التفكير والتساؤل عن ما يُخَبِّئُه له المستقبل. أَيستطيعُ التَّكيُّفَ مع عادات أهل المدينة وطبائعهم؟ هل سيتَمَكَّنُ من أن يكونَ مثل أبنائهم في الحديث والمشي واللباس؟ أو سيبقى طوال تواجُده فيها ذلك الشاب المُنحَدر من الريف لا تفارقه طِباع وعادات أهل القرية إلى الأبد؟

كان غبار الأرض يتطاير في كل ناحية كلما مرَّت عربات القطار بمحاذاة الطرق غير المُعبَّدة التي توصلُ إلى منازل سكان القرى المتناثرة هنا وهناك. أصبحت أفكار عقلِه تتطاير مثل ذلك الغبار موزعة بين ماضٍ عاشه بقساوته وحاضرٍ يجهل مستقبلَه. استغفر اللهَ وتَعَوَّذَ من الشيطان الرجيم، وحَمِدَ الله الذي أوصله إلى إنهاء دراسته الابتدائية، وها هو مقبلٌ اليومَ على خوض معركة جديدة في مساره الدراسي، ومشوار حياته كلها. قال لنفسه ليُهَدِّئَها من الوَساوس التي انْتَابَتْها في تلك الغفلة: «اللهم اجعلها لي خيرا».

أما الصَّوت الخَفي فيقول:

- تَجَلَّدْ أيها الفتى وواجِهْ الواقعَ كما هو دُونَ خوفٍ أو تخاذُلٍ أمام أي موقِفٍ أو ظرفٍ ينتظرك. لقد عَرَفْتَ أنواعاً من متاعب الحياة؛ فكيف اليومَ نفسُكَ مفزوعة خائفة من مستقبل قد يكون أحسن من ماض عِشتَه بكل ما فيه من تضحيات؟ هي نقطة تَحوُّلٍ

بَدأتْ في حياتِك... عليكَ تَحَمُّلَها والذَّودَ عنها للوصول إلى بَـرِّ الأمان.

مرة أخرى استيقظ من غفلَته وصَفَّارةُ القطار تُعلن الاقترابَ من محطة الوصول وكأنها تقول لساكنة أحياء المدينة: إفسحوا الطريق لقطار الليل؛ ها هو يصل أخيرا إلى محطته النهائية، وعليه أن يُذَكِّر المسافرين الذين مَلأوا عرباته مفتخراً بأنَّه قطع بهم المسافات الطويلة وأوصلهم إلى وجهتم، أوكأن هذا القطار يقول لهم: إجمعوا أمتعتَكم واستعدُّوا للنزول، فقد تعِبْتُ من طول المسافة.

تَتَسَلَّلُ عربات القطار بين قُضبان السكة الحديدية آخذةً وِجهتَها نحو المكان المخصَّص لها للتوقّف. ينزل المسافرون في عُجالةٍ ويتوجَّهون إلى باب المحطة المفتوح على مصراعيه. يحمل أبوه الحقيبةَ على ظهره ويَهُمُّ للنزول كغيره من المتزاحمين على سُلَّمِ العربة. يتوجَّهُ مسرعاً نحو باب الخروج من المحطة والفتى يتبعه بخطوات متثاقلة. لا يدري لماذا خانته رجلاه هذه المرة وهو

الذي تعوَّد منذ صغره أن يقطع المسافات الطويلة مَشياً على الأقدام وبدون كَلاَلَة.

عندما خرجَا من المحطة المتواجدة في الجهة الغربية من وسط المدينة، كانت قوافل من البشر تنزل تِـباعاً من عربات القطار. مُحرِّكُ القاطرة لم يتوقَّف من الزَّفيـر، صوتُه يَهزُّ الأرضَ هزّا، ويَصمُّ الآذان صمَما.

وأنت تقترب من باب الخروج، يتزاحم الناس وكأنَّهم مستَعجلين في أمرهم، أوكأنَّ شيطاناً مارداً يدفعهم دفعاً، الكل يحاول أن يسبق الآخر. هل هي أشياء خفية تجذبهم وتدفعهم إلى الأمام. لقد مَلُّوا الجلوسَ في القطار ولساعات طوال الليل، خاصة بالنسبة للذين جاءوا من أقصى غرب البلاد.

عند الوصول إلى باب الخروج، تَتَثاقَل الأرجل وكأنَّ حديداً مغناطيسياً شَدَّها وثبِّتَ أقدامَ المسافرين في الأرض. دقائق وأُفرِغت المحطة من هذا الجمع الكبير الذي جاء إلى المدينة من جهات مختلفة.[1]

[1]- و هو ينزل هذه المحطة في 02 ماي 2017، لم يجد تغييرا كبيرا طرأ عليها، ما عدا الترميمات العصرية الحديثة. مازالت محطة القطار في مكانها، ربما سيتغير مكانها في القريب بعد الانتهاء من المحطة الجديدة الضخمة التي رأى مبانيها الفخمة من بعيد.

وجد نفسَه وأباه خارج محطة القطار. الكل يبحث عن وسيلة نقل توصله إلى وجهته نحو أحد أحياء المدينة المتناثرة هنا وهناك، أو إلى وسط المدينة أين السوق والدكاكين المصطفّة على طول الشوارع. لم يركبا "الطوبيس" الأحمرَ ليوصلهما إلى دار خاله المتواجدة في أقصى شمال المدينة.

خالُه "سي علي" يسكن حي "فلاج كولوش". وصلاه مشياً على الأقدام. حمل أبوه الحقيبة التي كانت تَحوي أمتعته وبعض المواد الغذائية التي جمعتها أمه في الصباح. لم تنس أن تُرسلَ لأخيها الأكبر منها سِناًّ ذلك السَّمْنَ الذي يحبه. هي تُتْقِن صناعة هذا السَّمن من حليب النعاج (الغنم) بعد أن تمخضَهُ . تضيف له بعض الأعشاب البرية و"التْشيشَة" التي تعرفها هي وَحدَها، حتى إذا ما استوى لها تضعه في جلد ماعز صنعته خصيصا لهذا الغرض. إنها "العـُكَا " [1] التي كانت أيضا ماهرة في صناعتها. لا تضع السَّمنَ في أواني أخرى تُفسد رائحته ولذَّته المُميَّزة. لهذا كان خالُه مُعجَباً بهذا السَّمن ويوصيها بأن تأتيهِ بنصيبٍ منه يتناوله مع فطور الصباح .

[1] – عبارة عن جلد ماعز أو شاة يجفف و يدبغ و يصنع خصيصا لجمع السمن فيه.

أبوه «**سي محمد الفقير**»لا يُشبهُهُ رجلٌ في الدنيا كلها، رَجُلٌ أُوتِيَ من الصِّحة والبُنية الجِسمية لم يُؤْتَ بها رَجُلٌ مثله. بالرغم من ثِقْلِ الحقيبة، حملها على كتفه بعد أن وضع "سِلْهامه"وراء ظهره وترك العنان لرجليه تسرعان الخطوة تلو الأخرى. التَفتَ وراءه فوجده متثاقل المشيِ لم يعهدها فيه من قبل. همس إليه في أذنه بأن يسرع الخطى لأنه عازمٌ على الرجوع هذا المساء.

2-في دار خاله : «سي علي":

وصلا الدَّار بعد مُدة من الزَّمن لم تكن لا بالقصيرة ولا بالطويلة. خرجت زوجةُ خاله تستقبلهما بحفاوة بالغة أمام عَتَبَةِ الدَّار مُرَحِّبةً بمجيئهما. هي تكِنُّ مَحبَّةً خاصة لأبيه وتجد فيه ذلك الرجل الكريم الذي لا يبخل عليها بدَراهمَ تدسُّها في صدرها كلَّما هَمَّ بالانصراف بعد زيارته لهم، أو عندما تُتاح لهم فرصة زيارة القرية.

دخل الزائران فوجدَا أمامهما الجَدَّة "دادَّة" وهي تفترش "هَيْدُورَةً» ناصعةَ البياض في الفناء. سَلَّم أبوه على رأسها وتَبِعه الولد في ذلك. أبوه يكِنُّ لها كل الاحترام والتقدير لِما لها من دورٍ في العائلة: تُراقب أفعالَ الآخرين، بل حتى أقوالَهم، تُصحِّحُها بالنُّصح والإرشاد. لا يتمُّ فعلُ شيء في العائلة الصغيرة والكبيرة بدون

مشورتها. كانت هنا تزور ابنها الكبير وترتاح من عناء القرية وهمومها رَدْحاً من الأيام.

جلسا في فناء المنزل وأَتى كل مَن كان في الدار يسُلِّم عليهما.

- إنه يوم سعيد أن نراكما بيننا اليوم.

هكذا قالت زوجة خاله التي ستحُلُّ مَحَلَّ أمه في العناية به وتسهر على راحته حتى يكمل دراسته عندها.

قالت لأبيه وهي فَرحةٌ باستقبالهما:

- خيراً ما فعلتَ اليوم بعد أن قرَّرتَ أن يتمَّ ابننا "الميلود" دراستَه عندنا. سيكون مُعزَّزا مُكَرَّما بين إخوانه وأخواته ولن ينقصَه شيءٌ في دارنا بحول الله. المهم، عليه أن يكون رجلاً وينظر إلى مستقبله ويصبر على تحمل مشاقّ الدراسة.

ضحك بينه وبين نفسه على ما قالته زوجة خاله عن الصبر، وهو الذي عانى الكثيرَ قبل أن يصل إلى هذه المرحلة. تذكَّرَ يومَ كان ينهض قبل صلاة الفجر قاصداً الكُتاب والظلامُ الدَّامس مُخَيِّمٌ على الطريق التي توصِلُه إلى المسجد والمدرسة. كم كان يخاف من هذه الطريق ومِن سُكون الليل فيها عدا حَفيفَ فروعِ الأشجار التي تَهُزُّها الريح أحياناً وأصوات الصَّراصير البَرية تُؤنِسه في مشيته. عندما كان يشعر أنه متأخرٌ عن الموعد، يُطلق العنانَ لرجليه غيرَ مُكتَرِثٍ بالأحجار التي تعترضه. المهم أن يجدَهُ الفقيهُ قَبلَه ويستعدُّ بكل جوارحِه حتى "يحفظ عليه لوحتَه" بمجرد أن تنتهي صلاة الصبح.

يومَها، لم تكن ساعة منبهة توقضه من النوم، ولا كهرباء يرتدي على ضوئه ملابسه أو يجمع دفاتره ليضعها في القمطر المصنوع من الكتان.

هنا في المدينة كلُّ شيء متوفّرٌ مقارنة مع ما كان لديه في القرية. هكذا خُيِّل له وهو يُحملِقُ في امرأة خاله وهي تسأل عن أحوال العائلة وأهل القرية. كل واحد باسمه، لا تترك واحدا منهم فتسأل عنه.

كان حنينُ القرية يُراودها في حديثها وهي التي غادرتها بعد أن تزوَّجت من خاله الذي وُظِّفَ في محطة القطار بالمدينة: ذكريات القرية وأهلها مازالت عالقةً في ذهنها.

كيف لا وَعادة كل مَن نشأ وترعرع في الريف أنه لا ينسى أبداً ما مَرَّ به في أيامه و هو في قرية بين أهله، عكس أهل المدينة الذين يعيشون ليومهم فقط، وبمجرّد أن ينتهي يبدأون في يوم جديد.

يدخل خالُه «سي علي» فُجأةً عليهم ويضع دراجَته الهوائية بجانب الباب ويبادل أباه التَّحية والتِّرحاب. يأخذه خالُه بين أحضانه عندما نهض ليُسلِّم عليه. لقد كان الفرح بادياً على مُحياه. قَبَّلَ وَجنتَيْهِ وحَمِدَ اللهَ أنَّ ابنَ أخته كَبُرَ وجاءَهُ اليومَ يَتِمُّ مِشْوارَ دراسته في داره.

كل الناس في ذلك الوقت يفتخرون بالذي ينجح في الدراسة ويتفوَّق فيها. وها هو ابن أخته يتمكَّن من الحصول على الابتدائية ويحفظ القرآن. فكيف لا يفرح به وهو من دمه ولحمه!!.

شربوا الشاي ومعه الخبز المُشتَرَى من «الحانوتي»الذي لا يبعد عن الدار إلا بعضَ أمتار. تذكَّر حينها الخبزَ المصنوعَ من الشَّعير وقليلا من القمح المكونين الأساسيين لقوت يومهم. خبزُهم ليس كالخبز الذي عرفه في القرية. كانوا يسمُّونه "خبز الفرنسيس" أو خبز "البولانجي". تذكَّرَ أيضا يوم كانوا صغاراً ينتظرون قطارَ العساكر الفرنسية وهي تَمُرُّ قربَ قريتهم، يُلَوِّحُونَ لهم بأيديهم فيَرمُونَ لهم من نوافذ عربات القطار" خُبز الفرنسيس" وأحيانا "الشوكلاطة". كم كانت فرحتهم كبيرة وهم يلتقطون ما يُرمى لهم من مأكولات يلتهمونها التهاماً لملء بطونهم الجائعة.

غادر أبوه منزل خاله بمجرد أن انتهى الجميع من تناول طعام الغذاء. وهو يَهُم بالخروج من الدار، لم يَنسَ أن يوصيَ خالَه به خيراً ولم ينسَ أيضا أن يعطيه نصيباً من المال قائلا له:

- خُذ هذا النصيب... أعرف أنَّه قليل، فحياة المدينة تتطلب الكثير... اشْتَرِ له ما يلزمه من أدواتٍ مدرسيةٍ، وسوف لا أطول عنكم الغيابَ لأزورَكم مرة أخرى.

عرف الفتى من نَبراتِ صوتِ أبيه، أنَّه يترك أمانة عند خاله. عانَقَ أباه والدُّموع تكاد تنهمر من عينيه. لم يعرف من قبل ذلك

الإحساس الغريب الذي أنتابَه هذه المرة وهو يقبلُ أباهُ على جبينه طالبا منه أن يدعو له بالتوفيق.

كم هي اللحظات التي لا نعرف ما يجول في أنفسنا ولا نُدرِك كُنْهَ ذلك إلا بعد أن تمر عليها الأيام بل الشُّهور والسنون العديدة!. وكم هي الأحاسيس التي لا نشعر بها في حينها إلا بعد أن نحاول لحظتها معرفةَ الأحداث التي صاحبَتْها!.

يَعتبر الفتى أباه كُلَّ شيء في حياته، كان يرافقه كلما ذهب إلى السوق. يحكي له الكثيرَ من الوقائع والذكريات التي مرت في حياته، يتذكر منها كل صغيرة وكبيرة. كان أبوه يختمها دائما ببعض النصائح والأمثال التي ما زال يتذكرها إلى اليوم حتى صارت جزءاً لا يتجزأ من مبادئ حياته.

يتذكَّر منها مثلاً حين كان يقول له:

- يا وَلْدِي، «شُوفْ وْراءَ الجْبَلْ وَاشْ كايْنْ، أما دُونَه تشُوفُو": أي أنظر إلى ما هو موجود وراء الجبل، أما دونَه فأنتَ قادرٌ على رؤيته وإدراكه.

لا يغادره هذا القول ذهنَه أينما حَلَّ. هذا المثل بعبِّرُ في رأيه عَمّا ينتظر الإنسان من عواقب ونوازل، واللَّبيب هو مَن يُقَدِّرُ الأمور أحسن قدرها، لا ينظر إليها نظرة المستخِفِّ، بل ينظر إلى لُبِّها ومضمونِها ومحمولها. نحن لا ندرك - دائما- ما تخبؤه لنا الأيام من أحداث أو وقائع، خاصة إذا تغافلنا ولم نعد نرى ذلك بعين بصيرة، فلا

شَكَّ أنَّها ستُعَرِّض حياتنا إلى الكثيرِ من المتاعب والمآسي وحينها لا نستطيعُ تجنُّبَ عواقبها.

يتذكَّر كذلك قول أبيه: "الرْجَالْ تَتْلاَقىَ، والجْبَالْ ما تَتْلاقَاشْ". وفي ذلك معنى كبير يُعَبِّر عن علاقات الأفراد والجماعات فيما بينهم. فأنتَ إذا صاحَبتَ شخصاً أو أفْضَيْتَ له سرّا وأخلصْتَ له نِيـَّة، فلا شكَّ أنَّ هذا الشخص سيتذكَّرُكَ يوماً إذا فارقتَه؛ يتذكَّرُكَ بفِعلَتِكَ ومُعاملاتِك، فإذا كانت طيبِّة، يَحِنُّ إلى لُقْياكَ ورؤيتك، أما إذا أسأتَ معاملتَهُ، فهو يتجنَّبُكَ ولا يتمنَّى أن يراك مرة أخرى.

ينطبق هذا على أقوال أخرى كان يردِّدُها له أبوه دوما مثل:

- «إذا دَرْتْها زينَة، تَلْقاها زينة» أو قوله: "ما تَقْطَعْ الوادْ حتى تْبان حْجَارُو، وما تَمْشي في اللِيل حتى يَطْلَعْ نْهارو ... ما تْصاحَبْ صْديقْ حتى تَعْرَفْ خْبارُو..."

صارت هذه الأقوال أو الأمثال و خاصة منها أقوال سيدي عبد الرحمان المجدوب كالشمعة تضيء طريقَه. لا يُـقْدِمُ على فعلِ شيءٍ حتى يفكّرَ في عواقبه. .يتجَرَّأُ على تجاوُز أوضاعِه فتكبُرُ أحلامُه ويزداد طموحُه. يسعى بكل قِواه أن يكون راضياً على ما يفعله، يحاسب نفسَه كلما آوَى إلى الفراش: يتذكَّر كلَّ ما مَرَّ في يومه، فإذا كان صالحاً، حَمِدَ الله عليه، وإن كان غير ذلك أنَّبَ نفسَه وعَاهَدَها حتى لا ترجع إليه.

هكذا رَسَمَ لحياته طريقاً يَسيرُ فيها، مُهتدياً بما تعلَّمه في الكُتَّاب والمدرسة، ومن الحياة، ومن أبيه ومن جميع أقوال الناس، وأفعالهم ونوازلهم ومن كلِّ أَمْرٍ استفاد منه من قريب أو بعيد. حَصَّنَ نفسَه بما حَفِظ من القرآن الكريم، وسَعى إلى تطبيق أوامِره ونواهيه مُتجاوزا كُلَّ ما يغضب الله ولا يرضيه.

3- في حُضن المدينة:

مَرَّت ساعات ذلك اليوم متعاقبةً تَعاقُبَ تلك اللحظات المتسَارِعة. في الصَّباح، كان هناك في تلك القرية النائية السَّاكنة سُكونَ عَيْشِ أهلِها، وفي المساء وَجَدَ نفسَه في المدينة تائهاً بين أفكاره وذكرياته. اختلطت عليه كثيرٌ من الأمور، حتى كاد لا يصدق بأنه هنا وسط بيئةٍ جديدةٍ وأُناسٍ جُدُدٍ لم يألَفْهُم بعدُ في حياته.

يحمد الله أنَّ ابن خاله «عمار» من أفرانه وفي سنّه بالضبط، اقترح عَليه في المساء أن يذهبَا معاً إلى وَسَطِ المدينة، يتجوَّلان في شوارعها ويُشاهدان أسواقَها ويَتَعَرَّف هو على ناسِها.

اعتبرها ابنُ خاله نُزهةً عاديةً يُرَوِّحُ بها على نفسه، بينما اعتبرها هو فرصةً ثمينةً يَكتشف من خلالها أسرارَ المدينة وشوارعها وأحيائها. فعلاً، هي فرصة ثمينة يُخرج نفسَه من خلالها من دوّامة الأفكار والذّكريات المُتلاطمة عليه كأمواج بحر تريد إغراقَه.

نزلا في البداية عند أوَّل ذلك الشارع الطويل الذي يَفصل وَسَطَ المدينة إلى جزأين، جُزءٌ أولٌ ذي بنايات أوروبية ومحلاَّت

ومقاهي عصرية، وجزء ثاني تُعَبِّرُ بناءاته على ماضي المدينة وعَراقتها.

قال له ابن خاله وهو يحدثه عن هذين الجزأين المتناقضين:

- إذا أردتَ أن تَتَجَوَّلَ في الجزء الأول الذي نحن فيه، فما عَليكَ إلا السيرَ في هذا الاتجاه؛ فستجدُ البريدَ المركزي ومقرَّات البنوك والشركات والمؤسسات الحكومية، ومقرّ البلدية بساعاتها الحائطية؛ أما إذا واصلتَ السَّيرَ ستصلُ إلى مقَرِّ العمالة[1] ومنه إلى محطة القطار التي نزلتم بها هذا الصباح، ثم الكنيسة المسيحية ثم "باب الغربي»الذي يمكنك منه دخول المدينة العتيقة التي يتوسَّطها الجامع الكبير والمُحاطة بصورٍ قديم ما زالت آثاره قائمةً إلى اليوم رغم مرور مئات السنين.

أما إذا أردتَ الذهاب إلى الأسواق الشعبية و"الجُوطية" [2] فاسْلُكْ ذلك الشارع الطويل الذي نسميه شارع مراكش .

كان يشرح له كل شيء وهو ساكتٌ ينظر إلى الناس من حوله، يُحَمْلِقُ فيهم مُعتقِداً أنَّهم هم الذين ينظرون إليه بعد أن تعرَّفوا عليه من خلال ملامحه ومشيته وملابسه وأنه ابن القرية

---

[1]- الولاية.

[2]- " الجوطية " مكان مشهور في المدينة وهو عبارة عن سوق بلدي تقليدي تعرض فيه مختلف السلع وبمحاذاته ساحة كبيرة تتوقف فيها الحافلات ويتجمع الناس حول حلقات المداحين وشعراء الملحون.

والبادية. كانوا يسمُّون كلَّ ساكنٍ في الريف بـ"العْرُوبي" وهي كلمة يَتَقَزَّزُ منها كلّ مَن سكن المدينة ويعتقد أنه صار من أهلها .

لم يستوعِبْ صاحبُنا كُلّ الأمكِنة التي حَدَّتَهُ عنها ابن خاله «عمار»: البريد المركزي، البلدية، العمالة، الكنيسة المسحية، باب الغربي، المسجد الكبير، الجوطية... ووو...كلها أماكن يعرفها "عمار»كجَيْبِه. أمّا هو، فلا يسمع عنها إلا قليلاً، منها مَن تعرَّف عليها من قبل ومنها من لم يسمع بها أبدا. قال في قرارة نفسه:

- هو ابن المدينة، أما أنا، فلا أعْدو أن أكونَ ابنَ باديةٍ في نظره. سيكتشفُ "عمار": أني سأتَفَوَّقُ عليه – بإذن الله- حتى في الدراسة. أنا لا أتجاوزه في العمر إلا بسنة واحدة. هو حقا يسبقني في عدد السنين التي قضاها في المدرسة. لكوني لم أوت حظاً وأدخل المدرسة مُبكِّرا مثله.

لما رآه ابن خاله على تلك الحال، اقترح عليه الجلوسَ على أحد المقاعد حول بُحَيرة صغيرة مملوءة بالماء وقال له:

- هذا هو" البْحَر" وهو مكان مشهور، ولا أحد يزور المدينة دون أن يجلس بجانبه،

هيا اجلس على حافته، وانظر إلى جمال المكان وَوُرودِه وأشجاره المظلِّلة للمكان.

اغتنم «عمار»: فرصةَ جلوسهما وراح يحدِّثه عن المكان وما حوله من بناءات ومقرات.

قال له:

- في غَربه، مَقَرُّ المحكمة ببنايتها العصرية، وفي شرقه الشارع الرئيسي للمدينة، شارع محمد الخامس، وبالقرب من هذا المكان مقر سينما نسي اسمها.

فعلا، وَجَدَ المكانَ رائعاً من جميع النواحي. موقعُه مُمَيَّزٌ تَتَوَسَّطُه نافورة ماء "سقاية". يجلس الناس مع أبنائهم على جنباتها ويأخذون صورا تذكارية. اعتقد صاحبنا آنذاك أن هذه البُحيرة هي فعلا "بَحر"، ولكن عندما كَبُرَ عرف ذلك المكان الذي أخذ فيه أول صورة فوتوغرافية في حياته. تأكَّد بأنَّه ليس بحرا حقيقيا كما ادعى الناس ومعهم ابن خاله. وإنّما تَعَوَّد أهل المدينة على اعتباره كذلك. البحر الحقيقي يبعد

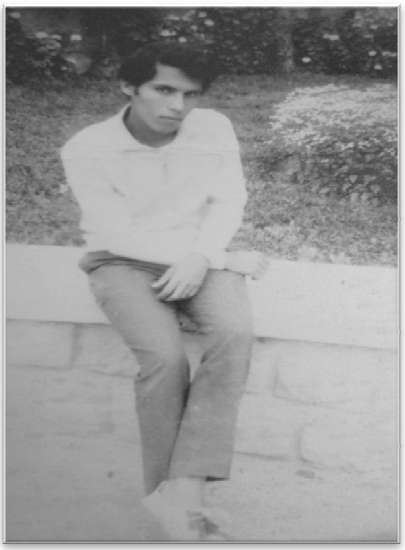

عن المدينة بـ60 كلم، ولا يذهب إليه إلا المحظوظون. يتمتعون في الصيف بمياهه المالحة المنعشة ويفترشون رماله الذهبية. أما الآخرون مثله فهم يعتبرون بحيرة صغيرة اصطناعية أو حوضَ ماء بحراً؟

اتَّجها بعد لحظات جلساها حول ما يُسمونه "بحراً» نحو ذلك الشارع الطويل المُحاط بمختلف الدَّكاكين والمقاهي. سارا فيه، وبدأت حركات الناس تَكْثُر وتَكْثُر. حتى خُيِّلَ إليه أنه سَيَتُوهُ وَسطَ هذه الجُموع المتدفِّقة من كُلِّ حَدْبٍ وصَوْب.

ها هو الجزءُ الآخَرُ من المدينة تظهر ملامحُه المُميزة: بناءات تقليدية شُيِّدَت حول أزقَّة ضيِّقة ودُروب مُلتَوية. دَكاكينٌ متنوِّعة ومنازل ذات أبوابٍ خَشبية، مقاهي الشاي والقهوة مُتراصَّة في أماكِن عديدة. مُكبِّرات أصواتٍ تَبُثُّ الأغاني البدوية والعصرية لبيع الأُستطوانات المستديرة. الناس في ذهابٍ وإيابٍ. البعض يشتري والآخر يبيع أويَتفرَّجُ وصاحبُنا في حَيْرة من أمْره. ملامحُ النَّاس مختلفة اختلافَ أوضاعهم الاجتماعية .

يَقصد كلُّ الناس وسَط المدينة. يأتونَها من أحيائها المنتشرة على مساحة واسعة من أراضيها المنبسطة: من «حي كولوش» الذي يسكنه خالُه، و"فيلاج الطوبة البَرَّاني" و "الدَّاخْلاني". لهذا الأخير إسمان: الأول يسكنه مَن أتوا من نواحي المدينة، لا يختلف عن «فيلاج كولوش» الا بالمقبرة التي توجد بجانبه، وبالطريق المؤدي المار به

نحو المطار ثم إلى "السعيدية"، والثاني بين هذا الأخير ووسط المدينة وهو حي راقي.

أما في غرب المدينة فيوجد «وادي الناشف». نسبة إلى الوادي الذي يُحيط بالمدينة من غربها وشمالها. وفي شرق المدينة تجد "درب مْبَـاصُو" أين كانت تسكن خالته من قبل أن تستقرَّ في «فيلاج الطوبة الدَّاخْـلانيّ.

من درب "درب مْبَـاصُو" تصل إلى "حي لازاري"، وهو حي بعيد نسبياً عن وسط المدينة. في شرقه الولي الصالح «سيدي يحيى»[1] حارس المدينة والمدافع عنها. وفي أعلاه جبل "عصفور" الذي كان يشاهده من قبل والنيران مشتعلةً فيه كل ليلة.

بقي أن يذْكُرَ لكم الحي المتواجد جنوب المدينة وهو حي«المْحَـلَّـة": لا يعرف لماذا سموه بهذا الاسم، ربما لوجود حضيرة به آنذاك لتربية الخيول والعناية بها. ولا يدري أيضا لماذا سُميت بعض أحياء المدينة بهذه الأسماء الغريبة "كولوش... مْباصو... لازاري..الْمْحَلَّة"...الخ. لا شك أن هذه الأحياء كلها تغيرت أسماؤها اليوم بعد أن توَسّعت المدينة، فهل مازالت ساكنتها تتذكَّر هذه الأسماء القديمة؟

---

[1]- هو سيدي يحيى بنْيونس الموجودة قبته شرق المدينة بستة كيلومترات تتوافد عليه النساء لاعتقادهن بأنه يمنح الأطفال الذكور ويزوج العوانس، ويبرئ جذع شجرته العجوز المتهالكة أمراض المفاصل.

يواصل الفتى وابن خاله "سي عمار" جولتهما وسط الزحام، فتتعالى أصواتُ التجَّار وَسَطَ ضَجيجٍ لم يَعْهَدْهُ من قبل في القرية. كان كل شيء هناك ساكناً هادئاً وكأنَّه لا يتحرَّك ...أمَّا وهو يسير وسط هذه الجُموع من الناس، فقد بَدَوْا له كالنمل اختلفت اتجاهاتُهم ووِجهَتُهم كما اختلفت هيئاتُهم وملابسُهم وحتى من الأشياء التي اشترَوْها من السوق أو من الدَّكاكين المُصْطَفَّة على طول «شارع مراكش « والأزقة المجاورة له. أصحابُ المحلاَّت يُنادون على الزبائن ويردِّدون باللَّهجة المغربية المُمَيَّزَة: "ها القَشْ يا مَسْكين....فَرْحُوا الدِرَارِي....قَرْبُوا ..قَرْبُوا ...كُلْشِ بورَخْسون"!

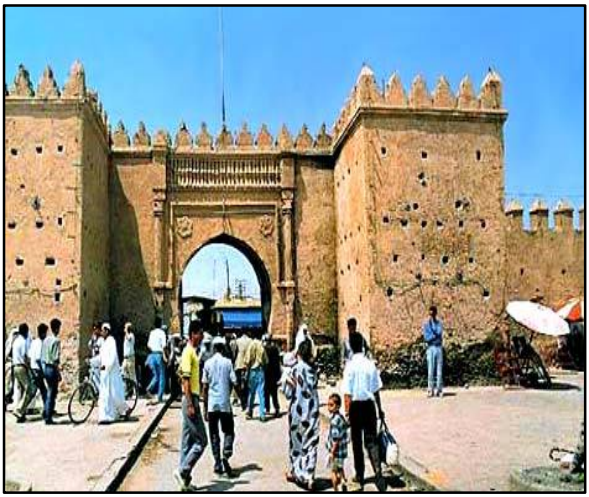

واصَلا السيرَ وَسَطَ هذا الزَّخَمِ من البشر، حتى إذا ما بلغَا الساحةَ العمومية للمدينة العتيقة، ساحة «سيدي عبد الوهاب»[1] المشهورة، ازدادَ

[1]- هو احد شرفاء المدينة عاش في القرن 7 الهجري و دفن قرب الباب المعروف باسمه.

ازْدِحامُ النّاس فيها وَسَطَ الحافلات التي ما إن تَقْلَع الواحدة منها حتى تَأخذَ الأخرى مكانَها.

شَغَل الأمكنةَ الفارغةَ المَدَّاحون وأصحابُ الحلَقات يعرِضون ما لَديهم من حكاياتٍ وأساطيرَ وشِعر ملحون يُـرَدَّدُ تحت نَغَماتِ النَّاي المصنوع من القصب ودَفَّات "البندير". الكلُّ يسعى لجذب أكبرِ عَددٍ من المتفرِّجين؛ حتَّى إذا ما كَثُرَ عددُهم أخرجَ صاحبُ الحلَقة منديلاً أو قُبَّعَةً يَجمع فيها من المتفرِّجين ما تَيَسَّر له من دَراهِمَ معدودات. تلك هي حرفتهم التي اتَّخذوها وسيلة للعيش في المدينة. لم يكن يعرف مثلَ هذه الحلقات في قريتهم إلاَّ يوم الخميس موعد السُّوق الأسبوعي. لعلَّهم هم أنفُسهم يَتَنَقَّلون من مكان إلى مكان.

طلب من ابن خاله أن يَـدْنَـوَ من إحدى الحلقات ليسمعَ ما يقوله واحد من هؤلاء. أخذا مكانَهما في الحلقة الدائرية التي يتوسَّطها الحَكواتي. شيخٌ طاعنٌ في السِنِّ يَرتدي «جَلاَّبة»رَثَّـة، تَكْسُو رأسَه عَمامَة بيضاء أَدارَها بإحكام. وهو جالسٌ على الأرض سَمِعَه يُردِّد هذه الكلمات:

"عاصي الله والوالِدينْ ما يَرْبَحْ ... قَبْلْ الموتْ يَبْقى في الدَّنيا يَتْمَرْمَدْ".

لا يتذكَّر جيدا كلّ ما كان يردّده هذا الشيخ، ولكن مازالت تَرِنُّ في أذْنَيْه هذه الكلمات عن برّ الوالدين.

ازدادَ فضوله وانتقل إلى حلقة ثانية وثالثة ورابعة. وَجَدَ أصحابَها مختلفين حول مواضيع حَلقاتهم، وكأنَّهم اتَّفَقوا على أن تكون مواضيعُهم متنوعة ومختلفة لجذب أكبر عدد من المتفرِّجين. هذا يحكي عن بطولة عنترة بن شداد وغزواته، وذاك يذكر ما كان للصَّحابة من أعمال جليلة، وآخر يُضْحِكُ الناسَ بالفكاهات والنّكت المختلفة. فُسَيْفُسَاء من الأقوال والحكايات والفكاهات وقصائد الشعر الملحون.

قال في قرارة نفسِه: سوف أتَردَّدُ مُستقبلاً على هذه السَّاحة حتى أستمع إلى الأكثر.

كم كانت هذه الجولة مفيدةً له في أوَّل يوم له في المدينة. تَعَرَّفَ خلالها على بعض جوانب حياة الناس، وبدأت نفسُه تخرج رُوَيْداً رُويداً من تلك العُزلة التي شعر بها حين وَطَأت رجلاه شوارعَ المدينة وأزقَّتها. أحَسَّ بشعور جديد ينتابُه: ربَّما ستكون حياته في المدينة أحسن مِمَّا كانت عليه في القرية. فهنا على الأقل سيتَعرَّفُ على أشياء لم يعْهَدْها من قبل. هنا، سيُخالط أجناساً أخرى من البشر. لقد انتهى وقتُ العزلة وحلَّ محلَّه وقت الاختلاط مع الآخرين، ومن خلال ذلك ستَتَفَتّحُ أمامه الآفاق التي كانت من قبل مرصودةً في وجهه.

هكذا قال في قرارة نفسه وهو يحدِّثها بدون أن يستفيق وسيّارة مارّة بجانبه كادت تصدمه لولا يقضة ابن خاله الذي جذبه بقوة وهو يحذره ليَنْتَبِهَ مستقبلا عندما يسير في شوارع المدينة.

عادا إلى المنزل وشَعَر أنَّ رجلاَه تؤلمانه، ربما بسبب الحذاء الجديد. تذكَّر أنَّه لم يُـؤَدِّ الصَّلاة الواجبة. لبس عباءتَه الجديدة التي اشتراها له أبوه وأخذ إناء ملأه بالماء ليتَوضَّأ.

حَمد اللهَ على نِعمته بعد الانتهاء من الصَّلاة، وزَالَ أَلَمُ رِجْلَيْه بعد أن غَسلهما بالماء البارد.

جلست امرأةُ خاله بجانبه، وصارت تسأله عن أخبار ناس القرية. وهو يُحَدّثُها عن كلِّ صغيرة وكبيرة، تَبيَّنَ له أنَّها تريد أن تعرفَ كلَّ شيءٍ عن أخبار ناس القرية، خاصة وأنَّ الوقتَ هو نهاية فصل الصيف حيث تكثُر أحاديثُ وأحداثُ الأعراسِ والولائم، وزيارات الأباعد للقرية. أخبارُ أهل القرية تجري كَسريَان الدَّم في عروقها. كيف لا وهي تنحدر أصلاً وفَصلاً من عائلات وعَرش وقبيلة تلك القرية. من حَقِّها أن تعرفَ كلَّ شيء عن هذا وذاك. ليس كأهل المدينة الذين رآهم هذا المساء حيث لا يعرف أحد منهم أخبارَ وهمومَ الآخرين، إلاَّ من رَحِمَ ربُّك. كُلُّ واحدٍ مُنهمك في شؤونه الخاصة ولا دَخْلَ له بشؤون الآخرين.

انضَمَّ خالُه إلى حديثهما وراح يسرد عليهم كيف كان يعيش في القرية وكيف انتقل إلى المدينة بعد أن وُظِّفَ للعمل في محطة القطار.

هو يتذكَّر كلَّ صغيرة وكبيرة، يتذكَّر صعوبةَ التَّأَقلم مع الحياة هنا في المدينة. يحمد اللهَ أنَّه بعد مُدة صار منهم وتَعَوَّدَ على بعض عاداتهم وتقاليدهم.

خالُه "سي علي" ذو البشرة البيضاء المائلة إلى الشُّقرة وصاحب العينين الزرقاوتين، رجلٌ صارمٌ في حديثه ومواقفه وفي كل شيء. الكُلُّ يَهابُه ويحترم أوامِرَه ويبتَعِد عن نواهيه. لا يَهُمُّه شيءٌ في حياة الناس ما عَدا مصلحة أبنائه وعائلته. هكذا أُومِأَ له وكَأنَّه يريد أن يُنَبِّهَهُ إلى أَنَّ مهمَّته في المدينة تنحصرُ فقط في الدِّراسة والتَّحصيل، وما عدا ذلك لا شأنَ له بحياة الآخرين. ختم حديثه قائلا:

- غدا ستَذْهَبُ مع أخيك «عمار»للتسجيل في الإعدادية التي وُجهت إليها. هي نفسُها التي يَتمَدْرَس فيها. لا تَنْسَيا المرورَ بالمحلات التي تبيعُ الأدوات المدرسية لشراء محفظة وما يَلزمُك من دفاتر وأدوات الكتابة.

تَذَكَّرَ القِمَطْرَ المصنوعَ من الكَتَّان الذي لازمَه طوال مرحلة دراسته الابتدائية. لقد حان الوقت ليتخلَّص منه ولأول مرة في حياته. ستحلُّ مَحلَّه المحفظة التي سيحملها كجميع التلاميذ. سيكون مثلهم في اللباس وحَمْلِ المحافظِ في أيديهم. ليس كأبناء

اليوم يَحملون الحقائب المدرسية على ظهورهم. إذا كان الفرق غير شاسع عنده بين القمطر والمحفظة، فإنه يجد اليومَ الفرقَ شاسعا بين المحفظة والحقيبة. كان التلاميذ قديماً يعتَنون بدفاترهم وكتبهم خوفاً من الطي وتبعثُر الأوراق، أما اليوم فكيف يتحقَّق لهم ذلك في حقيبة توضَع على الظهر وهي التي صُنِعت من أجل وَضْعِ أغراضٍ أخرى لا علاقة لها بالحياة المدرسية. عاد التلاميذ اليوم يحملون على ظهورهم أسفارا ضخمة ترهقهم وتلوي ظهورهم، فلو بقيت المحفظة وحتى القمطر وهيبتهما لكانَ الأمر عكس ذلك.

انتهى يومُه الأول بالمدينة بتناولِ العَشاء وتأدية الصلاة والنَّوم مع أبناء خاله في الحجرة المخصَّصة لهم.

كانت دار خاله ليست بالواسعة وليست بالضيقة: حجرتان ومطبخ وفناء واسع يجلسون فيه صباحا ومساء. رغم هذا العدد الذي يبدو اليوم كبيراً لعائلةٍ يَرْبُو عَدُدَ أفرادها عن الثمانية، كان النظام فيه أثناء المبيت دقيقا: الجَدَّة والبنات ينامون في المطبخ، والذُّكور في الحجرة والخال وحرمه في بيتهما لوحدهما. عندما يحل بالدار ضيوفا، يتوزع الذكور والإناث بين الحجرة والبيت، والمطبخ دائما للجدة والبنات. هكذا تَعَوّدوا على هذا التوزيع المُحكَم والكُلُّ راضٍ بما أعطاه الله له من مكان يستريحون فيه من مَشاقِّ اليوم وأتعابه.

أيقظَته أصواتُ باعةِ العَربات المَجرورة بالدَّوابِّ أو"الكَرُّوسات"[1] وهي تملأ زُقاقَ الحيِّ بالضَّجيج والصُّراخ، هذا يبيع خُضرا وذاك يَبيع حليبا أو لبنا أو خبزا أو نعناعا وثالثٌ يبيع أشياء لا يعرفها. إنهم فِتية وشيوخ يجوبون الأزقَّة كلَّ صباح باكر بَحْثا عن لُقمة عيشهم اليومي.

قام متثاقلاً وكأنَّه لم يَنَم ليلَته. تذَكَّر قولَ أبيه عندما قال له: أرضُ المدينة عندما تَباتُ فيها ثقيلة عكس الأرض عندنا فهي خفيفة خِفَّة أهلها. تَعَجَّب لهذا الأمر الذي لم يجد له تفسيرا. ما الفَرق بين الأرض الثَّقيلة والأرض الخفيفة؟ المهم أنه هنا ولا فرق له بين أرض ثقيلة أو خفيفة، والأهَمُّ عنده أن يرى ولأول مرة الإعدادية التي سيزاوِل دراستَه فيها ويَتعرَّف على أصدقاء له من المدينة وخارجها.

4-إعدادية البكري:

لا تفصل المسافة بين دار خاله بـ"فلاج كولوش" وإعدادية "البكري" إلا كيلومترا أو أكثر منه بقليل. كان من قبل يقطع مسافة أكبر كلَّ صباح ومساء. ستوفّر له هذه المسافة القصيرة شيئين هامين: الجهد والمال. الأول ينفعه في الإنْكِباب على مراجعة

---

[1]- هي عربات مصنوعة من الخشب او الحديد تجرها الحمير او الخيول، تستعمل للتجارة وحتى لنقل الناس إلى أماكن مختلفة.

دروسه بدون صعوبة، والثاني يساعده على إدِّخار النقود التي يتركها له أبوه كل شهر عند خاله.

ازدادت بهجتُه و هو يرى اسمَه مُدَوَّنا في القوائم المُعَلَّقة في فناء المؤسسة؛ قوائم كُتِبت بحروف تدُّل على مهارة من كَتبها بيده بعناية فائقة. لم يكن وقتَها لا كاتبة راقنة كلاسيكية أوإلكترونية ولا إعلام آلي يُستَعانُ بهم لإنجاز الأعمال الإدارية، ليس كاليوم عندما وُفِّرت هذه الوسائل غابت معها كتابة الحروف الأنيقة وانطمس معها الخط الجميل الذي كان يُعتَزُّبه ويَتسابقُ الجميع حتى يكون مَـنْ له القدرة في إتقانه.

راح ابن خاله يتجَوَّل به داخل المؤسسة بعد أن أَذِنَ لهما الحارس بذلك شَرْطَ أن لا يَبقَيا طويلا حتى لا يَراهما المديرُ، فربما يُوبِّخُه توبيخا أو يُعاقبه .

مرافقُ الإعدادية متناثرةً في مساحة واسعة قد تأخذ منك وقتاً أطوَل لزيارتها كلها. اكتفيا بدخول بعض الأقسام الواسعة التي وُضعت فيها الطاولات والكراسي بعناية كبيرة. الفرق شاسعٌ بينها وبين أقسام مدرسة قريته في كل شيء: سبورةٌ كبيرةٌ وُضِع بجانبها الأيمَن مَكتب أنيق. نوافذٌ واسعةٌ تطِلُّ على ساحة شاسعة يرفرف فيها علمٌ أحمر تتوسطه نجمة خضراء. لم يصدُق بأنَّه سيكون واحدا من بين مئات التلاميذ الذين سيتسابقون غدا للجلوس في الصفوف الأمامية. تذكَّر أنَّ جلوسَه كان دائما في

الطاولة الثالثة على اليمين. ترى هل سيكون هذا المكان من نصيبه هذه المرة أو سيكون لغيره؟

قال في قرارة نفسه: لا يهم هذا ما دام أنه سيصيرُ واحدا من بين تلاميذ هذه الإعدادية التي انشرح صدرُه لها منذ اليوم الأول الذي وَلِجَها.

أنْهَيا الإجراءات الإدارية التي لم تَتَطلَّب منهما الكثير، وخرج هو وابن خاله من الإعدادية متوجِّهين نحو وسط المدينة لإتمام ما أوْصى به خاله. لم يَمتطيا هذه المرة لا حافلة ولا مركبة مجرورة. لقد قرَّرَا قَطْعَ المسافة مشياً على الأقدام، ففي ذلك منفعة له حتى يتعرَّفَ على جهات أخرى من المدينة. لقد صار اليوم واحدا من أهلها، وعليه أن يَعْرِفَ كُلَّ أزقتها وشوارعَها.

حركةُ الناس في المدينة لم تتَغَيَّر كثيرا على ما شاهده بالأمس، حركةٌ دائبة في كلِّ اتجاه، غير أنها أخَفُّ مِمَّا كانت عليه في هذه الجهة من المدينة التي لم يَتمكَّن من زيارتها بالأمس. إنَّها الجهة العصرية من المدينة، فرقٌ شاسع بين المدينة العتيقة والمدينة العصرية في كلِّ شيء: شوارعُها واسعة أنيقة، مَحلاَّتها تُبهِرُ الناظرين بسلعها المتنوِّعة المرتفعة الثَّمن، مقاهيها حديثةٌ وُضِعَت كَراسيها على الشرفات المحاطة بالأزهار والورود. قال له ابن خاله عندما رآه مَنبَهراً وهو ينظر إلى ما هو موجود أمامه:

- إنَّ ثمنَ فُنجانَ قهوةٍ أو إبريقَ شايٍ هنا يُساوي ضِعف ما هو مألوفٌ في مقاهي المدينة العتيقة، أما أثمان السِّلع، فنحن لا نستطيع شراءَها نظرا لغَلائها. كلّ شيء هنا بثمن وكأنَّه وُضعَ لطبقة خاصة في المدينة.

بعدها، توجَّها إلى إحدى المكتبات الموجودة بساحة سيدي عبد الوهاب بالمدينة العتيقة واشتريا منها محفظة وَضع فيها بعض الدفاتر والأدوات المدرسية. لا يمكنه الآن شراءَ كُلَّ المستلزمات المدرسية، يجب أن ينتظرَ ما يطلبه منه الأساتذة بعد أول لقاء تعارف في القسم؛ فهم أدْرى منه بما يحتاجه من وسائل حسب كل مادة. يتمنى فقط أن تَكفي النقود التي تركها له أبوه عند خاله لتغطية كل المستلزمات، فهو لا يريد أن يعاتبَه معلّمٌ إذا قَصَّرَ في شراء ما يُطلَب منه؛ لقد تَعَوَّدَ منذ صِغَرِه أن لا يَجْذُب الأنظارَ إليه خاصة من طرف الذين عَلَّموه كالفقيه في الكُتَّاب ومعلِّمي اللغة العربية والفرنسية. فما بالك اليوم مع أساتذة جدد لا يعرف عنهم شيئا وأمام جمع من التلاميذ جاءوا من جهات مختلفة من المنطقة الشرقية للمملكة.

قبل الدخول المدرسي، يَستعدُّ الأولياء في المدن لاستقباله وكأنَّهم يستقبلون يوماً مشهوداً في حياتهم السنوية. يجابهونه بمشقة نتيجة تصاعد وتيرة الإنفاق على ملابس الأطفال والأدوات المدرسية. الكلّ يسعى بإمكانياته أن يوفِّرَ لأبنائه كلَّ ما يحتاجونه في

هذا اليوم، مهما كلَّفهم ذلك من ثمن، ولو باللُّجوء إلى الاقتراض أو بيع بعض الأثاث المنزلي.

5- في الحمام الشعبي:

عَشية الدخول المدرسي، تذهب أمّهات الأُسَر المحظوظة مع بناتها إلى الحمام الشعبي نهارا، بينما يذهب الآباء مع أبنائهم الذُّكور إليه ليلا. الاستحمامُ أمرٌ ضروري لارتداء ملابس المدرسة. فمن كانت أسرته ميسورة ذهب إلى الحمام، ومن كانت فقيرة اكتفت الأم بتسخين قِدْرٍ من الماء يَستَحِمُّ به أبناؤها في مكان مُخَصَّصٍ لهذا الغرض في المنزل. تماما كما كانت تفعل أمُّه كلَّ مرة يزورها في ذلك المنزل البعيد عن القرية. أما اليوم فسيعرف الحمَّام وما فيه، وسيدخله مثل بقية الناس.. .

جمعوا له ولابن خاله الذي سيرافقُه كلَّ ما يحتاجانه للحمام من مناشف كبيرة ودَلْوٍ لملءِ الماء، وصابون بلدي، وغاسول لغسل الشعر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فيها الحمَّام.

- اليوم، "تَحْميَمة ومْعَاهَا تَكْسيلَة"، قالها ابنُ خاله وهو يضحك. لم يبالِ كثيرا بكلامه هذا الذي مَزَجَ بين المفاجأة والسخرية؛ غير أنَّه راح يتساءل في قرارة نفسه ما معنى"التَّكْسيلَة"؟؟ هل في الحمام من يضرب الناس و"يُكَسِّلُهم تَكْسيلا"؟ عجيبٌ وغريبٌ أمرُ أهل المدينة!

يتوسَّط الحمَّام فناءٌ كبير مُغَطًّى وُضِعَ على جوانبه فراشٌ وأرائك ومقاعد خشبية. صاحب الحمام يجلس وراءَ مِنصَّة عالية وُضعَت على يمين الباب الرئيسي يُراقب الداخل والخارج.

وأنتَ تدخل الحمّام تجد فيه ثلاث حجرات واسعة: الأولى باردة والثانية دافئة والثالثة ساخنة لقُربها من بيت النَّار أو ما يُسَمىَّ بـــ"البُـرْمَة". كُلُّ الحُجرات الثَّلاث مملوءة بالرّجال والأطفال وهم عرايا لا يَسْتُرُ عورتَهم سوى قطعة قِماش شَفَّاف وضَعوه على خُصورهم. براميلٌ مملوءةٌ بالماء السَّاخن أو البارد. رجلٌ مُنبطحٌ أرضاً على بطنه وبجانبه رجلٌ آخرَ قَوِيُّ البُنْيَة، مَفتولَ الذِّراعين يَحُكُّهُ ويُدْلِكُه ويُـقَـلِّبُه ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال وجِسمُه بين يديه وكأنَّه قماشُ ثوبٍ يريد غَسلَه.

- هذا هو"الكَسَّال"[1]؛ هكذا هَمَسَ ابن خاله في أذنه. هل تريد "تَـكْسيلَة"؟ أجابه بدون تردد: لا أبَدا.

لقد عرف الآن ما كان يقصده ب"التَّحْميمَة ومْعَاها التَّكْسيلَة"، قال في نفسه: يستحيلُ أن أتركَ هذا يَمسُّ جسدي ويَقُومُ بتلك الحَركات التي يسمُّونها ب"التَكْسيلة"، فأنا نحيفُ الجسم وسَيُكَسِّرُ ضُلوعي لا مَحالة. كيف أُسَلِّمُ له جَسدي، وهو بَعْدَ أن

---

[1]- الكَسَّال أو الدَلاَّك، رجل قوي البنية، يعمل بالحمام، فهو يقوم بتمطيط الأجساد وتدليكها وتطويعها وإزالة الأوساخ منها مقابل ثمن يدفعه الزبون. وهذه العملية تسمى ب" التكسال" وتصغيرها «تَكسيلة".

يَحُكَّ جَسَدَ زبائِنِه، يأمُرهم بالانبطاح على أرض الحمَّام السَّاخنة ويجلس على ظهورهم ويَجْذِبُ أكتافَهم ويُقوِّسُها حتى تكاد تُكَسَّر. حركات تَمْطيطيَة لا يتحمَّلُها إلا جَسد المتعوّدين عليها.

وهو بالحمَّام، شعرَ أنه في جو غريب، جوٌّ تَفوح منه روائح تَزْكُم الأنوفَ. بخارُ الماء السّاخن يَحجُب الرُّؤية، تتَجمَّع قطراته على السَّطح المُقَوَّس ثم تسقط الواحدة تلو الأخرى على أجساد البشر المتمدِّدة هنا وهناك. الكلُّ منهمكٌ بغسل جسده من الأوساخ العالقة به. ربَّما كان كلُّ واحد يريد التخلُّصَ مِمَّا جُمِعَ أو تراكَم عليه من أتعابٍ، وما صاحبَها من أوساخٍ منزلية طيلة أسبوع كامل أو أكثر، حتى إذا ما انتهى خرج إلى «الصّالة» واضطجَع على مقاعدها الخشبية أو على بساط أفرشتها قبل أن يَرتديَ ملابسَه النظيفة التي جيء بها قبل دخول الحمَّام.

أحَسَّ وهو فوق فراش "الصالة" أنه صار شخصاً آخر بعد أن خَفَّت نفسُه من أشياء كثيرة كان يجهل مصدرها، فهل فَعل الحمَّام فِعلتَه وغسل بدنَه من التَّعب والإرهاق حتى أصبح يشعر بتلك السَّعادة الجديدة التي راحَت تَغمُره؟

يُهنيءُ الناسُ بعضَهم بعضا بعد خروجهم من الحمَّام ويردّدون بأصوات هافتة وهم يقولون:

- بالصحة والعافية.

ألقي بجسده الخائِر قُرب ابن خاله في أحد الأماكن الفارغة في «الصالة». يُهنئه ابن خاله بدوره ويذكره قائلا:

- ألم أقُل لك "تَحْميمَة هائلة"، لو تَرَكْتَ "الكَسَّالَ" يعمل لك "تَكْسيلَة" لَشَعرتَ أنَّك وُلِدتَ من جديد.

هو لا يعرف أنه خاف خوفاً شديداً من ذلك "الكَسَّالَ " ومن حركاته القوية. لكنه اكتفى بإجابته:

- مرة أخرى إن شاء الله.

03

وبَـدأ يتـَـلَمَّـسُ العَـالَـمَ مِن حَـــوْلِه...

1- دراسته بثانوية «البكري»الإعدادية:

2- أخبار متقطعة عن الوطن:

3- شاطئ «السعيدية»:

1- دراسته بثانوية «البكري»الإعدادية:

وهو يُحاوِل اليومَ أن يتذَكَّرَ تفاصيلَ دراستِه الإعدادية بالمدينة، تَخُونُه ذاكرتُه كيف كان ذلك الصباح الذي بدأ فيه أول يومٍ من السنة الدراسية؟ أكان يوماً مشمساً أم غائماً؟ كيف وصل وكيف دخل وكيف تَمَّ توزيعهم على الأقسام؟

كل ما يتذَكَّرُه أنَّه وجَدَ نفسَه يومَها جالساً على كُرسي في الطاولة الثالثة، وفي الصفِّ اليَمين من بين الصفوف الثلاثة المتراصَّة في تلك القاعة الدراسية المتواجدة في أقصى شرق بناءات المؤسسة. كانت أمنيتُه دائما أن يجلسَ في هذا المكان. لا هو في الأول ولا هو في الأخير، بل هو في الوسط؛ فخير الأمور عنده أوسطُها.

وجد نفسَه بين عَدَدٍ هائل من التلاميذ لم يَعْهَده من قبل. عرف بعد ذلك سِرَّ هذا العدد الذي قد يتجاوز سكان دوار كامل من القرية التي جاء منها.

في ستّينيات القرن الماضي، كانت الإعداديات والثانويات متواجدة فقط في المدن الكبرى. ليس كاليوم، هي بكثرة حتى في المناطق النائية. قديماً كان كلُّ من ينال الشهادة الابتدائية في القرية، ينتقل إلى المدينة ليُتْمِمَ دراستَه فيها. أضف إلى ذلك أنَّ عدداً مثل هذه المؤسسات بالمدينة لم يكن يتجاوز عدد أصابع اليد فيها.

شاءت الأقدار بأن يدرس بثانوية «البكري» الإعدادية في عاصمة المغرب الشرقي التي كانت تتواجد بها آنذاك كل من الثانوية الإعدادية للجاحظ وعمر بن عبد العزيز وعبد المؤمن. أربع مؤسسات للتعليم الإعدادي والثانوي لا غير، يَدخلُها كلُّ من أوتِيَ حظّا ليصيرَ أحد تلامذتها.

من حظّه أنه صار من بين هؤلاء التلاميذ، ومن حقِّه ومن حق أهله وعائلته وعشيرته أن يفتخروا بهذا الإنجاز العظيم. كيف لا وهذه المؤسسات لا يدخُلها إلا مَن نجح في الشهادة الابتدائية وسمحت له ظروف أهله بأن يتحمَّلوا مصاريف الدراسة فيها!.

كيف لا يفتخر وهذه المؤسسات تَخَرَّجَ منها – عبر الزمن- كبار الشخصيات التي كان لها ضلع في السياسة والفكر والأدب ومختلف العلوم!.

لا يمكن لأحد اليوم أن يُنْكِرَ فضلَها وفضل أساتذتها ومؤطريها من تعليم أبناء البلد المضيف، ومعهم عدد كبير من أبناء الأسر الجزائرية المهاجرة إليها آنذاك.

بدخوله الإعدادية وهو شاب في مقتبل العمر، بدأ يَتَلَمَّسُ العالمَ من حوله، وبدأت الآفاق تَتَفَتَّحُ أمام أعينه ويخرج رُوَيْداً رُوَيْداً من العالم الضَيِّق الذي وُلد وترعرع ونشأ فيه، ليَلِجَ عالما جديدا لم يكن يدرك في البداية كل أسراره، ولا يعرف حتى نهايته والمصير الذي سيؤول إليه.

أربعُ سنوات كاملة قضاها بإعدادية البكري، ابتداء من السنة التحضيرية إلى السنة الثالثة إعدادي، كانت مفتاحا لحياة عمره كلها. كل سنة لها من الذكريات والأحداث ما يملأ به العديد من الصفحات. في كل صفحة عشرات الوقائع والأحداث والذكريات، ومعها ما اكتسَبَه من التجارب والعِبَر التي قَوَّت عزيمتَه وجعلته يواجه الحياة بكل عزم وإرادة، وما عرفه من الأصدقاء. وما أحاطَت بحياته من ظروف مختلفة.

من هذه الذكريات ما بقي عالقا بمخيِّلته، ومنها ما طَوَتْه سِّنون النِّسيان إلى الأبد. عندما يرجع بمخيِّلَته إلى الوراء، يتذَكَّر أوَّلا أمَّه الحاجة – رحمة الله عليها – وهي تُحدِّثه عن تلك الفترة، تَتَذكَّرُها وتحكي له عن كل صغيرة وكبيرة وبكُلّ تفاصيلها، بينما نسي هو الكثير منها، ولا يستطيع تَذَكُّر سوى جزءٍ بسيطٍ. لقد ضحت أمَّه ومعها أبوه من أجل أن يعيش هو وإخوته حتى يكبروا ويتفتَّح العالم من حولهم، ويعرفون مَن هم ومن أين أتَوْا وما هو أصلهم وأين هم وفي أي طريق كانوا سائرين؟

تراكَمَت عليه الكثير من الأحداث وهو يتذكَّر هذه المرحلة من عمره حتى خُيِّلَ إليه وهو يكتب هذه الكلمات ويسرد هذه الذكريات، أنه صار لا يتذكَّر منها إلا اليسير، أوكَأنَّه بدون أن يشعرَ يريد طَيَّ تلك الصفحات ولا يريد أن يخرجَها من ذاكرته وحياته فتبقى مخزونة في الماضي إلى الأبد.

أربعُ سنوات من الشَّغَفِ الكبير في التَّعلُّمِ المُتَوَّج في نهاية كل فصل وسنة دراسية بأحسنِ الرُّتب والدَّرَجات. كان لا يرضىَ لنفسه سوى بالرتبة الأولى أو الثانية أو على الأكثر الثالثة من بين أقرانه الذين كان يكبرهم سنا. تلك هي نتائج عمله الدَّءُوب كلَّ يوم كان يقضيه في الإعدادية، مُواظبا ومُنتَبِها إلى كل صغيرة وكبيرة يقولُها أو يكتبها أساتذته على السبورة. لا يترك شيئا منها إلا ويُدَوِنُه في دفاتره التي أعطاها الأهمية القصوى في العناية بها.

خلال هذه المرحلة وجد نفسَه مدفوعاً بقوة خَفِيَّة إلى مطالعة العديد من الكُتب وخاصة الروايات والقصص. التهمَ قصَّة ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة للمقفع، وبعض قصص السيف ابن ذي يزن[1] والنظرات والعبرات وماجدولين لمصطفى لطفي المنفلوطي وغيرها من الكتب الأخرى. لم يكن بوسعه أن يشتري هذه الكتب من السوق الشعبية إلا نادرا، لهذا كان يلجأ إلى استعارتها من مكتبة الإعدادية أو من مكتبة البلدية التي وجد ضالَّته فيها.

---

[1]- من أشهر قصص السير الشعبية الخيالية في الأدب العربي، أما «سيف بن ذي يزن» فهو ملك يمني حميري عاش في الفترة بين 516م – 574 م، اشتهر بطرد الأحباش من اليمن، و تولى الملك فيها.

وجدَ في هذه الكُتب وخاصة منها المُتضمِّنَة القصص الخيالية الأسطورية ما يملأ بها دُنياه ويجعله يَختلي بنفسه كَعابدٍ مُتَصَوِّفٍ يَريدُ أن يَبتعدَ عن الواقع المُر حتى لا يُحسَّ بقساوته. يجد في هذه الكُتب مَن يُؤْنِسُ وِحْدَتَه ويُخْرِجَها من العُزلة التي ضربها على نفسه، غير مُبالٍ بما يَجري حوله من أحداثٍ وتطوُّراتٍ غَيْرَ تلك المتعلِّقَة بدراسته وأسرته ووطنه.

2-أخبار متقطعة عن الوطن:

كان أحياناً يَسْتَرقُ السمعَ من هنا وهناك ليكتشفَ جزءاً من الحقيقة التي غُيِّبَت عنه قَصرا؛ حقيقة ما جرى هناك في بلده من معارك، وحقيقة ذلك العدد الهائل من الشُّهداء. يَنتظر بلَهفة ما يَصله من أخبار عن طريق الرسائل التي كان يَبعثها لهم أخوه الأكبر المجاهد، غير أنَّها لم تكن تَحمل أخبارَ تلك الأحداث المتسارعة عن وطنه وهو يَشُقُّ طريقه نحو بناء الدولة الحديثة. كل ماعرفه في تلك الرسائل: أنَّه كان يُطَمئِنُهم عن حاله وأسئلة يطرحها عن أحوال الأسرة وسلام يبلغه للجميع.

عرف فيما بعد أنه بعد نزولهم من جبال الجهاد انتمى إلى مؤسسة حكومية جديدة، وأنه تَزَوَّج وأصبح له أولاد. لم يحضر هو ولا أبوه ولا أمّه عُرسَ زفافه، وكأَنَّ القَدَر أراد ذلك، ألتحق "بالجبل" في السر عندما قَرَّرَ الجهادَ مع إخوانه، وتزوَّجَ معهم بالبندقية التي كانوا يكافحون بها أعداءهم، وبعد أن تَخَلَّص هو ومَـن بقي منهم في

الحياة وتمكنوا من العدو اللَّذوذ، أقاموا الأعراس والأفراح وخرجوا مثل الناس إلى العالم الجديد.

لا يعرف الفتى اليوم ما الأمر الذي حال دون أن يحضر أفراد أسرته عُرْسَ أخيه المجاهد، خاصة وأنه احتفل في الحقيقة بعُرسين: عُرس بلاده التي حرَّرها بعرقه ودمه وتضحيته، وعرسه هو بعدما نجا من الاستشهاد على أرض المعركة...: لقد كان حقّاً شَهْماَ وبطلاً يتذكَّره الآن بكل افتخار.

لم يكن يعرف حجم أفراد الأسر المهاجرة في هذه الجهة إلا بعد أن تَمَكَّن من نسج خيوط صداقة مع زملاء له في الدراسة الإعدادية. كانت أُسَرهم قد هاجرت إلى هذه المدينة في أوقات مختلفة. منها التي نَزحت أثناء الحرب التحريرية، ومنها من حَلَّت بالمكان قبلَها. عرف أيضا أنَّ عددا كبيرا من أبناء وطنه سَكنوا هذه الديار قبل أن يَحُلَّ بها ويتوقف قطار حياته فيها للدراسة. ها هو اليوم يَجوبُ الشوارعَ نفسَها والدُّروبَ ويَسكن الأحياء التي كانوا بها. لا شَكَّ أنَّ عددهم كان كبيرا قبل أن يغادروها مختارين أو مُكْرَهين.

أصبح جَبل "عصفور» المُطِل على المدينة من الناحية الشرقية الجنوبية غير بعيد عن بصره. يَتَذَكَّر حرائقَه كل ليلة قضاها من قبلُ بالقرية وكأنَّها نجمة أضاءت حياته. كيف لا وهي تُذَكِّره بأحلَكِ الليالي التي مَرَّ بها وطنه. يزداد شوقُه كل سنة ليعرف المزيد ثم المزيد عن بلده، عن أصله وأعمامه وأبناء عمومته وأهل

قبيلته. هُوَ لا يعرف منذ أن رَأت عيناه النورَ سوى أخواله وخالاته وأبناء وبنات أخواله وخالاته الذين كان يلعب معهم. لا يعرف شيئا عن جَدِّه من أبيه الذي تُوفِّي قبل أن يولد. لا يعرف .... ولا يعرف الشيءَ الكثيرَ؛ وانتظر حتى يَتفَتَّح كُل شيء أمامه ويَتَلَمَّس العالم من حوله.

سأل يوما خالَه عن تلك الثَّكنة الكبيرة المتواجدة بالحي في جهته الشرقية والتي يُطلَق عليها اسم «بَلْمهيدي»[1]. لم يعطه تفاصيل أكثر سوى أنَّه قال له: إنها ثكنة كبيرة كان بها جنود كُثُرٌ ومَعهم عائلات لا يعرفهم. أوصاه بأن لا يقترب منها، فهي مازالت تحت الحراسة المُشَدَّدة.

رغم تَوصِية خاله، كان فضولُه يدفعه دفعا. تحَجَّجَ بألف حجَّة لِيَذهبَ وأصدقاؤه للعب بجانب أسوار تلك الثكنة وهدفُه معرفةُ ما بداخلها. باءت محاولاته بالفشل بعد أن أُفرِغَت الثَّكنة مِمَّن كانوا فيها، وصارت أطلالَ ديار لقوم كانوا يوما هناك. من هم هؤلاء القوم؟ كيف جاءوا إلى هنا؟ وكيف رحلوا؟

لم يتمكن وقتَها من الإجابة على هذه الأسئلة التي حَيَّرَتْهُ لزَمنٍ غير قصير في حياته. عرف فيما بعد سِرَّ ذلك المكان الذي كان يُشكِّلُ القاعدةَ الخلفية للولاية الخامسة لجيش جبهة التحرير

---

[1] - نسبة إلى الشهيد العربي بن مهيدي. تحوّلت فيما بعد إلى بناءات عدا حائطا مازال شاهدا على آثارها. كانت مركزا هاما أثناء الثورة التحريرية.

الوطني، تَدَرَّبَ فيه المئات من الجنود والضبَّاط والإطارات[1]، وتَمَّ في حجرات مستشفاه شِفاءُ العديد من جرحى الحرب. عاش فيه عَدَدٌ من المسؤولين العسكريين والسياسيين. كانوا يصدِرون الأوامرَ ويُخَطِّطون للعمليات الحربية على الحدود والجهة الغربية من وطنه.

كان عدد المساندين للثورة الجزائرية كثيراً مما تَصَوَّره، سواء من أهل البلد الشَّقيق أو من أفراد الأسر الجزائرية. الكُلُّ ساهم بطريقته في الثورة. هذا يستقبل الجنود في بيته ويأويهم ويُطعمهم قبل الالتحاق بأرض المعركة؛ وذاك يجمع أموال المتبرّعِّين المفروضة على كل عائلة. الكلُّ يعمل من أجل أن تَنْكَسِرَ شوكةُ المستعمِر، ويَتمكَّنُ كلُّ واحدٍ أن يعودَ إلى أرض وطنه.

قبل أن تستقِلَّ بلدُه، وقبل ذلك التَّرحيل الجماعي الذي عقِبه، كان أغلب سكان "فيلاج كولوش" من الجزائريين، اتَّخَذوا هذا الحي كمُجَمّعٍ سَكَني لهم، لكونه قريب من ثكنة «بلمهيدي». ربما حَلُّوا بهذا المكان لقربه من الطريق التي أتَوا منها، فهي طريق بُنيت على جَنباتها منازلهم من الطوب والحجارة؛ وسُطِّرَت أزقتُها الضيِّقة التي اتَّخذُوها مكانا للتِّجارة والاسترزاق في حِرَف عديدة. المُهم، أنّهم عاشوا هناك بعيداً عن تنكيل الاستعمار وبطشه وتعذيبه؛ والأهَمُّ أنَّ

---

[1] - تم إنشاء مدرسة لتكوين إطارات الثورة بثكنة العربي بن مهيدي بوجدة عام 1957.

أبناءَهم تَعَلّموا، حتى وإن كَلَّفَهم ذلك الكثيرَ من التَّضحيات والاستغناءَ عن الكثير من الحاجيات.

يحمدون الله أنَّهم كانوا بعيدين عن أرضِ الخَوفِ من الموت في كل ساعة، بل في كل ثانية من الزمن. يكفيهم أنهم كانوا ينتظرون هنا رحمةً من الله أن ينصر المجاهدين، فانتصارهم هو الكفيلُ الوحيد ليخلِّصَهم كلهم من حياة الهجرة وقساوتها.

يَكفيهم أنَّهم انتظروا هنا معونات الجبهة التي كانت تُوَزَّع عليهم في "ثكنة العربي بن المهيدي" الغير البعيدة عن مقر تواجدهم؛ فهم أحسن حالا من الأُسَر الجزائرية التي كانت مُوزعة عبر القرى والبوادي البعيدة عن هذه المدينة مثل أسرة صاحبنا. حقاً كانوا أوْفَـر حظاً في الحياة للتطلُّع إلى الأفضل. على الأقل كانوا على دِراية عمَّا كان يَجري من حولهم من أحداث، ويعرفون ماذا كان يجري هناك وراء الأسلاك المكهربة ووراء الجبال والأودية.

لقد كانوا أحسن حالاً من أبناء الأسر الأخرى كأسرته من حيث قربهم من مصدر الأخبار، وبالتالي هم أوْسعُ أُفُقاً من الذين ضُرِب عليهم سِياجٌ من الصَّمت الرَّهيب فعاشوا تائهين لا يعرفون شيئا عن حاضرهم، ولا بصيصَ أمَلٍ عن مستقبلهم. لقد شاءت الأقدار أن تكون كذلك أحوال الأسر المهاجرة اللاجئة إلى هذا البلد الجار، تنتظر ساعةَ الخلاص لِترجعَ إلى أرض أجدادها وتتمتَّع بالنور مثل جميع البشر.

هكذا كان يُحَدِّثُ نفسَه وهو يَمُرُّ بدروب وأزقة "فيلاش كولوش"، يقطعها كلَّ صباح وهو ذاهبٌ إلى الإعدادية، وكل مساء وهو عائد منها. طريقٌ واحدةٌ لا يُغيرها بسواها، حتى إذا ما وصل إلى خط السكة الحديدية[1] التي تفصل بين المدينة والحي الذي يسكنه خالُه، وقف يتأمل قُضبانَه الحديدية ويسأل نفسَه إلى أَيِّ إتِّجاهٍ هي مُمتدة هذه القضبان مثل ثعبان لا رأس له ولا مؤخرة. عَلِمَ فيما بعد أنَّها طريق السكة الحديدية التي تربط شرق المملكة بوطنه، وأنَّها امتدادٌ **لطريق السكة الحديدية** التي تمر بالقرية التي يسكن بها جده. على جَنَباتِ هذه السكَّة الحديدية بُنِيت القرية التي عَرَفَ فيها الكُتاب والمدرسة الابتدائية.

إنها الطريق التي شُقت لتربطَ بين الشمال الإفريقي كله. هكذا أرادها الاستعمار أن تكونَ لينقل عبرها جنوده الغازية وينقل في عرباتها المواد الأولية التي كان يستنزفها من باطن الأراضي المغاربية كلها.

---

[1] - اختفى اليوم هذا الخط للسكة الحديدية الرابط بين مدينة وجدة والجزائر عبر نقطة الحدود «زوج بغال"، وتَحَوَّل إلى طريق معبدة و لم تبقَ منه سوى آثار بعض القضبان الحديدية (الصورة أعلاه أخذت يوم 03 ماي 2017 من طرق الكاتب نفسه).

كم تمنى وهو يقطعُ هذه الطريق أن توصله يوماً ما إلى وطنه.

استمر يزاول دراستَه الإعدادية في هذه الفترة، ولم تُلْهِهِ تلك التساؤلات المُحرجة عن تلك المسائل التي كان يريد معرفتَها. لم يَزِدْهُ فضوله هذا إلاّ عزيمة وإرادة لينجح في دراسته. نجاحُه مرتبطٌ بما يُحَصِّله من المعارف العلمية وبما يَتَعَلَّمُه من مشاهدته ومعايشته لسلوك الناس وطبائعهم في هذه المدينة التي زَوَّدته بالكثير من المعارف حول الحياة التي كانت تجري من حوله.

كُلَّما عاد إلى القرية أثناء العطل المدرسية، يحكي لإخوته ما لَمَسَهُ في المدينة من أمور شتّى هم يجهلونها تماما. يحكي لهم عن حياة أهل المدينة وكيف يعيشون فيها، عن ركوبهم "الأوتوبيس» وهم يتدافعون لأخذ مقعد بداخله، وعن سيارات الأجرة الحمراء المُسَمَّات ب"الطاكْسِيات الصغيرة"[1] وعن الدَّكاكين المملوءة بمختلف السلع، وعن المقاهي والشوارع المكتضَّة بالناس صباحا ومساء وعن وعن... كم كان إخوته يتشوَّقون إلى أحاديثه وهو يحكي لهم عن قصص الأفلام التي كان يشاهدها في دور السينما في المدينة. أفلام

---

[1]- تشتهر المدن المغربية ب»الطاكسي الصغير» le Petit Taxi وهي سيارات أجرة لا تختلف عن مثيلاتها في بلدان أخرى إلا بهذا الاسم الذي جاء لصر حجم أغلبها.

رعاة البقر أو "الكوبوي" والأفلام الهندية التي كان يشاهدُها أحيانا وهو منبَهِرٌ بحكايات أبطالها الشجعان الذين لا يموتون أبداً.

3- شاطئ «السعيدية»:

حكى لهم يوماً كيف عرف البحرَ عندما سَنحت له الفرصة ليصل إلى شاطئ "السعيدية" ويتمتَّع برماله الذَّهبية. فبعد أن اقترح عليه شُلَّة من الأصدقاء أن يرافقَهم إلى البحر وأفهموه بالطريقة التي تَعَوَّدوا انتهاجَها لتحقيق ذلك، والمتمثِّلة في كراء درَّاجة هوائية "بسيكلات" عند أحد الدرَّاجين الموجودين في أحياء المدينة.

قديما كانت الدراجة تُكْتَرى بالساعة أو باليوم لكل راغبٍ أن يقضي عليها حاجته. أفهموه أنهم سينطلقون إلى الشاطئ باكراً قبل طلوع الشمس، وبالتالي عليه أن يُجَهِّزَ حالَه يوما قبل موعد الذهاب.

طلب الإذنَ من خاله واشترط عليه وعلى ابنه «عمار» أن يكونا حذرين في الطريق، ويكونان أكثر حذَراً عندما يدخلان البحر قصد السباحة فيه. هو يعرف بأن ابنَ أخته لم يعرف البحر من قبل، ومن الفائدة أن يتركه يذهب إليه مثل جميع الشبان في سنه.

يبعد شاطئ "السعيدية" عن المدينة بحوالي 60 كيلومترا، يقع إلى شمالها على البحر الأبيض المتوسط. قد يَتَعَجَّب من يقرأ هذه القصة، ويتساءَلُ كيف يقطع هؤلاء الشباب بدرَّاجات هوائية هذه المسافة ذهابا وإيابا، خاصة وأنَّ الذي يعرف هذا الطريق يعرف

تلك المنطقة الجبلية الوعرة التي تتوسط المسافة والمتمثلة في منعرجات "الكربوز" بين بلدة بني درار ومدينة أحفير. تُعرَفُ بأخطر وأصعب المنعرجات في الجهة الشرقية للبلد.

كانت مثلُ هذه الصِّعاب لا تعتَرض شباباً مثلهم، هم يعرفون كيف يَركبون الدَّراجات الهوائية منذ سِنِّهم المبكِّرة حيث كانت هواية مفضلة لدى الكثير منهم. تَعَلَّمَ صاحبُنا ركوبَها بعد أن تفتَّحت عيناه في المدينة وبدأَ يعرف كلَّ شيء. يَكتريها كُلَّما أراد أن يَتجَوَّل في أرجاء المدينة أوفي أحيائها البعيدة أو يزور الولي الصالح «سيدي يحيى بَنْيونَس» أو غابة «سيدي مْعَافة».[1]

عندما استيقظ خاله يتوضَّأ لصلاة الفجر، نَهَضَ مع ابن خاله، وحاولاَ بكل حَذَرٍ أن لا يَتَسَبَّبا في يَقْظة الآخرين. اليومُ، يومُ راحة، ومن حقِّ كلِّ واحد أن يَستريحَ من عَناء أيام الأسبوع.

تَسَلَّلا خارجَ المنزل وقَصَدا مباشرة المكان المُتَّفَقَ عليه لِتَجَمُّعِ كُلِّ مَن كانوا من بين القاصدين يومَه شاطئ «السعيدية».

بمجَرَّدِ أن التَحقَ الجميع بالمكان المعلوم، حتى كان كلُّ واحد فوق درّاجاتِه يُوَجِّه مِقوَدَها في الطريق، ويَضغط بكلِّ قِواه على دَوَّاسَتَيْها. عندما وصلوا إلى تلك المنعرَجات، راح كلُّ واحد منهم يتبع الآخر وهم يتمايَلون يَمينا ويَسارا حتى إذا ما وصلوا القِمَّة،

---

[1] - تحولت غابة سيدي مْعافة و كل المنحدر الذي كانت فيه إلى أحياء راقية(مثل حي القدس) ببناءات فخمة و عصرية و بكل منشآتها القاعدية.

ركَنوا درَّاجاتهم على جَانبِ الطريق وأخذوا قِسطاً من الرَّاحة تنسيهم ما بذلوه من جُهدٍ لصعود مُنعرجات "الكَربوز" المشهورة.

كانت المسافة نحو الشاطئ بعد هذه الاستراحة قصيرة وأسهَل من المرحلة التي قطعوها. مُنحدرات توصِلهم إلى مدينة أحفير[1] ومنها إلى مكان وِجهتهم.

ها هي زُرقَة مياه البحر تَتراءَى لهم وهم يَقتربون شيئا فشيئا من الشاطئ ونفوسُهم مُتشوقة ليصلوه ويلقوا بأجسادهم المُتَصَبِّبَة عَرَقا في مياه البحر المالحة، فيتخلَّصون من التَّعب الذي أصابَهم لطول مسافة الطريق.

كانت الساعة تشير إلى حوالي العاشرة صباحا عندما وجدوا أنفسَهم وجها لوجه مع أمواج البحر المتلاطمة على الشاطئ. كم هو جميلٌ هذا المكان، كُلَّما ألقَيتَ بنظراتك، إلا وكَبُرت أمام أعيُنِك عَظَمَةُ الإله الذي خلق السماوات والأرض، وخلق البر والبحر وسخَّر الكُلَّ لينعم الناس بملكوته، «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ»[2].

قضى الجميع يوماً رائعاً ليس كالأيام المعتادة في المدينة. سَبَح الجميع وتمتَّع كل واحد منهم بمياه البحر المالحة. كان بعضهم يبتعد عن الشاطئ الذي وضعوا فيه حاجياتهم ودرَّاجاتهم، أما هو

---

[1] - مدينة في المغرب الشرقي تفصل بين الحدود المغربية الجزائرية بالقرب من مدينة باب العسة، وتبعد عن منتجع السعيدية ب18 كلم.

[2] - الآية 159 من سورة الصافات.

فلم يبتعد عن الشط إلا ببضع الأمتار. هو لا يُحسن السّباحة، ولم يعرف البحرَ قبلَ هذا اليوم. يكفيه أن يبقى في المكان الذي تتلاطَم فيه الأمواج مُعانِقَةً جَسدَهُ ومُنعِشَة إيـّاهُ، ويحمد الله أنـّه كان من المحظوظين الذين أُتيحَت لهم اليومَ فُرصة الذَّهاب إلى البحر والتمتُّع بجماله وروعَته، ويحمد الله أنَّه وَجَدَ في هؤلاء الأصدقاء مَن يأخذ بيده ويتيح له هذه الفرصة للاستجمام والتَّمتُّع بمياه البحر المُنعشة.

عندما مالَت الشمسُ وراءَ ظهورهم واقترب وقت العصر، جمع الكلُّ حوائجَه وراح كل واحد يَستَعدُّ بكل قِواه للعودة إلى المدينة. اتَّجهوا مباشرة إلى الطريق نفسِه الذي جاءوا منه في الصباح، وبدأوا في تَرديد بعض الأغاني والأهازيج لتَكون رفيقَةً لهم وهم على ظهور كراسي دراجاتهم الهوائية نَشوَى بما استمتعوا به طوال النهار.

يحمدون الله أنه أتاحَ لهم يوماً جميلا، ما هو بالحار ولا هو بالبارد، بل يوم تميزت درجات حرارته بالاعتدال، ولم تكن رياحه قوية تهبُّ ضد اتجاههم، تدفعهم من الوراء وهم يتسابقون تارة ويتناوبون على مقدمة الرَّكب تارة أخرى.

عندما وصلوا إلى المدينة، كان التَّعب قد أخذ منهم مأخذَه الأخير، فقد خارَت قِواهم بعد قطع تلك المسافة الطويلة التي لا نَظن اليوم أن يقطعها فتيان ركوباً على دراجة هوائية مثل ما فعلوه اليوم.

أرجَعوا الدراجات الهوائية إلى أصحابها، حيثُ كانوا في انتظارهم، وانتظار غيرهم من الزبائن الذين إكْتروا لهم أيضا دراجات أخرى. الدراجات الهوائية مفضلة لدى الكثير من الناس آنذاك لقضاء مآربهم. اتخذوها وسيلة أحسن من السيارة أو ركوب الحافلات أو العربات المجرورة بالأحمرة .

بعدها افترق الجميع وكل واحد يتمنَّى للآخر أن تتكرَّر مثل هذه الجولة الرائعة إلى منتجع «السعيدية».

توالت الأيام بعد ذلك على الفتى وهو بين الإعدادية ومنزل خاله، بين الدراسة واستكشاف العالم من حوله. دفعه فضوله مثلا أن يعرفَ كيفَ أنَّ معاشرة الناس الخيرين تجلب له الخير كله، أما مرافقة قرناء السوء فقد تَصُدُّه عن تحقيق أهدافه، وقد تدفعه إلى الرذيلة والانغماس في الشهوات والملذات التي هو في غني عنها. كم كان صاحبُنا يكره الذين يتكلّمون في غيرهم حَسَدا وغَيْرة من الذين أوتوا حظا من الأخلاق والتَّفَوُّق في الدراسة، يَبتعد عنهم كُلَّما صادفهم في طريقه، متذكِّرا قولَه تعالى عز وجل: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»[1].

---

[1]- الآية 11 من سورة الحجرات.

04

الرجوع إلى المنطقة الأولى

1- "برقنت»وباديتها:

3- سوق «برقنت»وزاية»سيدي الشيخ

4- في منزل خالته وابنها «محمد ":

5- مرض الوالد ووفاته:

1-"برقنت" وباديتها:

دخل صاحبنا المدرسة الإعدادية وعمره 16 سنة، ولم يَكَدْ يُنهي دراستَه في هذه المرحلة حتى قَرَّر أبوه عودة الأسرة إلى المنطقة الجنوبية من شرق المملكة؛ أين توجد "برقنت»التي نشأ فيها وترعرع. عندما سأل أباه عن سِرِّ هذا القرار أجابه قائلا:

- إنها أوفَرُ حضا للعيش مقارنة مع المنطقة السابقة.

لم يقتنع الفتى بهذا الجواب الذي حَيَّره، وزاده متاعب، إذْ لن تسنَحَ له الفرصة لزيارة عائلته كالسابق. كانت هذه المنطقة أَبعَد من موطن أمه التي عرف فيها الكُتاب والمدرسة. لا شك أنَّ المسافة التي سيقطعها هذه المرة مضاعفة ثلاث مرات أو تزيد؛ أضف إلى ذلك نقص وسائل النقل التي لا تتعدَّى حافلة واحدة كل يوم، بينما في المكان السابق كانت كل وسائل النقل متوفرة ومعها القطار الذي كان يمرُّ بمحطة القرية عدَّة مرات في اليوم .

هذا البُعد سيقَلِّص له الأيام التي سيقضيها مع أفراد أسرته وسيحرمه أيضا من التمتُّع أكثر بجمال الريف ونقاء هوائه وبساطة عيش أهله.

بقي هذا الأمر لغزا في قرارة نفس الفتى، وراح يطرح عشرات الأسئلة على نفسه دون أن يجد الجواب الشافي والكافي: لماذا عاد أبوه إلى هذه المنطقة القاحلة؟ هل كان مَرَدُّ قَرارِه أنها أقرب إلى الحدود

المغربية الجزائرية، وبالتالي كان يُفكِّر في الدخول إلى أرض الوطن عبر هذه الجهة التي هاجر منها جدّه قديما ليستقر بالمغرب؟ أم أنَّ هذا الانتقال إلى هذه الجهة كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بنوعية السكان والأسر والقبائل التي كانت أغلبيتُها أسرأ من أصل جزائري، استقرت بهذه الجهة منذ أمد بعيد؟ وهل السبب يعود أساساً إلى كون هذه المنطقة الصحراوية تشبه إلى حد بعيد منطقة الهضاب العليا التي تنحدر منها أسرته والمتمثلة في تلك الجهة الغربية الجنوبية من الوطن؟

هي أسئلة كثيرة بقي الجواب عليها لغزاً حتى الآن. فمهما كانت الأسباب واختيارات أبيه؛ فإن الذي حَـزَّ في نفسه وزادها ضيْقاً أنَّ القَدَرَ كان مرة أخرى مكتوباً على جبينه لتزداد مصاعبُه في الحياة . وكلما لاح بريق الأمل أمام مصيره وحياته التي سعى بكل ما أوتي من قوة ليرسم لها آفاقا أفضل من حاضرها إلا وازدادت الأمور تعقيدا لديه .

فعلا، زاد هذا الانتقال وبُـعدُ المكان من متاعبه وأبعدَه أكثر عن أسرته. لم تعد المسافة الجديدة تسمح له بقضاء نهاية الأسبوع وزيارة العائلة والتمتع بدفْئها. لم يبقَ القطار الذي أَلِفَ ركوبَه كلَّ مرة ويسمع رنَّات عجلاته وهي تحتَك بقضبان السكة الحديدية مُحدِثة ذلك الصَّوت العجيب الذي تَعَوَّدَت عليه أذُناه. لقد انتهى عهده

بتلك القرية الهادئة النائمة، وانتهت معها الكثير من ذكريات الصِّبا والطُّفولة.

كان عليه أن يَتَكَيَّفُ مع الوضع الجديد، ولا يفكِّر في السفر لزيارة عائلته إلا في العطل المدرسية الطويلة. كلما أراد أن يغتنم مثل هذه المناسبات، يشتري تذكرة سفر من مكتب صاحب الحافلة الوحيد في شارع مراكش يوماً على الأقل قبل ركوبها. كانت هي الحافلة الوحيدة التي تربط المدينة التي يزاول فيها دراسته وجميع المدن الجنوبية المتواجدة بالهضاب العليا المغربية[1] ، ومنها قرية

"برقنت"، البعيدة عن عاصمة المغرب الشرقي بأكثر من 80 كيلومترا، تقطعها هذه الحافلة في

[1] – وهي تندرارة وبوعرفة وفقيق .

عدة ساعات. لم يكن هناك قطار للمسافرين رغم وجود خط للسكة الحديدية التي لا تنقل عرباته سوى نبات "الحَلفا" وبعض السلع.

وحتى يومَ سفره هذا، كان لا بُدَّ أن يُصادِفَ يوم انعقاد السوق الأسبوعي كل يوم ثلاثاء[1]، حيث ينتظره أبوه وأخوه الأكبر ليذهب معهما إلى المكان الذي استقرَّت فيه العائلية، حتى إذا ما وصلوا، فرحت به أمه وإخوته الذين كانوا ينتظرون ما سيُخرِجُه من حقيبته ويتعرفون على ما اشتَراه لهم من المدينة.

يتذَكَّر تلكَ الأيام والليالي التي كان يَقضيها في تلك المنطقة. يتذكَّرها وكأنَّها كانت بالأمس القريب؛ يتذكَّرها عندما كانت نفسُه سابحةً وفكرُه يتأمل تلك المناظر الطبيعية الخلاَّبة لهذه المنطقة الجديدة وكأنَّها غريبة عَليه وهو الذي مشى فيها أول خطواته.

مساحات واسعة من الأراضي السَّهبية لا تستطيع عيناك تحديدَها. تُشرق عليها الشمس كُلَّ يوم حتى إذا ما توسَّطت السَّماءَ فيها صيفاً تكاد أشعَّتُها تشوي جِلدَك. أما في الشِّتاء فعليك أن ترتدي الملابسَ الصوفية لعلها تَقيكَ من القُـرِّ القارِسِ والجليد الذي تراه بعينيك وهو يكسو الطبيعة بلونه الأبيض اللامع.

حَفَّزَه هذا الجَو لمطالعة الكُتب التي كان يحضرها معه، فهي من جهة، الوسيلة الوحيدة لملءِ الفراغ الذي كان يَشعر به، ومن جهة

---

[1] - عُوِّضَ هذا اليوم حاليا بيوم الاثنين.

ثانية، هي الهواية المُفَضَّلة لديه، فهي الأنيسُ والرَّفيقُ والصَّاحِبُ الذي يُطْلِعُه على معرفة المزيدِ من المعلومات والتَّعَرُّف على كلّ شيءٍ جديد في الحياة. وهي كذلك الوسيلة التي تُتيح له الفرصةَ دائماً وتَفتح له الأبوابَ ليَنْشُدَ الحقيقةَ والصَّوابَ، ويُميِّز بين ما هو أفضل وأصْوَب لتكونَ أيَّامُه المستقبلية أفضل من أيامه الحاضرة. كان دائما يرسم في أوراق دفاتره ما سيكون عليه غَدُهُ، أو يَجلس في مكان خالٍ فوق كومَةٍ من الأحْجار يتأمَّل الطبيعةَ وهي أمامه خاليةً من كل شيء، فيخاف من الوساوسِ المُخيفة وما يُخَبِّئُه له القدر. كان عقلُه يسبح في فضاءٍ لا بدايةَ ولا نهايةَ له.

الْتَهَمَ الكثيرَ من القصص والروايات والكتب الأدبية مطالعةً وتلخيصاً: رواياتُ يوسف السباعي، وكتبُ طه حسين والعَقَّاد وغيرهما من الأدباء. لم يستثنِ الكتبَ باللغة الفرنسية التي كان يُزَوِّدُه بها أستاذُه لمادة الفرنسية: مثل كتب "جان جاك روسو" و"موليير" و"بالزاك" وغيرهم. كان يجد لذةً كبيرةً في معرفة نهاية كل قصة ومصير أبطالها. يُدَوِّنُ الجُمَلَ والفقرات التي تُعجبه أساليبها وعباراتها ليُثريَ بها رصيدَه اللُّغوي. لازال يَحتفظ إلى اليوم ببعض الدَّفاتر التي كان يوماً يدَوَّن فيها كل ما كان يقرأ. عندما يتصفَّحُها اليوم، يندهشُ ويتعجَّب كيف تمكَّن آنذاكَ من مطالعة كل هذه الكتب. لا ريبَ أنَّ ظروف ذلك الزمان ليست هي الظروف نفسها اليوم وهو يُدَوِّنُ هذه الذكريات .

وقتَها، لم تكُن الملهيات العديدة تُبعد الإنسانَ عن المطالعة، أما اليوم، فلم يَعُد الكتاب الأنيسُ والرفيق الوحيد في الحياة. حلَّت مَحلَّه الأنترنيت والفضائيات التي تَلتقِط قنواتُها من الأصحُن المُقعَّرة المنصوبَة فوق سطوح المنازل والعمارات. هَمَّشت هذه الوسائل الجديدة في عالم الاتصال الكتابَ ومنافعَه، وهُمِّشَ معها ما يُنْشَرُ من كُتبٍ قَيِّمَةٍ وبحوثٍ حديثةٍ في شَتَّى العلوم والإختصاصات. صِرنا في عالم لا يعرف سوى "العم قوقل» وما أدراك ما "العم قوقل والياهو والفايسبوك" وغيرها من المواقع التي أصبحت تُوَجِّه عقولَنا وكأَنَّها هي الوحيدة التي تُمَكِّنُنا من الوصول إلى مصادر العلم والمعرفة، فَتَرَسَّخت في أذهان الكثير منا، أنَّ عصرَنا أصبح في غنى عن الكتاب ومَن يَكْتُب الكتابَ أو يُنتجَه أو يَبيعَه.

تساؤلاتٌ كثيرةٌ يَطرَحها اليوم ويَسْتَرجِع معها ما كانت له ولغيرِه من أقرانه من إرادةٍ وحبّ للقراءة والمطالعة والفضول في الكتابة والبحث عن مصادر المعرفة بالرغم من الوسائل القليلة التي كانت بحوزتهم. فشَتَّان الفرقُ بين الأمس واليوم !!

إلى جانب هذه الهواية المفضَّلة في عالم المطالعة والتَّدوين، كان ينتظر يومَ ذهاب أبيه إلى السوق الأسبوعي الذي يعقد بالقرية بفارغ الصبر ليرافقه. ينهض باكرا ويركب الدَّابَّة التي كانت الوسيلة الوحيدة للتَّنَقُّلِ، حتى إذا ما وصلا إلى مَشارف السوق،

تَركوها في مكان آمِنٍ بَعد ربطها بجذع شجرة تاركين لها العَلْف لتأكلَه.

3-سوق "برقنت" و"زاية سيدي الشيخ".

سوق «برقنت» من أكبر الأسواق المغربية لتجارة الماشية، يأتيه سكان المنطقة من قبائل «بني كيل» و«أولاد سيدي علي» و"بني مطهر" و"أولاد سيدي الشيخ"، أي من كل جهة. يعرضون مواشيهم للبيع أو يبادلونها بالقمح والشعير، كما يبيعون الصوف ويشترون كل ما يحتاجونه من المواد الغذائية على رأسها السكر والشاي والخضار التي تكفيهم لمدة أسبوع كامل.

يتوافَد التُّجارُ على هذا السوق من كل حَدْبٍ وصَوْبٍ، يعرضون سِلَعَهم في مكان خُصِّصَ لهذا الغرض في الجهة الجنوبية من المدينة. بعضُهم يقضي ليلتَه في هذا المكان، حتى إذا ما لاحَ ضوءُ الصَّباح، رأيتَ السوقَ يَمتلئُ بالناس، هذا يضعُ سلعتَه للبيع، وذاكَ يَجُرُّ مواشيه، حتى إذا ما اتَّخَذَ مكاناً له بين الباعة أخذَ يربطها من عنقها حتى لا تختلط مع مواشي غيره.

السوقُ مقسمٌ إلى ثلاثةِ أجزاءٍ مختلفةٍ حَسبَ السِّلع المعروضة، جزءٌ مَخصَّصٌ للمواشي وجزءٌ للملابس والأحذية والخردوات وجزءٌ ثالث للخُضروات. يعرض سكان القرية في الجزء الأخير ما ينتجونه من زراعات على رأسها اللَّفت البلدي والنَّعناع حيث "عين بني مطهر"

مشهورة بهما. وقَلَّمَا تَجدُ منطقةً أخرى في المغرب كلِّه تُنافسها في ذلك.

عندما بحث في الأمر وجد أن المنطقة تزخر بمياه جوفيةٍ شبه مالحةٍ تَسقي الحقول المزروعة بهذا النوع من النباتات.

كم كان جَوُّ السوق يُعجِبه. يشاهد فيه ويسمع مرة أخرى قصصَ أصحاب الحَلقات من المدَّاحين وشعراء الملحون وهم يزيدون السوقَ صَخَباً بما يُرددِّونه من قصائد شعرية على نَغمات النَّاي ودَفَّات الطُّبول، يَحْكون القصصَ والأساطير القديمة حول شجاعة علي وحياة وسِيَر الأولياء الصالحين على رأسهم «سيدي عبد القادر الجيلالي». كُلُّ ما تَسمعُه أو تشاهدُه قد يُدوِّخُ عقْلكَ ويُبهِرُ عيونَك ويَشُدُّ انتباهَكَ حتى يُخَيَّلُ إليك أنكَ تعيش في عالم أسطوري لا بداية ولا نهاية له.

وأنتَ تَتجوَّل في هذا السوق، لا تفوتُك الفرصةَ لاحْتِساءِ كؤوسِ الشاي المنعنع، أو تشرب كأساً من الصودا الباردة، أو تأكل حلويات السوق الملونة. بعد أن يَنْفَضَّ الناسُ بعد قضاء حوائجهم، تراهم يقصدون وسط القرية لشراء ما تبقى شراؤه من دكاكين القرية أو يعقدون جلسات أخرى في المقاهي. فالسُّوق مكانٌ مفضل لالتقاء الناس وتعارفهم وتبادل الأخبار بينهم، وفرصةٌ للبيع والشراء، إضافة إلى حل النزاعات التي تقع بين بعضهم.

كان يجد في هذه الأسواق ما يزيد فضولَه فيتعرف على عادات سكان المنطقة ونَمطِ وظروف معيشتهم. في هذا السوق استطاع أن يُمَيِّزَ بين طبقتين متمايزتين من الناس، الأولى تتركب من مَيسوري الحال وهم قلة، تعرفهم بملابسهم التقليدية الأصيلة المتكونة من البرانِس المصنوعة بوَبَرِ الإبل، يَرتدونها شتاءً لتَقيهم البردَ، أما في الصيف، فتراهم يلبسون «السِّلْهام» الأبيض؛ يضعونه فوق الأكتاف ليغطيَ أجسامَهم حتى القدمين وتحتَه عباءة بيضاء من الكَتان[1]. أما عامَّة الناس، فهم الذين تبدو ملامح الاحتياج باديةً على وجوهم: ألبسةٌ رَثَّةٌ تَتَكَوَّنُ غالباً من جلبابٍ من الصوف يَكْسُوأ جسَامَهم النَّحيفة، وعَمامة بيضاء تَلُفُّ رؤوسَهم، وأحذيتُهم مصنوعة من بقايا العَجَلات المَطاطِية[2]. وَضَعُوا فوقَ رؤوسِهم الُمحلَّقة عَمَائِمَ كَسَاها الغُبارُ حتى كاد يَخْفي بياضَها.

كان يريد أن يَعرف أكثر عن مدى تواجُدِ الأُسَر الجزائرية في هذه المنطقة، وبفضل لقاءات أبيه مع بعض الجزائريين، تمكَّن أن يعرفَ أنَّهم كُثرٌ بهذه الجهة.

---

[1] - «السِّلهام «عبارة عن «خرقة»لباس بها قلنسوة (قُب). يتطلب نسجه من الصوف عدة شهور.، وتقوم النساء بصناعته بصبر وتفانٍ.

[2] - كل من عاش هذا الزمان، زمان الخَصاصة، يعرف هذا النوع من النَّعل.

منذ القديم والجزائريون لهم صلة وطيدة مع سكان قبائل المنطقة[1]، اختلَطوا بهم عن طريق المُصاهرة أو تجارة المواشي. أَضِفْ إلى ذلك تواجُدُ جاليةٍ كبيرةٍ من أبناء أولاد سيدي الشيخ بالمنطقة. اتَّخَذت أغلبُ أُسَرِهم قُرب وادي الشَّارف وعلى بعد 16 كيلومترا شمالَ «برقنت» مكاناً بَنَوْا فيه زاويةً يَقصدُها سكان المنطقة للتَّبَرُّك بالأولياء الصالحين وعلى رأسهم «سيدي الشيخ». يُقيمون موسماً كبيراَ كُلَّ سنةٍ يُسَمَّى موسم أولاد سيدي الشيخ، نسبة إلى الولي الصالح السي عبد القادر بن محمد بن سليمان بن أبي سماحة.[2]

كان أبو الفتى من أتباع الطريقة الشيخية. عَرف ذلك من خلال الأَوْراد التي كان يُرَدِّدُها صباحاً ومساءً. يُوَحِّدُ اللهَ بعد كل صلاة ويقول: "لا إله إلا الله"، يكررُها ثلاثَ مَرَّاتٍ ويَخْتِمُها بـ "لا إله إلا الله محمد رسول الله".

---

[1] - من قبائل المنطقة: بني مطهر وبني قيل وأولاد سيدي علي وأولاد سيدي الشيخ وغيرهم

[2] - أسَّس الزاوية البوعمامية الشيخية الولي الصالح سيدي الحاج الطيب ابن الشيخ المجاهد سيدي بوعمامة البوشيخي الصديقي المتوفى عام 1935، أسسها بعد وفاة والده سيدي بوعمامة رحمه الله، وتقلد مشيختها بعده ابنه سيدي عبد الحاكم وبعد وفاته عام 1966 تولى المشيخة أبنه الفقيه سيدي الحاج حمزة، وهو الشيخ الحالي للطريقة الشيخية الشاذلية إلى حد كتابة هذه السطور. لهذه الزاوية وغيرها في المغرب علاقة أخوة ومحبة مع مثيلاتها في الجزائر حيث لا حدود بين أتباع سيدي الشيخ.

كم كان يستمتع بهذه الأذكار الربانية!! وكم كان يحس بشعور غريب عندما يجمع أبوه "الفُقْرَة»[1] من جيرانه، يردِّدون هذه الأذكارَ بطريقة جماعية بعد أن يتناولوا طعام الغذاء أو العشاء !!

لهذا كله سمي أبوه بـ»سي محمد الفقير».

بعد انقضاء كل عطلة مدرسية يَقفل راجعاً إلى المدينة، تَحدوه رغبة جامحة لإتمام دراسته بتفوق.

يَعود إلى المدينة وهو مُحَمَّلٌ بالمواد التي يشتريها له أبوه لخاله «سي علي»: مواد غذائية وخضروات المنطقة والسَّمن البلدي الذي لا يستغني عنه خاله عند تناول فطور الصباح.

عندما يلتقي بأصدقائه في الإعدادية، يتبادل معهم أطرافَ الحديث حول مواضيع متعدِّدة على رأسها أخبار القرية وأخبار الأهل والأصحاب الذين لم يؤتَ لهم حظ لمواصلة الدراسة بالمدينة. هذا يحكي عن عُرس حضَره وذاك يَسْرُد قصةَ نِزاعٍ وقع بين الأهالي حول قطعة أرضٍ اختلفوا حول مَن هُو أحَقُّ بحَرثها وزرعِها. كانت كل الأراضي عُروشية يتم استغلالها بطريقة جماعية.

مرة حكى لهم صديق كيف استغلَّ العطلة الربيعية وراح إلى الحقول المنتشرة هنا وهناك يلتقط «الفُقَّاع»[2] . يجمعه في سِلَلٍ، حتى إذا ما جَمع نصيباً كبيراً منه، جلس على قارعةِ الطريق

1- الفُقْرة مفردها فْقير وهو إسم يطلق على مريد الطريقة الشّيخية أو القادرية.

2- الفطريات

الوطني الرابط بين غرب وشرق المملكة يبيعُه لأصحاب السيارات. كم تكون سعادتُه كبيرة عندما تتوقَّف حافلة بالمكان الذي يجلس فيه. في ذلك اليوم يبيع كل سلعته ويرجع إلى داره وهو فرحٌ بما كسَبَه من دراهمَ يستغلها لشراء ما يَلزمه من ملابس وأدوات مدرسية أو يشتري بها بطاقةَ دُخول إلى إحدى دورِ السِّينما فيشاهد أفلام "الكوبوي" أو الأقلام الهندية .

تُصيبُه الغيرةَ من هذه الحكايات ويتمنَّى لو بَقِيَ أبوه في المنطقة الأولى، يفعل بما يقوم به أقرانه، أو على الأقل يشاركهم في المزاح والضحك وركوب الحمير وهم ذاهبون لملء براميل الماء من حنفية القرية .

مرَّت دراستُه في إعدادية «البكري» وهو منغمسٌ في الدراسة حتى الثَّمَالَة، لا يَتَوَقَّفُ عن المراجعة والكتابة ومطالعة الكتب . كمْ كان سعيداً و هو يشتري كتاباً من «جوطية» المدينة[1] أومن ساحة «سيدي عبد الوهاب» . يجدُ في ذلك لذَّةً خارقةً وهو يُطالِعُه.

لم تَمر سنوات الدِّراسة بالإعدادية حتى جَمع كَماًّ من الكتب أحتفظ بها في حقيبته المركونة في إحدى الحجرات التي كانت تأوبه هو وأبناء خاله .

---

[1] - الجُوطية سوق قديمة يُباع فيها كل قديم، و هو المكان المفضل للتسوق أنداك.أما اليوم فقد حلت محلها الأسواق العصرية كسوقّ مليلية» و غيرها. كما رُممت ساحة «سيدي عبد الوهاب» التي كانت أمامها.

كان ابن خاله «عمار» يأخذ كُتبَه من الحقيبة التي كانت كل شيء في حياته. وبدل أن يطالعها، يتركها عرضة للتمزيق والإتلاف. تثور ثائرتُه ويدخل معه في صراعٍ طويلٍ لا ينتهي إلا بعد أن تَتدخل امرأةُ خالِه تهدِّدُهما إن لم يَنْتَهيا سَتُخْبِرُ خاله «سي علي" بما يحدث بينهما من نقاش حاد. هي طبعا لا تفعل ذلك خوفا من أن يضرب ابنها الأكبر. كانت تسعى دوماً إلى تهدئةِ الوضع المتوتّر بينهما . بدأ يكرَه الحياةَ ومعها العيش في هذا الجو المُكهرب.

شكا ذلك يوماً إلى أبيه، غير أنَّه أجابَه قائلا:

- هذا ابن خالِك ومهما يصدر منه من تصرفات فهو ابن خالك، وأنت هناك من أجل هدف تدركه أحسن مني. أصبر وتجلد واجعل في بالك دائما أن خالَك هو خالك"إذا مَضَغَكَ لن يَبْلَعَكَ".

فَهِمَ من كلام أبيه عدة معاني عاهد نفسَه اتِّباعَها مهما كانت الظروف والأحوال، فهدفُه بائنٌ لا غُبارَ عليه..

يشعر صاحبُنا أنَّ ابنَ خالِه يَنظر إليه نظرةً دونيةَ، بالرغم من مرور ثلاث سنوات وهو مُلازمٌ له في الدراسة وفي الدار. لهذا تراه يَتَجنَّبُه ويُحاولُ أن لا يَحْتَكَّ به حتى لا تَتَوَتَّر العلاقةَ بينهما، الأمر الذي سيُغضب خاله وربما يسبب له ما لا يُحمد عقباه، كأن يَطلبَ السَّماحَ من أبيه أن لا يبقى عنده خوفاً بأن تَسوء العلاقات العائلية بسبب ولدين متشاحِنَين بينهما. كلٌّ واحد ينظر إلى الآخر نظرة مخالفة، لا لشيء سوى أنه هو ينحدر من الريف، وابن خاله "عمار"

هو ابن المدينة، وبالتالي هو أكثر تفتُّحاً وتَحَضُّراَ منه. أضِفْ إلى ذلك أن صاحبَنا كان يشعر بهذه الغربة الخانقة، يتقَزَّزُ منها ويَمْقُتها ويَلْعَنُ الزمانَ الذي كان سبباً من وراء كلِّ مأساته .

4-في منزل خالته وابنها «محمد»:

دوامُ الحال من المُحال. قَرَّرَ أبوه في السنة الموالية وهو يدخل سنتَه الرابعة إعدادي- أي السنة التي سيَجتازُ فيها الشهادة الإعدادية- أن ينقلَه إلى دار خالته التي تَسكن حَيّاً آخرَ من المدينة. «حي "فيلاج الطّوبى الدَّخْلاني" الأكثر تَحَضُّراً من "فيلاج كولوج" الذي سكنه عند خاله. لا يتذَكَّر كيف اتخَّذَ أبوه هذا القرار. ربما بعد مشورة أمه، وربما كان ذلك أثناء زيارة هذه الأخيرة لأختها. قد تكون حَكَت لها قصَّة العلاقة المتوترة بين ابنها وابن أخيها، وتَجَنُّباً لما لا يحمد عقباه، طلبت منها أن يَنتقلَ إلى دارهم ويُتْمم ما تبقَّى له من دراسته.

هكذا تشاء الأقدار أن يَنتقل الفتى بعد انتهاء العطلة الصيفية إلى دار أخرى تأويه وتوفر له الأكلَ وغسل ملابسه حتى يتمم دراسته الإعدادية. هل ضرب له القدر موعداً آخر تماماً كما ضرَبه لأسرته بأن تُغَيِّرَ مكانَ إقامتها مرات عديدة في أرض المهجر، وكل أفرادها حنين بأن يرَوا يوماً نهايةَ تلك الغُربة ويصبحون مثلهم مثل أبناء جلدتهم في وطنهم الذي أصبحت له مكانته الخاصة في العالم.

من حُسن حَظِّ صاحبنا أنه وَجَدَ في المأوى الجديد ظروفاً أخرى لكون منزل خالته وزوجها "الأخضر " - الله يرحمه- يَسكنان مع أفراد أسرتهما المتكونة من خمسة أفراد "فيلا" من نوع البناءات الموروثة عن العهد الاستعماري. تَتربَّع وسطَ البناية أربعة حجرات ومطبخ عصري مازالت مدخنته موجودةً رغم مَـرِّ السنين. فناءٌ واسعٌ يحيط بالبناية كلها تَعلوه شجرة العنب وتزيده جمالا بعناقيدها المتدلية في أواخر فصل الصيف.

وجد هذه المرة ابن خالته "محمد " - الله يرحمه- أكثَر تقبُّلاً لأفكاره. صارَ يُناقشه في كل صغيرة وكبيرة ويَقْتَسِم معاً ولوحدهما حجرةً مُركونَةً في أقصى فناءِ الفيلا. لا يسمع حديثهما أحد. كانا متلازمين لا يفترقان تسودهما محبةً وصداقةً تستطيع أن تقول عنها أنها كانت مثاليةً في كلِّ شيء.

يحتفظ في ذاكرته الكثير من هذه الصداقة المثالية والتي لا يُمكن بأية حال من الأحوال أن يَسرد كل تفاصيلها وحَيثياتها. كل ما بقي عالقاً وهو يتذكر ذلك أن الفتى في سنِّه، أنَّه كان يُحِبُّ الأغاني العصرية الغربية إلى حد الجنون، بل كان يُقَلِّد مُغنِّيها من أمثال: «إلْفيسْ بْريسْلي » [1] و«البيتْليزْ» [1] في كلِّ شيء. يُقلِّدهم

---

[1]- إلفيس بْريسلي: (1935 – 1977) أحد نجوم موسيقى «الرُّوك اند رولْ". ، كان الشباب مُبهَراً و مولعاً به في هذه الفترة.

في الصَّوت والكلام والحركات وتطويل الشعر بالرغم من أنَّه لا يُتقن اللغة الانجليزية إلا قليلا .

يَضحك منه صاحبُنا وينعته قائلا:

- أنتَ يا محمد لا فرق بينَك وبين أبناء «القور» في شيء ! لماذا لا تصبح مغنيا مثلهم؟؟

يقول له هذا فيضحك ابنُ خالته بملءِ فيه. هو من الشباب المتفتح يَقبَل كلَّ كلمةٍ يقولها له ولا يُعيرها أي تأويل. ليس كالآخرين عندما تقول لهم مثل هذا الكلام يعتبرونه سخرية وضحكاً عليهم!.

لم يكن صاحبُنا يُحب أو يَكره هذا النَّوع من الأغاني. كان يَهوى الأغاني العربية الأصيلة لامّ كلثوم ومحمَّد عبد الوهاب وفريد الأطرش وأسمَهان وعبد الحليم حافظ ومَن شابهم، إضافةً إلى المطربين المغاربة وما أكثرهم بأغانيهم الوجدانية الرائعة، مثل أغنية «القمر الأحمر»لعبد الهادي بلخياط والتي مطلعها:

خَجولاً أطل وراءَ الجبالِ .....وجَفْنُ الدُّجا حَوله يَسهَرُ
ورَقراقٌ ذاكَ العَظيم على شاطئَيه ارْتمى اللَّحنُ والمِزْهَرُ
وفي موجِه يَسْتَحِمُّ الخُلودُ ....وفي غورِهِ تَرْسُبُ الأَعْصُرُ

أو أغاني أحمد البيضاوي التي يُغني في مَطلع إحداها:

---

[1]- فرقة البيتلز (الخنافيس Beatles) مجموعة موسيقية غنائية شعبية إنكليزية أسسها أربعة شباب موسيقيين جميعهم من مواليد الأربعينيات من القرن العشرين.

قُلْ لِمَنْ صَدَّ وخَانَ .... ورَمَى عَنْهُ هَوانَا

ومَضَى عَنَّا وَوَلَّى .....وغَدَا يَبْغي سِوانا

ما الذي أغْضَبَ عَنا .....ذلِكَ البَدْرَ المُصَانا ؟

لم تَكُن الابتسامة تفارق صاحبنا منذ الصّبا، حتى قيل عنه: الفتى الضَّحوك. سأل أمَّه يوماً عن سِرِّ هذا الضَّحك الذي كان أبوه يَنهره عنه كُلَّما تَجاوز حدودَه، فأجابته، رحمة الله عليها:

- أنت يا ابني كثير الضَّحك لأني ولدْتُك في فصل الربيع، كان شهر سيدي «الميلود »، لهذا سُميتَ بهذا الاسم.

ضَحك من كلامها هذا، وقال في نفسه:

- ربما هذا صحيح، فكلام الآباء والأمهات هم دائما على حق.

في هذه الظروف الجديدة ظروف قد تقول عنها أنها عادية بالرغم من كل شيء، أجتاز الفتى شهادة الإعدادية، ونجح فيها بامتياز وانتقل إلى الثانوية، ثانوية عبد المؤمن الشهيرة. أصبح بين عشية وضحاها تلميذاً من بين تلامذتها. عُـدَّ هذا الأمرُ شَرفاً آخر يُضاف إلى مساره الدراسي بل إلى حياته كلها.

تُعَدُّ **ثانوية عبد المؤمن** التي صار أحد تلامذتها من أعْرَق وأكبر ثانويات مدينة وجدة، دخلها سنة 1968 وعمره 20 سنة.

تَتربع على مساحة واسعة جنوب وسط المدينة وغير بعيدة عن الحديقة العمومية التي يُطلق عليها بـ"البَارْك"[1]. هي ثانوية شاسعة الأطراف مكتملة البناءات والتجهيزات، تقع الداخلية في شرقها وجناح الأقسام في شمالها وغربها مصطفة في طابقين أرضي وَأوَّل.

[1] – هي حديقة "لالة عَيْشة" و أشجارها وأزهارها المشهورة بمدينة وجدة طالما تجول فيها و تمتع بمناظرها الخلابة.

كم كان سعيداً وهو يدرس في هذه الثانوية مثله مثل كثير من المسؤولين ثلاث سنوات كاملة في المرحلة الثانوية. هذه المرحلة هي آخر مرحلة في تعليم صاحبنا بالمغرب.

5-مرض الوالد ووفاته :

تشاء الأقدارُ في السنة التي وَلِجَ فيها التعليم الثانوي، أن مَرض أبوه مرضاً عُضالاً. بَقي طريحَ الفراش عدَّةَ شهور ولم يَتمكَّن الأطباءُ من شفائه وتم إخراجه لتلازم أمَّه "الحُرمية" وترعاه وتلبي مطالبه.

حـزن الفتى لمرضه وكان يزورُه نهاية كل أسبوع، يعود بعده مهموماً حزيناً على مرضه. كان أبوه كلَّ شيء في حياته ولا أَحَدَ سواه. تألَّم كثيرا بعد أن لَقِيَ الله ذات يوم من أوائل شهر مارس 1967. تُوفي وعُمره يناهز 78سنة. قضى هذا العمرَ مُضَحِّياً لان يعيشَ هو وأمه وإخوته حسب ما استطاعَ توفيرَه من ظروف الحياة. تمكن – الله يرحمه- من مُصارعَةِ الحياةِ في البادية وما فيها من قساوة الطبيعة. لم ينقُصْهم الكثير، كانوا مثلهم مثل بقية الناس، بل أفضلُهم أحيانا.

إنَّ ما يُؤلمُ نفسَه إلى اليوم هو عدم تَمَكِّنِه من حُضور تشييع جنازته يوم وفاته. والسَّببُ يرجع لكون المكان الذي اتَّخذَه أبوه كان بعيداً في تلك الجهة قرب زاوية "سيدي حَكُّوم" لأولاد سيدي الشيخ ببرقنت. تَشاء الصُّدف أن يحضر جنازتَه جَمْعٌ من طَلَبَةِ الزَّاوية،

ويُدفَنُ في مقبرة "برقنت" قُرب أبيه وأمه بناء على توصية كان قد أوصى بها أمه.[1]

كم كان فراقُ أبيه عسيراً، فقد أصبح يتيماً لا بفقدانه فقط، بل بفقدان أكبر مُعينٍ له في الحياة. خُـيِّمَتْ على حياته الكآبةَ حتى كاد ينقطع عن الدراسة، لولا أن أخذَ بيده أحد الأساتذة الذين كانوا يدَرِّسونه، ساعده ماديا ومعنويا على أن يتم تعليمه بالمغرب.

كم عانت أسرَتُه بعد وفاة أبيه. اجتمعت عدة ظروف لتُحَوِّل حياتهم إلى عيشة صعبة. يتذَكَّر تلك السنين العِجاف بسبب جفافٍ أتى على الأخضر واليابس، ضَرَبَ المنطقة في نهاية الستينيات؛ فأتى على العدد الكبير من رؤوس الماشية[2] التي تركها لهم أبوهم.

أحسَّ بمسؤولية جديدة تُجاه أسرته وإخوته بعد أن ضاقت سُبل الحياة أمامهم. حارَ في أمره كيف يَتحمَّلها وهو طالبٌ في التعليم الثانوي لا يستطيع إعالةَ أُمِّه وإخوتِه ويُخرجُهم من المآل الذي أصبحوا عليه. فَكَّرَ في المخرج فلم يجد لذلك سبيلا.

---

[1]- يتأسف الفتى الذي صار اليوم شيخا عن عدم معرفة القبر الذي وُورِي فيه أبوه التراب. لم توضع أية علامة دالة على وجوده كما يفعل الناس اليوم. لقد صار قبره منسيا مثلُه مثلَ قبر جده و جدته من أبيه.

[2]- يقال على قطيع الغنم، رؤوس أغنام، أي عددها، فإذا كان هذا القطيع كبيرا قيل عنه «عصا" نسبة إلى عصا الراعي التي يتولاها. وهكذا درج الموالون أي الذين يكسبون عددا من رؤوس الماشية على تسمية ما يكسبون بعدد العصي منها، فإذا كان العدد كبيرا كان صاحبها غنيا أي موالا كبيرا و ذا جاهٍ عند القوم.

حكي قِصَّةَ وَضْع أسرتِه لأستاذ للغة الفرنسية الذي كان يُدَرِّسُهم منذ السنة الأولى من التعليم الثانوي. حكى له كلَّ شيء بعدما زاره هناك في البادية وهذا بعدَ أن غابَ عن الدراسة لمدة تقترب من 15 يوما. كان ينوي التخَليّ نهائيا عن الدراسة. يحمد الله أنَّ هذا الأستاذ كان له أحسن مُعين له ولعائلته.

أصبح «الحاج »[1] أخوه الأكبر منه سناً مسؤولاً على العائلة، فلم يجد بُدّا من أن يبيعَ في كل سوقٍ جزءاً من الماشية وبأبَّخَسِ الأثمان ليشتري أعلافاً لبقية القطيع الذي بَدأ يَتناقص يوماً بعدَ يومٍ حتى أصبحَ يُعَدُّ ببضع عشرات من الرؤوس بعد أن كان يعد بالمئات. لم تَكَدْ تَمُرُّ سنتان حتى أصبح الوضع كارثِياً وأصبح البقاءُ على ذلك الوضع من المستحيلات.

فكَّر في المخرَج، فلم يَجِدْ سوى ذلك الأستاذ الذي اتصل بالهيئة القنصلية الجزائرية بوجدة وأخبرهم بالقصة كاملةً لعلهم يجدون حلاً لهذه الأسرة المهاجرة التي لم تَتَمَكَّنْ من الالتحاقِ بالوطن الأم مع السنوات الأولى للاستقلال مثلُها مثلَ الكثيرِ من الأُسَر الجزائرية آنذاك.

أَوَّلُ حَلٍّ وُجِدَ هو أن يُصَحَّحَ اسمُ العائلة الذي تَكرّسَ على خَطَإٍ مُتَعَمَّدٍ بَعْدَ أنْ أخْفىَ أبوهُم إسمَهم العائلي الحقيقي خوفاً من الطَّرد من البلد. إنَّ اعْتمادَ الاسمَ الصَّحيح المُسَجَّل في الوثائق الرسمية

[1] – هكذا أصبح يناديه من بعد كل أفراد العائلة و كل من عَرفوه.

للحالة المدنية لمدينة «برقنت" التي وُلدوا فيها هو الحَلُّ الأَفضَلُ لتعودَ الأمورُ إلى حالتها الطبيعية والرسمية.

تَطلَّبَ هذا الحلُّ القيامَ بعدة إجراءات واتِّصالات و تحقيقات على مستوى القنصلية الجزائرية بوجدة. لم تُسَوَّ وَضعيتُهم الإدارية إلا بعدَ استخراجِ الوثائق الرسمية للوالد والجد من البلدية التي ينحدرون منها في ارض الوطن و الرجوع الى شهادات ميلادهم المدوَّنة في سجلات الحالة المدنية ب"برقنت". بذلك أصبح لهم الحق أن يَحملوا الاسمَ الصحيح وتُثْبَتَ جنسيتُهم الجزائرية الأصْلِية التي سُكِتَ عليها لِرَدٍ من الزَّمن للأسباب المذكورة.

أصبحوا بعد هذا الإثبات فخورين بوثائقهم الجديدة مما مَكَّنَهم بعد ذلك للدخول إلى أرض الوطن وكلُّهم فَرَحٌ وتباهٍ بأصلهم وفصلهم .

في ذلك الوقت كان عددٌ كبير من الأسَر الجزائرية في الجهة، بدون هُوية تحمل اسماً غيرَ معروفٍ متبوع فقط بالاسم الشخصي لكل فرد لا غير. يُسمى هؤلاء بـ «س.ن.ب» S.N.P [1]، أي بدون اسم عائلي.

لكل واحدٍ من هذه العائلات قصَّة وظروف وصعوبات مع إثبات الهوية بأوراق رسمية. عرف ذلك من خلال تلك المقابلات الخاصة التي كان القنصل الجزائري يَخُصُّها له ولمجموعة من الطلبة

1- Sans Nom Patronymique.

الجزائريين. يُصَحِّحُ لهم وثائقهم الإدارية ويَحُثّهم لينجحوا، حتى إذا ما نالوا شهادة البكالوريا **سيُرَتِّبُ** لهم كلَّ شيءٍ للدخول إلى الجزائر. كان يقول لهم دائما:

- بلادُكم الجزائر في حاجة إليكم، إذا تفَوَّقْتم في الدِّراسة ونِلتُم هذه الشهادة، سَتُفتَح أمامَكم كل الأبواب في بلادكم.

05

وتَطَأُ رجْلاَهُ أَرْضَ الوَطَنِ.

1- زيارتُه الأولى لأرض الوطن:

2- تموشنت:

3- شهادة الباكالوريا

4- الفجر الجديد :

5- المعهد و" المدينة الجديدة" بوهران:

6- العودة إلى المغرب:

1-زيارتُه الأولى لأرض الوطن:

ازدادَت مَعرفتُه أكثر بوطنه الذي كان متشوِّقاً لرؤيتِه عندما أُتيحَت له فرصةَ دخولِه ولأَوَّل مرَّة في العام الذي أنتَقَل فيه إلى القسم النهائي لنيل شهادة البكالوريا.

حَصل على رُخصة المرور «Laisser passer » من القنصلية. لم يكُن بحوزته آنذاك جوازَ سَفرٍ. كانت هذه الرُّخصة وحدَها كافيةً للدخول إلى أرض الوطن.

ركب القطارَ من المحطَّة التي نَزل فيها يومَ انتقالِه إلى المدينة. إنَّهُ القطار الذي كان يَنْقُل الجزائريّين وغير الجزائريين ذهاباً وإياباً مِن وإلى الجزائر.

رجالُ الجمارك في مَحطَّة القطار يراقبون وثائقَ وأمتعةَ المسافرين، شَعَرَ برَهبةٍ وهو يُقَدِّمُ حقيبتَه الصغيرة إلى الجمركي ورخصةَ المرور إلى شرطي الحدود. حَمْلَقَ هذا الأخير في صورته وتَفَحَّصَ وَجْهَهُ الأَسمَر النَّحيف قبل أن يُؤَشِّرَ على الورقة التي تحمل صورته واسمَه بخَتمٍ دائِري من حديد.

يحمد الله أنَّ كُلَّ الإجراءات تَمَّت بسرعة. تَوَجَّهَ بعدَها إلى إحدى عَربات القطارِ التي سَتنقله هذه المرة شرقاً نحو وِجهة لا يعرف عنها شيئا سوى أنَّها ستُمَكِّنه من معرفة عالمٍ جديدٍ كان دوماً يحلم بأرضِه وناسِه.

ينطلق القطارُ إلى منطقة الحدود ليصلَها بعد مُدة غير طويلة لم تَتَعَدَّ بِضْعَ عشرات من الدقائق. المحطةُ خاليةً من البناءات سوى التي بُنِيَت لتُكَونَ مَكَاتباً لرجال الجمارك وشرطة الحدود.

سُمي هذا المكان بـ»زوج بغال»، وسِرُّ هذه التَّسمية الغَريبة يُرجِعُها البعضُ إلى أنَّه قديماً كان صاحِبا بَغْلَيْنِ يَحملان البريدَ بين الجهة الشرقية والغربية ويتبادلانه في هذا المكان. وهناك من يَرجع تَسْمِيَةَ المكانِ إلى أنَّ حكيماً أراد أن يصلحَ في خلافٍ حول حُدودِ قِطعةِ أرضٍ تَحرثها قبيلتان تَسكنان المنطقة هما بني واسِّين في الشرق وقبيلة أخرى في وجدة، فاقترح عليهم أن ينطلِقَ كلُّ واحدٍ من القبيلتين على ظهر بَغْلٍ في اتجاه الآخر، وحيثُما يلتقي البغلان فتِلك هي الحدودُ الفاصلة بينهما.

يَنزل كل المسافرين من عربات القطار ويتوجَّهون إلى تلك البناية حيث يتم مراقبة هُوية الدَّاخلين وأمتعتهم. هذه العملية كانت عاديةً روتينية لأولئك الذين يقومون بها يوميا سواء بالنسبة للدَّاخلين أو الخارجين من أرض الجزائر.

يشعر صاحبُنا ببعض الهيبَةِ والوَقار وهو يرى ملابسَ هؤلاء تختلف تماما عن ملابس رجال الأمن والجمارك للبلد الذي جاء منه.

ينتظر مراقبُ المحطَّة عودةَ آخر مسافرٍ لعربات القطار ليطلق صفَّارتَه إيذاناً له بالانطلاق من جديد.

تتحرَّك عرباتُ القطارُ ببطءٍ وعجلاتُها تَحْتَكُّ بقُضبان السكَّة الحديدية مُحدِثةً ذلك الصوت الذي تَعَوَّد عليه وهو قاصدٌ قريةَ أهل أمه هناك في ذلك السهل المنبسط بقرية «النْعيْمة». كان شارد الذهن هَذه المرَّة وهو يدخل أرضاً جديدةً يَجهلُ عنها كُلَّ شيء. يتساءل في قرارةِ نفسِه عن ناسه وأرضه وطبائعهم وحديثهم ونَمط معيشتهم . لا شك أنَّ هناك اختلافٌ كبيرٌ بين العالمين، عالمٌ عاشَه بكل جوارحه وذكرياته وعالمٌ جديد يتطلَّع فيه إلى ما هو أحسنُ وأفضلُ من واقعه.

يصل القطار محَطَّةَ مدينة «مغنية» بعد لحظات معدودات. هي الأخرى لا تبعد عن نقطة الحدود إلا ببعض الكيلومترات. راحَ يَتفَحَّص الصَّاعدين إلى العربات ويُحَملق في وجوههم. لم يجد فرقاً بينهم وبين الناس الذين عاشرَهم.

ينطلق القطار من جديد نحو تلمسان، ماراً بعدة محطات يتوقف فيها لبضع الدقائق. ينزل من عرباته البعض أو يصعد آخرون وهو دَوْماً ينظر إلى هذه المشاهد وهي تتَكرَّرُ في كل محطة .

كان القطار الذي يركبه من وإلى قرية «النْعيمة» لا يتوقَّف إلا في محطة واحدة لا غير. محطة «بني وكيل". أما في ذلك اليوم فقد تعَدَّدت المحطات وتعدَّدت معها المناظر الطبيعية.

أُبْهِرَ بالمنعرجات التي مرَّ بها القطار وهو يتوجَّه بعرباته نحو مرتفعاتِ تلمسان الغربية، محطَّاتٌ يقرأ أسماءَها ولا يعرف عنها

شيئا: سيدي مجاهد، صَبرة، وادي الزيتون، زلبون، عين الدوز، ومن كل هذه المَحَطّات: تلمسان.

تأكَّد اليومَ من جمال بلاده التي لا يُضاهيها جمال في العالم الذي يعرفه. منازل متناثرة هناك وهناك وكأنَّها مُعَلَّقة بين الجبال والأودية والشِّعاب العديدة. لم تَتعوَّد عيناه على هذه المناظر السَّاحرة الخلاَّبة. يلتفِتُ يميناً ويساراً من نوافذ القطار ويتمتَّعُ بكل ما تقع عيناه عليه...كم كان مُنبَهِراً بمثل هذه المناظر التي أوتي اليومَ حَظا أن يشاهدَها ونفسُه تَوَّاقة إلى مشاهدة المزيد.

يصل القطار أخيراً إلى محطة تلمسان، فينزل مُتَّجِهاً نحو باب الخروج.

هو يجهل كلَّ شيءٍ عن هذه المدينة التي قرأ عنها الكثير في الكتب التي طالعها. لم يكن خائفاً أن يَتُوهَ هذه المرة؛ فقد تعَوَّد على جَو المدينة، فلم يَعُد ذلك البَدوي الذي ينزل المدينة لأول مرة. لقد كان يعتقد بأنَّه أَخْرجَ نفسَه من البداوة وأدخلها حياة التَّحَضُّر والمدَنِيَّة مثلُه مثل جميع البشر المتَعلِّمين.

لم يرهب أو يخاف هذه المرة وهو يقترب من أحد المسافرين مثلَه ويسأله:

- من أين أذهب إلى سيدي بومدين، «الله يْخَلِّيكْ"؟

رَدَّ عليه ذلك المسافر قائلاً:

- من هنا يا بُني، توجَّهْ مباشرةً من هذا الشارع ثم دُرْ على يَدك اليُسرى، وواصل سيرَكَ بعد أن تسألَ الناسَ حتى تَصِلَ إلى وِجْهَتِكَ.

كانت ابنة عمته تسكن إحدى عمارات تلمسان بمحاذاة الطريق المؤدي إلى هضبة **"سيدي بومدن الغوث"**. تَعَرَّف على أبنائها عن طريق المراسلة، الوسيلة الوحيدة آنذاك للتواصل بين الناس.

عندما قَرَّر الدخول إلى بلده، راسَلهم، وشرحوا له كيف يَتَمَكَّن من الوصول إلى منزلهم. لم يكن آنذاك لا هاتف نقال أو هاتف مثبت في المنازل حتى يخبرهم بوصوله.

يتمكَّن من الوصول إلى العمارة، بسهولة لم يُصَدِّقها حتى هو نفسه. يسأل صِبْيَةً وجدَهم يلعبون أمام باب العمارة :

- هل تعرفون عائلة «سي مصطفى» وابنه "فلان"؟؟ (لا يتذَكَّر اسمه اليوم).

يشيرون له بأصابعهم ويُرَدِّدُون جماعةً :

- ذلك الطابق، ومنزلهم على يدك اليُسرى.

يصعد سُلَّم العمارة ... يدق البابَ ويسمع صوت امرأةٍ خَلفه تقول:

- "شكووووون "؟

يُجيبها، فتخرج ابنة عمته... تفتح له الباب وترحب به وتحتضنه:

- مرحبا بابننا «الميلود"... نحن ننتظر وصولَك اليوم كما ذكرتَ لنا في الرسالة.

جلس على أحد الأرائك المصنوعة من الخشب، وجاء كُلُّ مَن في الدار يسلمون ويرحبون به. صار الكُل يسأله عن أحواله ودراسته وأهله.. وعن ظروف السفر. كان يجيبهم باختصار لكونه لم يتعود بعد عن كل الكلمات الجديدة التي يسمعها لأول مرة. كان مخاطبوه ينطقون حرف «القاف «ألفا.. يتعجب لذلك، ويقول في قرارة نفسه:

- كيف صار القطارُ، «إطاراً»، وكيفَ تَحَوَّلَ الطريقُ "طَريئاً"، والقهوة "أهْوَةً"....؟

كان فرحاً بأَن يلتقي بهؤلاء الأفراد من أسرته بعد أن غَيَّبَهُم عليه القدر.

لم يَتمكَّن الفتى في هذه الزيارة الخاطفة، أنَ يَتَجَوَّل بالمدينة العريقة تلمسان، ويتعَرَّف على معالمها الكثيرة، واكتفى يومَها بزيارة الولي الصالح «سيدي بومدين» حارس المدينة.

أُعجب بالهندسة المعمارية لمسجد أبي مدين [1]. هو يشبه جميع المساجد الإسلامية التي شَيَّدها المسلمون قبل أن تلطخ أرجل الاستعمار قُدسية الأماكن الدينية.

سافر في اليوم الموالي إلى مدينة عين تموشنت أين يسكن أخوه المجاهد. تَوجَّه إليها هذه المرة عن طريق سيارة أجرة.

في طريقه إليها، أُبهِر مرَّة أخرى بالحقول المزروعة بالكروم. كُلما ألقى نَظَرُه من يمين وشمال نافذة السيارة إلاَّ وتَراءَت له هذه الحقول وكأنها بِساطٌ أخضر مُدَّ على الأرض مداً. لا مَجال للمقارنة بينها وبين الأراضي التي أَلِفَها في حياته من قبل.

وهو في الطريق، أندَهشَ للعدد الهائل للسَّيارات والشاحنات وهي تسيرُ في اتجاهين معاكسين. الفرقُ شاسعٌ بين العدد الذي يُشاهده اليوم والعدد الذي تَعَوَّدَ عليه فيما وراء الحدود. كُلما تقدموا في السير إلا وازدادَ هذا الاكتظاظُ وتتغير معه ملامحُ المظاهر الطبيعية والعمرانية. بِساطٌ أخضر من الأراضي الفلاحية الخصبة المزروعة بشتى أنواع الأشجار وكروم العنب وبقايا محاصيل الحبوب بعد حصادها. قُرى ومدن وضيعات تَدُلُّ كلها أنَّ الحياةَ هنا أفضل بكثير عن تلك الربوع التي تتواجد فيها أسرته.

---

[1] - بني مسجد سيدي بومدين (1126- 1198) و هو أحد أحد أقطاب المشايخ الصوفية وعلماء تلمسان من طرف المرينيين في القرن 14 الميلادي.

قبل أن يصل إلى مكان وِجهته، توقَّفت السيارة في إحدى المدن التي مَرُّوا بها عند محلٍّ لبيع المأكولات السريعة. نزل المسافرون لتناوُل فُنجان قهوةٍ وأكلُ "سَنْدويش" من الخبز المَحْشو باللحم المفروم أو بالجبن أو بالبيض المسلوق. طلب كأسَ شايٍ يشربه كالعادة، غيرَ أنَّ صاحبَ المَحَلِّ رَدَّ عليه بالسَّلب، وتَأَسَّف بأن لا شايَ عندهم سوى القهوة بالحليب أو بدونها. اكتفى بتناول زجاجة من الصودا الباردة، وراح يَختلس النظرَ في وجوه الناس لَعَلَّه يقرأ من خلال ملامحهم أَوْجُهَ الشَّبه والاختلاف بينهم وبين الذين ألفهم في حياته. لم يجد شيئا يُجيب عن فضوله بعد أن ناداه صاحب السيارة للالتحاق بمكانه.

ها هي السيارة تنطلق من جديد. بدأ ركَّابها هذه المرة يتحَدَّثون مع بعضهم البعض، وكأنَّ ما شربوه أو أكَلوه فَتَح لديهم شهية الحديث والدردشة. انقطع ذلك الصَّمتُ الرهيبُ الذي خُيم عليهم منذ أن غادروا المدينة. بدأ أحدهم يَروي قصَّتَه وهو يبحث عن أوراق هُوية لإتمام إجراءات التسجيل في الحالة المدنية. يتعَجَّب من هذه القصة وغيرها من القصص الأخرى. كان يستمع إليهم دون إن يَنبُسَ ببِنْتِ شَفَةٍ . تُرى هل قصة هؤلاء تُشبه قصَّةَ أفراد عائلته المغتربة هناك في المغرب؟

2-تموشنت:

أخيراً تصل به السيارة إلى مدينة تموشنت ، تراءَت له من بعيد كالعَروس مُتربِّعةً على مساحة من الأراضي المنبسطة تحيط بها

حقول الكروم من كل جانب .

نزل من السيارة وتوجَّه مباشرة إلى ثكنة الدرك الوطني الكبيرة أين يسكن أخوه و يعمل. بعد أدائه الواجب وجهاده المستميت ضد الاستعمار، قرر الانتماءَ إلى مؤسسة الدرك الوطني للمساهمة مرَّة أخرى في حفظ الأمن ببلاده. ثكنة عسكرية تتربع على مساحة كبيرة ضمت مكاتب الإدارة و عمارة خُصِّصت سكناتها إلى العاملين بها. توجد هذه البناية الضخمة غير بعيدة عن قُبَّة "سيدي سعيد" حارس المدينة ووليّها الصالح.

بعدَ أن أذِنَ له حارس الثَّكنة بالدُّخول و دَلَّهُ على سَكن أخيه بالعمارة، توجَّه مُباشرةً إلى المنزل ودَقَّ بابَه. سألتْه زوجة أخيه قبل أن تفتَح وتُدخِلَه الدَّارَ بعد أن قال لها اسمَه. هي تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أفراد الأسرة وأسمائهم. لا شَكَّ أنَّ أخاه حَدَّثها عن ذلك وبتفصيل. لقد تزوَّجَها أخوهُ ولم يحضر واحدٌ من أفرادِ العائلة عُرسَه أو زارَه احدٌ منهم يوماً قبل مجيئه.

أبناء أخيه الصغار يلعبون فيما بينهم. توقَّفُوا عن اللعب وهم ينظرون إليه بعَجَبٍ. من يَكون هذا الزائرُ الجديد؟

احتضنَهم بين يَديه بعد أن أخذَ كُلَّ واحدٍ منهم وسَلَّم عليه. فَرِحوا بالحلويات التي أخرجَها من حقيبتِه وسَلَّمَها إلى زوْجة أخيه وهو فرِحٌ فَرحاً لا يُصَدّقُ بهذا اليوم السَّعيد الذي عرف فيه أبناءَ أخيه وزوجته بعد أن غَيَّبهم عليه القدر.

لم تَمُر إلا سُويْعات قليلة ودخل أخوه الدار. يأخذه بالأَحضان ويُعانقُه عِناقَ المُتَشَوِّقين إلى أهله وإخوتِه في أرضِ المهجر.

هذا اليوم، يا ابنَ أبي، هو أسعد يوم في حياتي...إنَّه يومٌ مباركٌ سعيد... أن أراكَ بينَنا.. حَلَلْتَ أهلاً ونَزَلْتَ سَهْلاً...ثم يعيد احْتِضانَه والدموعُ تكاد تَنهَمر من عينيْه.

راح يسألُه عن كل صغيرة وكبيرة. عن أحوال العائلة وعن السفر... وكيف وَجد البلادَ وأهلها؟... كادا يَنسيان أنفسهما وهما

يتبادلان أطراف الحديث، لولا أنَّ زوجَة أخيه نادتهما إلى مائدة الغذاء.

مَكَّنَهُ تواجُدَهُ في ذلك الصيف بعين تموشنت من الاسْتِئْناس بأهلِها، ومَهَّدَ له الطريقَ أن يُفَكِّرَ بِجِدٍّ ليتخَلَّص نهائيا من الغُربة ويدخل ارضَ الوطن.

قال لأخيه ذات ليلة وهما ساهران يتبادلان أطرافَ الحديث:

- في السنة القادمة إن شاء الله، سأكونُ بينكُم إن نِلْتُ شهادةَ البكالوريا، حيث أَنْوي الالتحاقَ بدار المعلمين.

أجابه قائلا:

- نِعْمَ الرأيُ، حتى إذا ما نَجحتَ في تكوينك وصارت لك وظيفة، سنعملُ قصارى جُهدنا لتَتمكَّن عائلتُنا من أن يجتمع شملُها ويدخل الجميع أرضَ الوطن.

3- شهادة الباكالوريا

كانت تلك الزيارة بمثابة طريقٍ وآفاقٍ مَكَّنَتْه من مضاعفة جهوده لنيل شهادة البكالوريا. عندما رجع إلى مقاعد الدراسة أحَسَّ وكأنَّه إنسان وُلِدَ من جديد. أصبح حديثُه لا ينقطع عن ما شاهده أثناء زيارته لأرض الوطن. صار يحكي لزملائِه وخاصة الجزائريين منهم كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ. يحكي لهم عن تلك الحقول الخضراء المزروعة بالكروم وعن الشَّوارع والعمارات، وعن نَمَطِ الحياة هناك وكأنَّك في مُدن وقرى أوروبية. لقد ترك الاستعمار كلَّ شيءٍ يدل

على تواجُدِه في البلاد، حتى الناس في هذه المدن يتكلم أغلبهم الفرنسية وبطلاقة وبِيُسرٍ لم يَعْهدها من قبلُ بين أهل المدينة الذين عاشرهم في شبابه.

قال لنفسه وهو يُحَدِّثها: عَلَيَّ أن أنجحَ هذه السنة حتى أتَمَكَّن من أن أكونَ منهم، سأعيش عيشتَهم وسأتمتَّع بما هم فيه من رَغَدِ الحياة، وتنتهي بذلك حياة الهجرة ومعاناتها.

بالرَّغم من كثافة البرنامج الدراسي الذي كان يَدْرسه وهو في قسم البكالوريا، لم يَثبِط ذلك في بَذْلِ كلِّ جهودِه ليَستَوعبَ مُقررات الشعبة الأدبية المزوجة اللغة التي ينتمي. كانت هذه الشعبة تشمُلُ المواد التالية: الأدب العربي والفكر الإسلامي والعلوم الشرعية، يدرسونها باللغة العربية. وبقية المواد مثل الرياضيات والتاريخ والجغرافية والفلسفة، كانوا يدرسونها باللغة الفرنسية، إضافة إلى مادتي اللغة الفرنسية والإنجليزية طبعا.

كان نظامُ التعليم بالمغرب آنذاك يشمل الطور الابتدائي ب6 سنوات، والتعليم الإعدادي ب3 سنوات بعد قسم الملاحظة. يجتاز المتعلم في نهاية هذا الطور شهادة التعليم الإعدادي، ثم ينتقل بعد النجاح إلى التعليم الثانوي الذي يبدأ بالسنة الرابعة ثم الخامسة والسادسة التي تُتَوَّج بشهادة البكالوريا.

يتذكَّر إلى اليوم مختلف المواد التي امْتَحنوا فيها، شَمِلَت كلاًّ من مادة الأدب العربي والفكر الإسلامي والفلسفة والعلوم

الشرعية والتاريخ والجغرافيا والرياضيات واللغة الفرنسية والانجليزية.

بعد الانتهاء من الامتحانات الكتابية، كان عليهم أن يجتازوا الامتحانات الشفهية في كل من العلوم الإسلامية والفرنسية والإنجليزية ليُثْبِتوا أنَّهم قادرين على حل مسائل فقهية في الميراث وأنهم يُتْقِنُون التَّحَدُّثَ باللغة الفرنسية والإنجليزية.

وبالرغم من صُعوبة المهمة تَمَكَّن من تجاوز صعوبة التَّعَلُّم باللغة الفرنسية التي لم يَتَعَلَّمْها إلا بَعْدَ جُهْدٍ جَهيدٍ. يرجع الفضل إلى أستاذ اللغة الفرنسية الذي ساعَده كثيرا لتجاوز سوء الفهم فيها وكتابة المقالات الأدبية المطالبين بها.

يتذكَّرُ فَضْلَ هذا الأستاذ الذي دَرَّسَهم لمدة ثلاث سنوات متتالية. لقد كان في المغرب في إطار الخدمة المدنية الفرنسية وباتِّفاق بين المغرب وفرنسا. لم يكن هذا الفرنسي الباريسي المتخرج من جامعة "السوربون" يُشبه بَقيَّة الأساتذة الأجانب أو من أبناء البلاد. يَتَقَرَّب كثيراً من التلاميذ ويُصاحبهم ويُرافقهم في حياتهم العادية والخاصة. يَصوم رمضان مثلَهم ويَذبح أضحية عيد الأضحى وكأنَّه مسلمٌ مثلهم، بالرغم انه كان مسيحيا يذهب إلى الكنيسة كل يوم أحد.

يتذكر عنه كل شيء، ولم ينسَ أنه طلب منه في نهاية ذلك العام الدراسي وهو ينهي السنة الخامسة وينتقل إلى القسم النهائي،

بأن يبقى في منزله يَحْرُسُه ويُقيم فيه طوال العطلة الصيفية. أذْهلَته الفكرة وأعجَبته خاصة بعد أن أوْجَدَ له عملاً في ضَيعةٍ لتربية الخيول والأبقار كان يديرُها أحدُ أصدقائه الفرنسيين.

وجدَ ضالَّتَه في ذلك الصيف وراح يلتهم الرِّوايات الفرنسية لأكبر الأدَباء أمثال «بالزاك» و«تولستوي»

و«ستاندال» ومسرحيات «موليير» وقصائد «فولتير» و«بودلير» ويوميات «جان جاك روسو» وغيرهم. كانت مكتبتُه عامِرةً بشتى الكُتب والمعاجم اللغوية والمجلات والدوريات التي كانت تصله عن طريق البريد.

بعد قضاء عطلة مثالية في ذلك الصيف، وافتتَحت آخر سنة دراسية قضاها في المغرب، صَبَّ كلَّ اهتماماته وانشغالاته في التَّحضير الجَيد لامتحان البكالوريا واجتيازه في ظروف عادية. إنَّه أملُه الوحيد في التخَلص من الغُربة والدخول نهائيا إلى أرض الوطن وتحقيق آماله وإيجاد وظيفة له تُمَكِّنه من العيش في أرض وطنه.

لم يُخَيِّب ظنَّه في نفسه بفضل إرادته وعزيمته وتضحيته ومثابرته، ولم يُخَيِّب ظَنَّ أمِّه التي كانت تدعو له دوماً، كما لم يُخَيِّبْ ظَنَّ أستاذه للغة الفرنسية وجميع أساتذته وأهله وإخوانه، ويُـوَفَّقُ في نهاية السنة الدراسية 1970-1971 بنيل شهادة البكالوريا.

يَتَذكَّر ذلك اليوم الذي تَلقى فيه خبرَ نجاحِه من طَرف ذلك الأستاذ الذي رَعاه وساعدَه. كان أسْعَدَ يوم في حياته.

4-الفجر الجديد:

بهذا النَّجاح بَزَغَ له الفجر الجديد وتَفَتَّحت أمامَه الآفاق الواسعة. خرج من عهدٍ ودخل آخرَ لم يَعْهَدْهُ في حياته. لقد صدق السيد القنصل: ها هي الأبواب تُفتح أمامه بالضبط كما قالها لهم يوماً. أَوفَى بعَهده ويَسَّرَ لَه ولمجموعة أخرى من أصدقائه كلَّ السُّبل للدخول إلى الجزائر . منح لهم جواز سفر مجاناً وأوصَاهم الالتحاقَ بالمعهد التكنولوجي للتربية بوهران ليصبحوا أساتذة للتعليم المتوسط في بلادهم.

بمجرد أن انتهى صيفُ ذلك العام الذي نال فيه شهادة البكالوريا، حتى بَدأ يُرتِّب نفسَه للدخول إلى أرض الوطن. وهذه المرة ليستقِرَّ فيه و يكون حياته. صار يُعِدُّ الأيامَ المتبقِّية لذلك وكُلُّه لهفة ليرى أحلامَه تَتَحقَّق على أرض الواقع. أحلامُ شابٍ أَظْنَتْهُ مَرارةَ الغُربة. يَتشوَّق ليَتمتَّعَ بدِفْءِ الوطن. ليس هناك مَن يعرف مَعنى للوطن سوى الذي قاسى مرارة الغُربة والبُعد عنه . وليس هناك مَن يعرف حُباً له سوى الذي لم يَتَرَبَّ في أحضانه، ويَرتَوِىَ من مائِه وَيَشُمَّ ترابَ أرضه الطيبة.

جَمع حوائجَه ومنها وثائقه هذه المرة لوحده وغادر"برقنت» عبر تلك الحافلة التي نقلته إلى وجدة ليبيتَ ليلةً واحدةً فيها. لم

يُرافِقْه هذه المرة أبوه كما فعل من قبل عندما انتقل إلى المدينة. لقد صار اليوم رجلاً يعتمد على نفسه في كل صغيرة وكبيرة.

دخل إلى الجزائر هذه المَرَّة عبر الحدود البرية ومَرَّت كل الإجراءات الجمركية في ظروف عادية. أخذَ مكاناً له في سيارة أجرة كانت متوجِّهة إلى وهران مع جماعة من المسافرين. سارت به هذه السيارة نحو تحقيق أحلامه.

قطع كلَّ الطريق هذه المرة وهو يَتصوَّر كيف تَكون حياتُه الجديدة؟ كيف يُتِمُّ دراستَه في دار المعلمين؟ ومتى يَتَخَرَّجُ منها ليصيرَ مُعلِّما كما كانت أمُّه تدعو له؟ «تَـقْـرَى وتْقَـرِّي يا وْليدي...اللّه يَفْتَـحْ لَكْ أبوابَ الجنة».

لا يدري كم ساعة قطعتها السيارة؟ كل ما يتذكره أنه استفاقَ لنفسه وهو يُحدِّثها طول المسافة، حتى وصلت بهم السيارة إلى تلك المنعرجات القصيرة التي تُطل على مدينة وهران من ناحية "ميسرغين»[1]. رآها وهي تتربَّع على مساحة شاسعة مُطِلَّةً على البحر ومياهِه الزرقاء التي تضيف بلونها على لون البناءات والعمارات البيضاء وتجعل منها منظراً يَخْلُب الأنظارَ ويُبْهِرُ الأَعْيُن. يزْداد هذا المنظر بهاءً عندما تُلقي بنَظَرِكَ ذات اليسار وترى جبل "مَرْجاجو"

---

[1] - ميسرغين بلدية تابعة لدائرة "السانية" بولاية وهران /مشهورة بزيتونها وبرتقالها و موقعها الطبيعي الجميل.

وكنيسة "سانْتا كْروز" وقُبة الوَلي الصالح مولاي عبد القادر وهما

يَحرسان هذه **المدينة الجميلة**.[1].

[1]- يشرف **جبل مرجاجو** (Murdjajo) على مدينة وهران على إرتفاع 3.429 م عن سطح البحر وأصل تسميته مستوحى من الكلمة الإسبانية "مرجاجو»وتعني نبات "الدوم"الأكثر انتشارا بالجبل. شيد به الإسبان في القرن 16 م قلعة "سانتا كروز" وتحتها كنيسة العذراء.

تَتوقف السيارة في محطتها الأخيرة وينزل منها الجميع ليتوجَّه كلُّ واحدٍ إلى وِجهته. كان عليه أن يَركب الحافلة التي توصله إلى الحَي الذي أنتقل إليه أخوه المجاهد وسكن فيه بعد تَقَاعُدِه. يَتدافَع الناسُ وَهُم عُجَالَى لِرُكوب الحافلة. فَعلَ مثلَهم وجاهَدَ نفسَه لأَخْذِ مكانٍ له فيها. توقَّفت الحافلة في عدة محطات متتالية حتى وصَلت إلى المكان الذي يَقصده. سأل بعض الشباب الجالسين قرب عمارة وقرأ لهم الاسم المدوَّن في رسالة بريدية كان تلقَّاها من أخيه. لم تَكن بعيدةً عن المكان الذي كان مُتواجِداً فيه. صَعَدَ سلاليم تلك العمارة وبحث عن رقم 7.

عندما وجدَه دَقَّ البابَ حتى فُتح له. وَجد أخاه جالساً وزوجتُه يَحتَسيان شايَ المساء. رَحَّب به الجميع بعد أن تَفاجأوا بقدومه لوحده، وكيف تَمَكَّن من الوصول إلى مقر سكناهم بدون مرافقة. كانوا يسألونه عن أشياء كثيرة اكتفى بإجابتهم مُقتَضِباً بعد أن أخذ منه التَّعب مَأْخَذَه.

استَسْلَم في المساء لنَوْمٍ عميقٍ لم يَعْهَدْه من قبل، لا يدري إنْ كان ذلك بسبب تَعب السَّفر أو لسبب آخر، المُهم أنَّه لم يستيقظ في اليوم الموالي إلاَّ على صَيْحات أصحاب العَربات المجرورَة وهم ينادون لبيعِ ما لديهم من خضر وسمك. كان مُتَعَوِّداً على مثل هذه الصَّيحات وإن اختَلَفت بينها وبين الماضي الذي قضاه هناك في تلك المدينة في المهجر.

5-المعهد و"المدينة الجديدة" بوهران:

تناول فطورَ الصَّباح على عجلٍ وكأَنَّ شيئاً يدفعه للخروج. كان يَودُّ أن يلتحق بالمعهد للتسجيل حتى لا يفوته الوقتُ ويَخيبَ أملُه فيما جاء من أجله. إنَّها فرصة العمر التي انتظرَها طويلا، وكان عليه أن لا يُضَيِّعَها. تَوَكَّل على الله ونزل سلاليمَ العمارة مُتَوَجِّهاً مباشرة إلى موقف الحافلة التي توصِلُه إلى المعهد. لم يكن الأمر عليه بالهَيِّن أن يجدَ المكان المقصود بسهولة، ومع ذلك تَمكَّن في الأخير من الوصول إليه ولو بشَقِّ النَّفس.

دخل المعهدَ وتَوَجه مباشرة إلى مكتب خُصصَ لتسجيل الطَّلبة الأساتذة الجُدد. قَدَّم وثائقَه التي جمعها بعناية كبيرة حيث لم يترك منها واحدة. كان عليه أن يأخذَ كل الاحتياطات اللازمة حتى لا يَرجع بخُفَّيْ حُنَيْن. يحمد الله أن كلَّ ما طُلِبَ منه كان موجوداً لديه في محفظة كان يحملها.

أحس بسعادة كبيرة وهو يُغادر المعهد بعد أن أتَمَّ إجراءات التسجيل في لحظات معدودات. تَنَهَّدَ بعدَها الصُّعداء. الآن، أصبح طليقاً حُرًّا تَنْتابُه مشاعر الاعتزاز والافتخار. لهذا حَبَّذَ أن يَتَجول في المدينة ليكتَشفَ بعضَ أسرارها ومعالمها، كان متأكِّداً أنَّ ذلك لن يَتِمَّ في يومٍ واحدٍ، بل يَتَطلَّب وقتاً أكبَر لشَساعَتها وكثرةِ أحيائها وشوارِعها. لهذا قَرَّرَ يومَه أن يَعْبُرَ المدينة مشياً على الأقدام من مكان

تواجده بالمعهد قربَ وسطِها غيرَ بعيد عن مقر الولاية إلى غاية جَنوبِها أين توجَدُ العمارة التي يسكنها أخوه في حي "مارافال".

وأنت تَتجه من شارع مستغانم نحو المدينة الجديدة، تَسْتوقفُك محَطَّة القطار بساعتها الحائطية الكبيرة. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا.

عشرات المسافرين في ذهاب وإياب مِن وإلى المحطة التي تبدو هندستها المعمارية مثل أية هندسة أوروبية. بَهْو كبيرٌ مُغَطَّى يتوسط قضبان السكة الحديدية وعلى جوانبه اصطفت مكاتب بيع التذاكر للمسافرين. عرف من خلال لوحة التوجيه أن اتِّجاهات القطارات هي نحو الجزائر العاصمة ونحو سيدي بلعباس ومنه إلى تلمسان، وخط ثانوي نحو عين تموشنت. تَذكر محطة القطار لمدينة "وجدة»حيث الاتجاه منها نحو ثلاث اتجاهات، الأول نحو الغرب والثاني نحو الجنوب وثالث نحو الجزائر. قَرَّر بأن يعود إلى المغرب بعد سفريتِه المبروكة من هذه المحطة حتى يَتمتع بمشاهد أخرى.

خرج من المحطة بعد أن أخذ قسطاً من الراحة على إحدى الأرائكِ الموجودة في بَهوها. كانت وِجهتُه هذه المرة نحو "المدينة الجديدة» أين يَكثر الناسُ ويَعلو ضجيجُهم وَسَطَ صراخ الباعة المتجَولين. تَذكَّر السَّاحة العمومية لباب سيدي عبد الوهاب و"الجوطية" والحافلات و"الطاكسيات الصغيرة". الفرق شاسع بين هاته وتلك من حيث الناس وملابسهم واهتماماتهم، ومن حيث

السِّلع المعروضة للبيع والشراء. مقاهي المدينة الجديدة لوهران لا تختلف عن مثيلاتها من حيث مُكَبرات الصَّوت التي تَنبعث منها الأغاني الشعبية. رُبَّما الفرقُ موجودٌ في نوع المشروبات التي يتناولها رُوَّاد المقاهي. هنا يَكثر الطلب على احتساء فناجين القهوة بينما هناك يُحبذ الناس شُربَ الشاي بالنعناع أوب»الشْهيبَة» ذات الرائحة العجيبة.

توغَّل داخل «المدينة الجديدة» عبْرَ أزقَّتها شبه الضيقة إلى غاية سوقها للخضر والفواكه واللحوم. اشترى عِنباً أعجبه بمنظره وبحبَّاته الذهبية ومَذاقه الحُلو، وتَوجَّه لِتَوِّهِه نحو الحَيِّ الذي يَسكنه أخوه. ظنَّ في البداية أنَّ قَطْعَ المسافةَ بين المعهد وحي "مارافال» لا تتطلب منه إلا عشرات الدقائق، فإذا به يَجد نفسَه مُحرَجاً كيف يصل إلى مقر سُكنى أخيه ليتناول معهم طعام الغذاء. لا شك أنَّهم في حَيرة من أمرِه ورُبَّما يظنون أنه تاهَ في هذه المدينة الكبيرة.

أسرع في مشيته وهو يسأل المارَّة كل مرة حتى لا يتيه عن الاتجاه الصحيح. وأخيراً وَصل إلى العمارة وصعد سلاليمها بشَقِّ نَفسٍه بعد أن خارَت قواهُ عَيَاءً. دَقَّ البابَ وفَتَحَهُ عليه أخوه وهو يسأله:

- أخيرا، ها أنت، لقد ظَنَنَّا أنَّكَ تهتَ في المدينة ولن تستطيع الاهتداء إلى مكان المنزل.

-أجابه قائلا: بلى، لقد حَبَّذْتُ أن أَجيءَ ماشياً على الأقدامِ حتى أتَعَرَّف على المدينة.

- وماذا عن التسجيل في المعهد؟ أَقَبِلوا طلبَك؟

- نعم والحمد الله، لقد يَسَّروا لي جميع الأمور، وكُلُّ وثائقي كانت تَامَّة غيرَ مَنقوصةٍ، لم يَبَقَ الآن إلا الرجوع إلى المغرب لتحضير نفسي للدخول إلى التربص بعد 15 يوما من الآن.

6-العودة إلى المغرب:

في اليوم الموالي، عاد قافلاً إلى أسرته هناك بعيداً في تلك الجهة الشرقية من المغرب. بَدَت له وهو يستعدُّ للرَّجوعِ أنها توجد في أقصى الدنيا، ومع ذلك كان لابد أن يُطمئن أمَّه وإخوته عن ذلك النور البازغ الذي لاحَ على حياته الجديدة. ستَفْرِح أمَّه كثيرا وهي التي كانت تدعو له دوما وتُرَدِّدُ عباراته الخالدة:»تَقْرَأ وتْقَرِّي يا وْليدي، الله يفْتَح لك أبوابَ الجنة".

لقد تَحَقَّقَت أمنيتُها أخيرا وتَحَقَّقت معها كل آمالِه التي كان يَحلُم بها منذ أمَدٍ بعيدٍ.

قبل الرجوع، اشترى بدراهم أعطاها له أخوه بعض الهدايا من ملابس أعجبته وأحذية نسوية ووضعها في حقيبة اقتناها من سوق المدينة الجديدة. توجَّه مباشرة لمحطة القطار التي زارها بالأمس وأخذَ مكانا له في القطار المتَوجه إلى المغرب عبر سيدي بلعباس وتلمسان ومغنية. كان قد قرر بالأمس أن يُغيِّر الاتجاهَ مُحَبِّذاً هذه المرة القطارَ لما فيه من مزايا، حيث يمكنك أن تتجوَّل عبر نوافذِ عرباته عدَّةَ مَناطق يَمُرُّ بها دون أن تَطأَها برجليك.

عندما وصل إلى المحطة كانت هذه الأخيرة تَعُجُّ بالمسافرين. طوابيرٌ لا تنتهي من الناس الذين يريدون أخْذَ تذاكرهم. اصْطَفَّ مع المتوجهين إلى الوِجهة التي سيقصدها. يشتري تذكرتَه بعدَ مدة ويَتَّجه نحو الباب الذي يُدْخِلُه إلى إحدَى عرباتِ قطارٍ رابضٍ من القطارات المتوقِّفة في بهو كبير مُغطى تَنتظر مواعِيدَ إقلاعِها. كان عليه إن يسأل أيَّ قطار يركبُه حتى لا يخطئَ في اتجاهه ويجد نفسَه متوجِّهاً إلى وِجْهَةٍ أخرى غير وِجْهَته.

رغم طول الوقت الذي استغرقَه القطار في هذه الرحلة، فقد استمتع بعدة مناظر طبيعية خلاَّبة طولَ المسافة التي قطعها.

كم أعجَبَتْه منطقة "الوْريط"[1] في ضواحي تلمسان وجسره المُعَلَّق فوق شَلاَّلات تَتَدَفَّقُ منها المياهُ البيضاء وتَرْتَطِمُ فوق الصخور... جَنَّة اللهِ فوق أرضه مُعَلَّقة بين جبال تلمسان وسفوحها المطلة على بساط أخضر من غابات الصنوبر وأشجار أخرى لم يَتمكن من معرفة أنواعها. تَأكَّد بأُم عَيْنيه من جمال بلاده وكم هي خلابة طبيعتُها. ازدادَ يَقيناً بما تزخر به الجزائر من خَيرات طبيعية حَباها الله بها هذا البلد الذي تكالب عليه الاستعمار منذ القديم.

---

[1]- من أجمل المناطق الطبيعية السياحية بولاية تلمسان، شلالات «الوريط» التي لا تبعد عن المدينة إلا ب7 كيلومترات إلى شرقها. يستطيع الزائر من الوقوف عند شلالاته المشهورة إذا سلك الطريق الوطني الرابط بين مدينتي بلعباس وتلمسان.

يصل القطار إلى محطته الأخيرة بوجدة بعد أن أسْدَل ظلامُ الليل ستارَه على المدينة، ينزل المسافرون ويتوجهون إلى مكاتب الجمارك المغربية لاستيفاء الإجراءات القانونية. كان المسافرون وقتَها يَمرُّون بنقطتين للجمارك، الأولى خَصَّتها الدولة الجزائرية في محطة القطار عند نقطة الحدود بالضبط، أما في المغرب فقد كانت الإجراءات تَتم في محطة القطار بالمدينة.

باتَ ليلتَه عند خاله الذي فَرح به بَعد أَنْ أخبره بقبوله كأستاذ متربص في معهد وهران. كيف لا يفرَح وابنُ أختِه الذي رعاه في دراسته قد تَمَكَّنَ أخيراً من تحقيق ما كان يَتمنَّاه. هو في داخل نفسه يَتأسَّف لكونه اختارَ العودة إلى الوطن وسوف تلحق به أمُّه وإخوتُه، وفي نفسِ الوقت يَتمنَّى لهم كل خير إذا تمكنوا من الاستقرار في بلادهم ووجدوا ضالتهم في مَعيشٍ أفضل مما كانوا عليه .

راح خاله يسأله عن كل صغيرة وكبيرة: عن أحوال الناس وعن الأماكن التي زارها. هو يتذكر زياراته للجزائر يوم كانت تَرْزَخ تحت نير الاستعمار، ويَتذكَّر معها كيف عَمل في إحدى الضَّيعات عند الكولون في مواسم قطف العنب. كان يَكره المستعمرين الفرنسيين ومعاملاتهم غير الإنسانية للعُمال؛ إذْ ما كان يهمهم – حسب قولِه - سوى تحقيق مصالحهم ولو تَطلَّب ذلك العمل من طلوع الفجر إلى غروبها.

لَمِسَ من خلال حديث خاله، أنَّه يَجهل التّغييرات التي عرفتها الجزائر بعد الاستقلال، وكيف أصبح الناس أحراراً يتمتَّعون بتلك الخيرات التي كانت بالأمس بيد المستعمرين. حاول أن يوضِّح له الصورة الجديدة التي أصبحت عليها البلاد بفضل المجهودات المبذولة في استرجاع ما كان بالأمس بيدِ المستعمِر بعد أن تمَّ توزيعها على المواطنين. لقد وُزِّعَت تلك الضَّيعات الزراعية على الفلاحين الجزائريين في مزارع أصبحت مُسيَّرة ذاتياً، وسَكنَ الناس العمارات والمنازل التي كانت حِكْراً على الفرنسيين. لقد عاد كل شيء إلى أبناء الوطن وهم يحاولون اليومَ أن يقطعوا أشواطاً جديدة في مجال التنمية وتحقيق العدالة الاجتماعية.

كانت تلك الحافلة التي تعَوَّد ركوبَها للالتحاق بأسرته ب"برقنت" تنتظره في الصباح الباكر من اليوم الموالي. مُحَرِّكُها القديم يُحدِث أصواتاً غريبة مريبة، وكَراسيها البالية تَفوح منها روائح الفلاحين والموَّالين الذين اعتادوا الجلوسَ عليها. لم يكن بوُدِّهِ سوى مطالعة رواية تُنسيه عناء السفر وتبعد عن أذنه أصوات ذلك المحرك. تَعَوَّدَ فِعْل ذلك كُلَّما رَكِبَ هذه الحافلة إذْ يَجدُ نَفسَه غارقاً في عالم الروايات وأبطالها.

تذكر رواية "ابن الفقير» le fils du pauvre لمولود فرعون كان قد اشتراها من إحدى المكتبات بوهران. أخرجَها وراح يلتهم صفحاتها كما تلتهم عجلات الحافلة أَسْفَلْتَ الطريق. لا تَتَوقَّف

هذه العجلات عن الدَّوران إلا عند نزول أو هبوط أحد المسافرين. عندها كان يتَوقَّف عن القراءة ليعرف المكان الذي هُم فيه.

كان مُجبَراً هذه المرة لينزل بمكان قريب من تواجد أسرته ثم يقطع بقية المسافة مشياً على الأقدام. اليوم ليس موعد السوق الأسبوعي ليَلتقي فيه بأخيه ودراجته النارية، أضف إلى ذلك أنه لم يكن أخوه يعلم باليوم الذي يرجع فيه وإلاَّ لن يبخل على انتظاره والتخفيف عَلَيه عناء الطريق.

دَنَتِ الحافلة من المكان الذي ينزل فيه، وطلب من السائق بالتوقف. أخذ حقيبته المملوءة وأتجَه سيراً على الأقدام في طريق بَدت لا بداية لها ولا نهاية. وهو يمشي تُرَاوِدُ نفسَه أسئلة كثيرة لم يجدْ لها أجوبة تقنعه: لماذا قَذَفت بهم الأقْدار إلى هذه المنطقة الجَرداء؟ ولماذا أَلِفَتْ أسرتُه البقاءَ فيها؟ أهي مضطرَّة في ذلك بعد أن سُدَّت في وجهها أبواب العيش في مكان آخر؟ أم أنها اختارتها بمحض إرادتها؟

طمأَن نفسَه رغم هذه الأسئلة المُحرجة أنَّه يحمل مع أمتعته بشرى ستضع حَداً لهذه المعاناة التي طال أمَدُها. لا شَكَّ أنَّه يَحمل معه بدايةً لنهايةٍ قريبةٍ تُخَلِّصُهم مِمَّا كانوا فيه. سيَفْرَح أفراد أسرته بالبشرى التي يَحملها وسيكونون سُعداء بأن الصبر الذي تحمَّلوه في حياتهم سَيُتَوَّج بالفَرَجِ القريب.

عندما وصَل إلى الدار، كاد الجميعُ أن لا يصدقوا مجيئَه الفجائي. راحت أمه ترحب به وتعانقه وتَحْتَضِنُه بذراعيها. هي تفعل ذلك أكثر من عادتها وكأنَّه مازال طفلا صغيرا لكونها كانت تعتقدُ أنه عندما سافر هناك بعيدا إلى الجزائر ظَنَّت أنْ لا عودَةَ له بعد ذلك، وربّما لن يعودَ أبداً...

- أمَّاه...أَحَقّاً كُنتِ تُفَكِّرينَ في هذا واعْتَقَدْتِ أنَّ ابنَكِ سَيفَارقُك ولَن يعودَ ليرتميَ بين أحضانك؟

سالت دمعات من عينيه وهو يَتَذَكَّر تلك اللَّحظات الحَاسِمة في حياته. تَذَكَّرَ تلك الأيام... وتَذَكَّرَ أمَّه الحَاجة- الله يرحمها- التي غَيَّبَتْها الموتُ عنه إلى الأبَد... تَمَنىَّ أن يَقْرَأَ لها قليلا ما سَطَّرَه في هذه الذكريات. تَنَهَّدَ واستغفَر وتَرَحَّمَ على أُمِّه وطلب من الله أن يتغمَّدها برحمته الواسعة.

حكى لها ولإخوتِه مَنْ كانوا في الدَّار حول رحلته كلِّها، انطلاقاً من دخوله أرضَ الوطن إلى غاية رجوعه بالأمس، وكيف تَمَكَّن من قضاء كل مآربه وفي مدة قياسية.

هم لا يعرفون ما للوقت من أهمية في حياة الناس، ولا يُدركون أيضا أن الزَّمن الذي تمَّ تضييعه في هذه الأرض السعيدة لا يُعَوَّض بثمن. المهم أنَّ الجميع اقتَنَع بأنَّه قادمٌ على فعل شيء سَيُخَلِّصُهم من الوَضع الذي هم فيه.

حكى لهم عن الناس وأحوالهم في الوطن، عن الفرق الموجود هنا وهناك سواء في المظاهر الطبيعية للأراضي الفلاحية أوفي عمران المدن والقرى. أما عن مجالات العمل فهي أفضل هناك بكثير. الكل يمكنه أن يشتغل في أي حرفة يشاؤها، المهم أن يتمكَّن كيف يَتَكيَّف وعادات البلد في كل شيء، في الملبس والحديث والمعاملة، والأَهَمُّ أَنْ تَجِدَ سَكَناً يكون قريباً من المدينة حيث فُرَص العمل أَوْفَرُ.

كان إخوته يستمعون إليه وهم في شوقٍ لرؤية ما حكاه لهم بأنفسهم، وأن يصدقوا كل ما ذكره. قالت أمه وهي تمزح:

- "حتى يْزيدْ ونْسَمِّيهْ سْعيدْ".

وعندما رأته قد غضب من قولها، هَمَت قائلة:

- المهم أن تنجح في تربصك وتصير معلماً وتكون لك أجرة، عندها سنفكر في الرحيل. أبوكم – رحمة الله عليه – كان يتمنى أن تدخلوا أرضَ الوطن وأن تعيشوا هناك. المهم أن تحققوا أمنيته ويراكم مستوري الحال وهو في قبره.

06

وصار معلما...

1- دار المعلمين L'école normale d'instituteurs

2- حمام"ربي":

3- وهران وأسرارها:

4- أحاديث وتطلعات

5- مدرسة أشبال الثورة

1-دار المعلمين L’école normale d’instituteurs

يتساءل اليوم، لماذا أختار التعليم مِهنَة في حياته؟ هل اختارَه عِشقا وتَيَمُّناً لدَعواتِ أمه التي كانت دوما تدعو له: «تَـقْـرأَ وتْـقَـرِّي يَـا وْلـيدْي...اللهْ يَـفْـتَـحْ لَـكْ أبْوابْ الجَـنة"، أو اختارَه فقط من أجل الوظيفة لا غير؟

يسألُ نفسَه أيضا: لماذا لم يدخل إلى الجامعة ويواصل تعليمه ليصبحَ رجلَ قانونٍ أو إدارةٍ أو أيَّ وظيفة أخرى تُـدِرُّ عليه مـالاً وجاهاً عدا التعليم؟

لماذا لم يدخل معهدا من معاهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ليصير أستاذا جامعيا أو باحثا عالما أو كاتبا يؤلف في الأدب أو الفكر أو التراث أو التاريخ؟؟

لا يعرف الجواب على هذه الأسئلة، كل ما يعرفه أن الأقدار قادته ليدخل معهد المعلمين ليصيرَ أستاذا للتعليم المتوسط.

يومَها كان التكوين في المعاهد التكنولوجية للتربية يَدخله كل حاصل على الباكالوريا ليقضيَ سنةً واحدةً في التكوين، يتخرَّج بعدها ليصيرَ أستاذاً متربِّصاً مُؤَهَّلاً للتدريس مباشرة. أما إذا لم يكن يحمل هذه الشهادة، فيُطلَبُ منه استيفاءَ عدد السنين التي دُونَها (أي ثلاث سنوات) والمعهد هو الذي يتولى تكوينه أستاذا للتعليم المتوسط أو معلما في المدارس الابتدائية، ويدفع له أجرا شهريا مسبقا كطالب أستاذ أو معلم حسب الاختيار. هذا الأجر المسبق أغناه عن اللجوء إلى غيره لإتمام سنة التكوين حتى صار أستاذا للغة العربية والتاريخ والجغرافيا والعلوم الإسلامية مرة واحدة، وأصبحت له أجرة شهرية كاملة.

قضى العطلة الصيفية في المغرب قبل أن يلتحق بالمعهد التكنولوجي للتربية بوهران "سان شارل". يحسب الأيام بلياليها، وينتظر ذلك اليوم الذي يدخل فيه مرة أخرى أرضَ الوطن، ويكون من بين أفواج الطلبة الذين اختاروا مهنة التعليم وتربية الأجيال الصاعدة وظيفة لهم.

يوجد المعهد في أعلى وسط المدينة بين مقر الولاية ومحطة القطار. شارع مستغانم والعمارة الطويلة التي يسمونها "سيتي بيرى»Cite Peret غير بعيدين عنه.

كُتِبَ ومازال مكتوبا فوق الباب الرئيسي: دار المعلمين:

L'école normale d'instituteurs

استعدَّ نفسياُ لهذا الموعد واتَّصلَ ببعض أساتذته في وجدة ليعرف منهم: ما الذي يجب القيام به ليكون معلماً ناجحاً مُحِباً لمهنته؟.

عرف من خلالهم أنَّ وظيفةَ التعليم تَتطلَّب الإرادة والعزيمة ومعهما حُبّ هذه المهنة النّبيلة والإخلاص لها بتفانٍ وبكلّ ما أوتي من إخلاص وقوة وعلم وأخلاق.

إنها مهنة رسالة ينبغي أن يؤديها باحترافية، وبروح معنوية عالية لا يرجو من ورائها مالاً وفيراً أو مَطِيَّةً للوصول إلى كرسي المسؤولية.

إذا أردتَ النجاحَ في هذه المهنة، فما عليكَ إلا بالمثابرة وتحمُّل أعباءَ المسؤولية والمعاناة سواء في تحضير الدروس أو إلقائها أو تقويمها من خلال متابعة هفوات المتعلمين وإصلاحها في حينها. هكذا قال له أستاذ اللغة العربية سابقا وهو يبتسم، ستصبح مثلنا، تترقَّب أخطاء الطلاب للتسطير عليها بقلم أحمر لا يفارق جيب معطفك.

عندما استَتبَّ به الأمر بالمعهد وأخذ مكانه في قسم الشعبة التي سُجل فيها، أصبحت حياته تسير في اتجاه واحد، وكأنَّ اللهَ هو الذي رَسَمَهُ لها. ها هي كلُّ أحلامه تتحقَّق مرة واحدة. ستنتهي سنوات الهجرة ومعاناتها، وتنتهي معها حياة الغربة التي لازمته طوال حياته. أحس بأنه فعلاً يَحمل هُوِيَة ويصنع لنفسه مستقبلا.

كل الطلبة الذين هم معه في القسم من أبناء بلده لا تفرِّق بينهم سوى الأسماء والجهة التي ينحدرون منها. تذكّر وهو في المدرسة المغربية أن الطّلبة كانوا إمّا مغاربة أو جزائريين. وبالرّغم

من اختلافهم في الجنسية، كانت تجمعهم علاقة حَميمية مثالية حتى لا تكاد تفرق بين هذا وذاك. أي لا تفرق بين أبناء الجالية الجزائرية وزملائهم من أبناء الوطن الأم.

لم يشعر أبناء الأسر المهاجرة يوماً بشيء من التَّمييز أو العنصرية. كانوا إخواناً مع أبناء البلد الذين يعيشون فيه، تجمعُهم أواصرُ القُربى والمصاهرة. هناك فارق واحد كان يحس به أبناء وطنه، هو ذلك الحنين والشوق للإلقاء مع أبناء البلاد، يُقاسموهم الحياة في كل شيء. كان هؤلاء- و هو واحدٌ منهم- يشعرون بذلك الإحساس الغريب الذي يُسمَّى حب الوطن.

من الصُّدف الغريبة أنه وَجد نفسَه مع فتاتين وثلاثة ذكور يجلسون في طاولات انفردوا بها في قاعة القسم، ووضعوها في الركن اليساري متجهةً نحو الصفوف الثلاثة لبقية المتكوّنين. هكذا أراد أستاذُ اللغة العربية وآدابها أن يجلسوا، وتَبعه بقية الأساتذة. كلهم جاءوا مثله من المغرب. أما بقية الأساتذة الطلبة، فقد سبقوهم من قبل في المعهد، إذ دَرسوا فيه سنتين متتاليتين وانتقلوا إلى السنة الثالثة لهم من التكوين. كان أغلبهم يَنحدرُ من ولاية بشار، وقليل منهم من مناطق أخرى من الوطن.

تُجاوِرُ قسمَهم شُعَبٌ أخرى للرياضيات واللغات الأجنبية(الفرنسية والإنجليزية) وقسم آخرٌ لمعلمي ومعلمات المدرسة الابتدائية. نسج الجميع علاقات حميمية، فكان لا يرى واحدا منهم

إلا وهو مَرِحٌ تَعلو مُحَياهُ ابتسامةٌ عريضةٌ مُعبِّرَة على أنَّهم جميعا يشعرون ببهجة الحياة وسعادتها الغامرة. كلُّهم شباب في مقتبل العمر تَحدوهم الإرادة والعزيمة ليعلِّموا أبناءَ بلَدهم ويصنعون منه جيلاً يُعَوَّلُ عليه في ربح المعركة التي كانت تخوضها الجزائر في ثورتها الوطنية.

تولىَّ تكوينهم أساتذة أكفَّاء لم يَبخلوا عليهم بمعارفهم وتجاربهم التي خاضوها في مجال العلم والمعرفة. كانوا حقاً موسوعة في كل باب طرقوه. كان أستاذ اللغة العربية وآدابها السيد عبد الإله ميسوم في طليعة هؤلاء الأساتذة، مَرِحٌ بشوشٌ كثير المزح والتَّنكيت. كلما انتهَت العطلة ورجعوا إلى المعهد، لا يباشر الدَّرسَ إلا بعد أن يسألَهم هم الستة عن ما عاشوه فيما وراء الحدود، وكأنه كان يريد بهذا أن يُخفِّف عن نفوسهم كُل ضيقٍ قد يشعرون به وهم حديثو العهد بالبلد وناسه. وربما كان بأسئلته هاته يَحنُّ إلى الموطن الذي تعلَّم فيه هو الآخر فيه. أما أستاذ التاريخ والجغرافيا، السيد يحيى بوعزيز، فلا تنساه ذاكرته أبدا، ويَكِنُّ له الكثيرَ من التقدير والعرفان في كل شيء: في حب الوطن حتى النُّخاع، والغيرة على تاريخ الجزائر وضرورة تخليصه من تشويه المستعمرين والمتطفِّلين عليه. تعلَّم عنه الكثير خاصة عن تاريخ الجزائر وثوراتها، وتاريخ العالم الحديث منه والمعاصر. ربما هو الذي كان من وراء

التحاقه بمعهد التاريخ بجامعة السانيا فيما بعد، نظرا للتأثير الذي تركه في نفسه.

وهُم يَتكوَّنون ليصيروا معلمين ناجحين، كان عليهم أن يتعلَّموا بِعُمقٍ موادَّ التشريع المدرسي والتربية الخاصة والتربية العامة، لِما لهذه المواد من صِلَةٍ وثيقةٍ بمهنة التربية والتعليم. لهذا كان الجميع يُقبلون على هذه المواد وينتظرون بشَغَفٍ أستاذَها المتخصص الذي كان له باعٌ كبيرٌ فيها.

تتمحور مواضيع التشريع المدرسي حول الحياة المدرسية كإدارة القسم والمشاركة في مجالس المؤسسة والنشاطات الثقافية والزيارات التربوية التي تُنظَّم لصالح للتلاميذ. كان الأستاذ من خلال طريقته وهو يدرِّسهم هذه المواضيع يمزج بين ما تنصُّ عليه النصوص التشريعية والواقع الذي يعيشه المعلمون وهم يمارسون مهنتَم. يطلب منهم كل مرة أن يكتبوا له عَمَّا يشاهدونه أو يعيشونه في المؤسسات التي كانوا يزورنَها أثناء التربّص التطبيقي.

تتنوع مواضيع التربية الخاصة والعامة بين علم النفس التربوي وعلم النفس للطفل وطرق التدريس المختلفة. ما زال يحتفظ بملخصات هذه الأخيرة وكيف تعَلَّم كيف تَحدُث عملية التعلم، حيث لابد من وجود خمسة من الشروط الضرورية هي:

1- المعلم الذي يُعلم.
2- التلميذ الذي يتَعلّم.

3- المادة التي يُعلِّمها المعلم من جهة ويتعلَّمها التلميذ من جهة أخرى.

4- الوسائل والإمكانيات المادية التي تساعد الجميع على إنجاح عملية التعَلِّم والتعليم.

5- الطريقة التي بواسطتها يستطيع المعلم نقل المعلومات من ذهنه إلى أذهان التلاميذ بأقل جهد وأقصر وقت.

قَسَّمَ لهم الأستاذ هذه الأخيرة من حيث نوعيتها الى:

- طُرُق التدريس الخاصة التي تصلح لتدريس مادة معينة كطريقة تدريس القراءة أو قواعد اللغة أو التاريخ الخ...

- طُرُق التدريس العامة التي تصلح لتدريس مجموعة من المواد الدراسية المختلفة. كلها تدرس بطريقة الاستقراء والاستنتاج ....الخ.

ومن حيث الزمن قسَّمها لهم إلى طرق حديثة وطرق قديمة، وذكر لهم أنَّه يمكن تقسيمها من حيث المعنى إلى طريقتين أساسيتين:

- طريقة التدريس بمعناها الضيق: وهي التي تهتَم بإيصال المعلومات إلى أذهان التلاميذ دون العناية بتربيتهم وتكوين شخصياتهم.

- طريقة التدريس بمعناها الواسع: وهي التي تمتاز بالفعالية، فإلى جانب اهتمامها بنقل المعلومات تهتَم أساسا بتكوين شخصية التلميذ

آخذةً بعين الاعتبار حريتَه معتمدةً على تنمية تجاربه واكتشاف قابليته للتعَلّم ومراعاة مواهبه الخ...

تَعلَّم أيضا، أن الدَّرسَ المقَدَّم بهذه الطريقة ليس لمادته فقط، وإنما لتحقيق أهدافه التربوية، وأعطى لهم مثالا عن ذلك حول درس الحساب، فهو إلى جانب تعليم التلاميذ المعلومات الحسابية فهو يعلِّمُهم أيضا الدقة والنظام والاعتماد على النفس في حل المشاكل والصبر والتفكير المنطقي المنظم. أما درس الجغرافيا أو التاريخ، وإضافة إلى تَفهيمهم المعلومات التاريخية والجغرافية فهو يُعلِّمُهم حُبَّ الوطن والشجاعة والإتحاد والتضحية، ويدركون موقع بلدهم ومكانته الجغرافية والطبيعية والاقتصادية بين دول العالم.

خَلُصَ من خلال تكوينه أنه: لا فائدة من درس يعطى للتلاميذ لا يستطيعون تطبيقَه والاستفادة منه في الحياة اليومية العملية ولا يحقّقون الأهداف التربوية المرجوة منه.

هذا جزء يسير مما كانوا يتَلقَّونه من دروس في علم التربية، عندما يقارن ذلك بين الأمس واليوم، يقول كما قال الأوَّلون: لا جديد تحت الشمس. فمَهما بَعُدَ الزمان الذي كانوا يتلقَّون فيه هذه الدروس والذي يتجاوز الأربعين سنة، ومهما تطَوَّر العالم ومعه علوم التربية الذي تعددت تفرعاتها ومصطلحاتها ومفاهيمها و مهما اختلف المنهج التعليمي، فإنَّ ذلك لن ينقصَ ممَّا كانوا يتلقَّونه من

معارف تربوية مختلفة مكّنتهم من التحكُّمِ الفعَّال في تدريس تلامذتهم عندما أنْهوا تربُّصهم.

يتحسَّر وهو يرى اليوم أبناءَنا المدرِّسين تُسنَد لهم مهنة التدريس وهم فُقراء من تكوين تربوي متكامل يُؤَهلهم لتأدية مهامهم على الوجه المطلوب وبأيسر الطرق التربوية الحديثة التي يجهلون عنها الكثير.

لم يقتصر تعليمُهم في تلَقّي الدروسَ النَّظرية وِفْقَ المناهج الموضوعة لهذا الغرض، بل كانت تَتْبع ذلك دروس تطبيقية ميدانية يتلقَّونها في متوسطات المدينة، ويتم تقييمهم من طرف الأساتذة المطبقين المشرفين على تربصهم، فازدادوا بذلك خبرة ودِراية بمهنة التربية والتعليم، وتسَلَّحوا بما فيه الكِفاية لكي ينجحوا في مهامهم ويؤدُّوا مهنتهم في أحسن الظروف.

2-حمام"ربي":

كم كانوا يَنتظرون الجولات السياحية الثقافية التي كان ينظِّمُها لهم المعهد كل مرة إلى إحدى جهات الوطن!.

مكنتنه هذه الزيارات- ربما أكثر من زملائه- من التعرُّف على مناطق عديدة من الجهة الغربية للوطن. تمتَّع خلالها بما تزخر به من معالم طبيعية وثقافية وتاريخية زادته أكثر تعلقا بهذه الأرض الطيبة التي عاش غريبا عنها.

يتذكّر إحدى هذه الجولات التي قادتهم إلى "حمام ربي" قرب مدينة سعيدة. كانت جولة ممتعة من جميع الجوانب. من جهة مكَّنتنه من التعرّف على جهة من الوطن كان يجهلها، ومن جهة ثانية عرَّفته بمجموعة أخرى من الأصدقاء كانوا يدرسون معه في شعب أخرى في المعهد.

مثل هذه الجولات فتحت له شهية التعارف والحديث عن كل شيء، وأنسته صخب المدينة وضوضائها.

ملامح الطبيعة تتغير بمجرد أن تصل الحافلة إلى منعرجات "ديبْلينُو" بمعسكر الشهيرة. رغم الخوف الذي انتابه لخطورتها، تمتَّعت عيناه بما شاهدته من مناظر خلابة: تلالٌ من المرتفعات زيَّنتها تلك الصخور الملتوية وسط شجيرات برية نبتَت على حوافِّها، أكواخُ الفلاحين مُنتصبةً هنا وهناك تذكّره بما عاناهُ سكان المنطقة من بطش الاستعمار.

تذكر ما قاله لهم أستاذ التاريخ عن مقاومة الأمير عبد القادر التي بدأت في هذه المنطقة. تمنىّ أن تقف الحافلة ولو للحظات معدودة عند شجرة الدَّرْدار التي بُويع تحتها الأمير عبد القادر، غير أن صديقاً كان جالساً بجانبه حَكى له أنَّ هذه الشجرة توجد بسهل غريس والطريق إليه ليس طريقهم.

وصلوا إلى "حمام رَبّي» الذي يبعد عن مدينة سعيدة بحوالي عشر كيلومترات. أعجبَ ببناياته المقوسة التي تعلوها بعض القبب

القليلة الارتفاع. سارع كل واحد منهم لحجز مكان له للاستحمام والاسترخاء والاستفادة من مياهه المعدنية التي قيل أنها تشفي من أمراض الروماتيزم والتهاب المفاصل.

لم يستعجل الدخول إلى حوض الماء الساخن وراح مع أحَد الأصدقاء يأخذان صورا تذكارية، أحسنُ شيء فعله لتخليد ذكرياته في ذلك المكان والزمان. كانت الصورة وقتها بالأبيض والأسود وقَلمَا تجد أحدا بحوزته آلة تصوير.

عندما عادوا في المساء إلى المعهد، وبالرغم من التّعب الذي أصابه شعر بالسعادة لكون يومه كان حافلاً بعدّة أشياء لم يعرفها من قبل، أحسّ أنَّ بلاده تملك العديد من المناطق الجديرة بالزيارة والاهتمام، وعاهد نفسَه بأن يسعى إلى اكتشافها عندما تُتاح له الفرصة لذلك.

3-وهران وأسرارها:

لم تمنعه الدراسة وهو في المعهد ليكتشفَ مدينة وهران وأسرارها. كان يتجوَّل كلّ مرة في شوارعها، يرافقه أحد الأصدقاء الذي كان مولعاً مثله بحب الإطلاع والمطالعة. ينزلان من المعهد مرة عن طريق الشارع المار بالسكة الحديدية نحو الميناء، فيصلا إلى شارع العربي بن مهيدي ويجوبانه من شرقه إلى غربه، حتى إذا ما وصلا إلى ساحة البلدية، أخذا مكانا لهما في مقهى فندق"روايال"، يشربان

قهوة أو شايا ثم يعودا إلى المعهد عن طريق شارع مستغانم ليوصلهم إلى نقطة إنطاقهما.

أما إذا أرادا الذهاب إلى المدينة الجديدة، فإنهما يَمرَّان حتماً تحت قنطرة السكة الحديدية في شارع مستغانم مارين قرب محطة القطار، حتى إذا ما جابا أسواق المدينة الجديدة، اغتنما الفرصة لدخول الحديقة العمومية واستراحا على أحد كراسيها الخشبية ثم يعودان إلى المعهد كعادتهما.

كانا كذلك، يغتنمان نهاية كل أسبوع أو عطلة مدرسية ليزورا إحدى المعالم التاريخية والسياحية للمدينة، فيتمتعان بمناظر قلعة "سانتا كروز» -Creuz Santa الجميلة وهي تطل على المدينة. تبدو وهي ممتدة على مساحة واسعة يستطيعان أن يُميّزا بين شوارعها وأحيائها.[1]

تصل إلى **قلعة "سانتا كروز"** من طريق يبدأ من وسط المدينة حتى حي سيدي الهواري العتيق، ثم يمتد في شكل طريق تغلب عليه

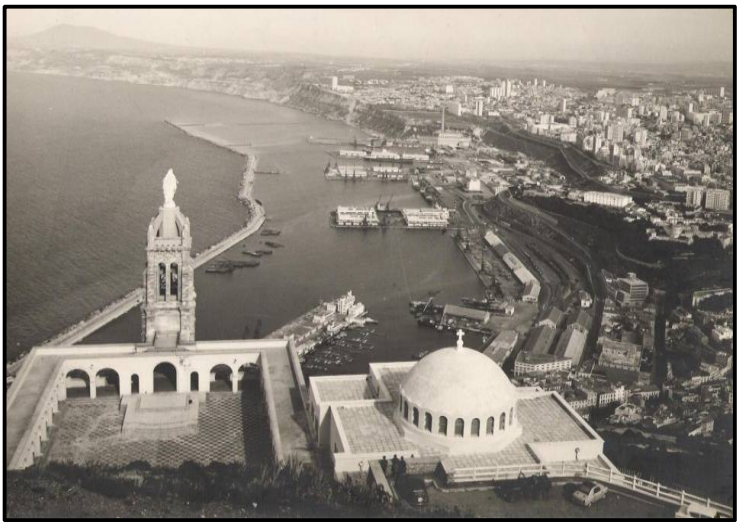

[1]- شيد الاسبان حصن سانتا كروز Santa- Creuz بين ستة 1577و1604، للدفاع عن و هران من الهجمات البحرية و البرية. ينسب هذا الاسم تارة إلى القائد الإسباني في القرن السادس عشر الكونت "سيلفادي سانتاكروز» وتارة أخرى إلى الصليب المقدس.

الالتواءات، إلى أن تصل إلى قمة جبل المرجاجو، حيث القلعة. ومقام الولي الصالح مولاي عبد القادر "مول المايدة".

خلال رحلتك إلى هذه القلعة، تستمتع بمشاهد طبيعية خلابة. تقطع غابة خضراء، مجسدة في أشجار الصنوبر، حتى إذا ما وصلت إلى القلعة تدخلها عبر بوابة كبيرة، فتصل إلى ساحتها التي يحيط بها سور شاهق الارتفاع، به منافذ أُعِدَّت لنصب مدافع في حال مواجهة العدو.

تبدو لك مدينة وهران وميناؤها والمرسى الكبير وكأنك تقبض بهم الثلاث بيدك، وتقول في نفسك: سبحان الله الخالق القهار، هذه هي القلعة التي حررها العثمانيون وخلصوها من الاستعمار الإسباني الذي جثا على أرضها قرونا.

كم كان يعجبه ذلك المنظر الجميل لواجهة البحر، يشاهد منه الميناءَ ويراقب حركة السفن وهي تدخل أو تخرج محمَّلة بمختلف السلع، يرى أمواج البحر تَرْتَطِم على الرصيف وأحجاره الكبيرة فينسى نفسَه وأتعابَها، وينسى الماضي وقساوة الهجرة.

4-أحاديث وتطلعات:

مرَّت أيام وشهور تلك السنة التي قضاها بالمعهد كلمح البصر. لم يكن يفكّر في شيء سوى التخرّج وبتقدير ليضمنَ لنفسه وظيفةً في المدينة. يتمكّن بعدها أن يوُفِيَ بالعهد الذي قطَعه على

نفسه ويُدخِلَ أفراد أسرته أرضَ الوطن، فيتمتعون بما وجده هو نفسه من فرق في المعيشة بين حياة المهجر والحياة على أرض الوطن.

من خلال تواجُدِه هذه السّنة في أرضِ أجداده، لَمِس فرقاً واختلافاً بين الناس هنا وهناك في أرض المهجر، سواء في نَمَط المعيشة أوفي التطلُّعات.

وقتَها كانت الجزائر تخوضُ معركةً شرسةً ضد الفقر والتهميش الذي عاشه الناس في ظل الاستعمار. لا تسمعُ إلا الحديث عن الثورات الثلاث: الثورة الزراعية التي مكَّنت الفلاحين من الخروج من العبودية وإقطاع المستعمرين، والثورة الصناعية في تشييد المصانع والمعامل، والثورة الثقافية التي كانت تهدف إلى أن يكون كل جزائري حُراً مُتعلِّما يُقرّر مصيرَه بنفسه. بينما هناك، الناس في سباقٍ مع الزمن، يَتسابق كل واحد منهم حسب وضعيته الاجتماعية، فإذا كان ينتمي إلى الطبقة الثَّرية تراه متمتِّعاً بكل ما يريده في الحياة، أما إذا كان من الطبقة الفقيرة فهو يَلهث وراء لقمة العيش للوصول إليها بشق الأنفس. هنا وجد الناس يتطلَّعون لبناء مجتمع تسوده المساواة والعدالة الاجتماعية، مُتَّكِلين على الدولة لتمنح لكل فلاح أرضاً يفلحها مع جماعة في قريته، و تمنح لكل عامل أو موظف منصبَ عملٍ أو وظيفة في مصنع أو مؤسسة تابعة للدولة، و لكل راغب مقعدا للدراسات العليا يتخرج منه ليكون

إطارا ذا شأنٍ في المجتمع. أما هناك فكل هذه الأشياء تُكتَسب بعرق الجبين.

صادف تواجده في المعهد، إنشاء مصنع التكرير للبترول في منطقة أرزيو، وكان الحدث عظيما عظمَة الرَّجل الذي دشَّنه وهو الرئيس الراحل هواري بومدين الذي أقدَم من قبل على تأميم المحروقات في 24 فيفري 1971، أي السنة التي دخل فيها صاحبنا إلى المعهد.

وقتها، كان العالم يشهد تحوُّلات عميقة: معسكران يتسابقان نحو مناطق النفوذ في ظل حرب باردة. شعبُ الفيتنام يُبادُ بقنابل طائرات ب52(B.52). الفلسطينيون يَئنون تحت وطأةِ الاستيطان الإسرائيلي الذي احتل سيناء والجولان بعد الهزيمة الشَّنعاء للعرب في جوان 1967.

ورغم هذه المحن والهزائم، كانت القومية العربية في أوجُهِها يقودُها في المشرق جمال عبد الناصر وفي المغرب العربي هواري بومدين.

ربَّما هذه الأوضاع هي التي جعلت صاحبنا من شباب ذلك الوقت، متحمِّسين لهذه الأحداث، يُطالعون مجرياتِها عبر الصحف الوطنية والإذاعات المختلفة. لم يكن التلفزيون منتشراً كما هو الحال اليوم يَعج بالقنوات الفضائية، ولم تكن التجاذُبات الكلامية بين ما يسمونه اليوم بالمحللين السياسيين والعسكريين تُعَكِّر صَفْوَةَ

قوميتهم وهُويتهم العربية الإسلامية. كانوا مقتنعين بالخط الذي رسمه لهم القائد بومدين المتمثل في النهج الاشتراكي ومعاداة الإمبريالية أينما وُجدت. تحدوهم هذه القناعة بأن كلَّ ما يقوله لهم هو عين الصواب لا غيره، وأن مُهمَّتهم تتمثل في إقناع غيرهم من الفلاحين والمواطنين البُسطاء أثناء حملات التطوع التي كانت تُنظم لصالحهم كل صيف، بأنَّ الخط الاشتراكي هو المخرج الوحيد الذي يقود بلادهم نحو بناء الوطن وتشييده، ويحقّق للشعب العدالة الاجتماعية فيصبح أفراده سواسية كأسنان المشط. هكذا كان يسمع ويؤمن بما يردَّد من شعارات.

05- مدرسة أشبال الثورة :

مرت الشهور الأولى من سنة 1971 والنصف الأول من سنة 1972 كلمح البصر، تخرَّجوا بعدها من المعهد، وبَقوا ينتظرون تعيينَهم في مناصبهم الجديدة.

كانت الرّغبة تحدوهُ أن يكون تعيينُه في المدينة التي أحَبَّ كلَّ ما فيها من ظروف تساعده أن يتابع دراسته الجامعية ويمزج بين التدريس والتعليم.

وقتها كان بإمكان كل راغبٍ أن يكون موظَّفا و في آنٍ واحدٍ مُنتَسِباً إلى الجامعة، يُتابع دراستَه كل مساء. وجد أن الفرصة ستكون مواتية له إن أبْقَوْه بالقرب من الجامعة.

قضى صيفَ ذلك العام في المغرب يُروِّح عن نفسه عناء عام كامل من الجد والاجتهاد، والإطلاع على أشياء كان يجهلها تماماً وهو تلميذ في المدارس المغربية، وابن عائلة مهاجرة بعيدة عن الوطن، وبعيدة عن تلك التحَوُّلات التي يعرفها وطنه في كل المجالات. يستحيل عليه اليوم وأفراد أسرته أن يبقوا هناك أكثر مما بقوه وأن يضيّعوا فُرَصَ الحياة أكثر ما ضيعوه.

لهذه الأسباب كان حديث أفراد أسرته في تلك الصائفة عن التّرتيبات التي يجب اتِّخاذُها للدخول نهائيا إلى أرض الوطن.

تحقيقُ هذه الأمنية لم يكن من الأمر السهل اليسير، ويتطلَّب عدة إجراءات إدارية إضافة إلى ترتيب ظروف الاستقرار في الوطن وعلى رأسها مشكل السكن، لهذا كان على الجميع أن ينتظروا وقت ومكان توظيفه على الأقل.

عندما عاد إلى وهران في نهاية شهر أوت، وجد قرار تعيينه قد أُتّخِذ. فرحة عارمة انتابته و هو يقرأ: "تم تعينكم في مدرسة أشبال الثورة بمدينة وهران".

لم يتصَوَّر يوماً ما أن يَتمَّ تعيينُه في هذه المدرسة شبه العسكرية التي تُكَوِّن إطارات الجيش الوطني. لم تكن هذه المدارس بالكثيرة في الوطن. هي الوحيدة على مستوى الغرب الجزائري كما كان يعرف آنذاك.

لماذا كان حظُّه أن يُعيَّن في هذه المدرسة بالذات؟ أيَرجع هذا إلى نتائجه التي كانت من بين أوائل دفعته؟ ام أن القضية، قضية حظ لا غير؟

لم يبقَ أمامَه اليوم سوى الاستعداد للدخول المدرسي وتَسَلُّمِ وظيفتِه وتأديتُها على أحسن وجه تُرضي ضميرَه ورغبتَه بعد أن تحقَّقت أمنيتُه. لهذا الغرض، دخلَ مبكراً إلى وهران ليُرتّب أموره ويكون على أتم الاستعداد لليوم الموعود.

بمجرّد أن افتُتِح العام الدراسي حتى كان على أتَمِّ الاستعداد ليكون أوَّل من يلتحق بالمدرسة، ويكون أوّل من يستقبله المدير ببذلته العسكرية يبادله التحية الصباحية .

اصطَفَّ التلاميذُ الأشبال بزيهم الخاص الموحد في صفوف منظمة متراصَّة تَحيَّةً للعلَم.

بالأمس كان يقِفَ وهو طالبٌ يُحَيّي العلمَ الوطني للبلد الذي نشأ ودرس فيه، واليوم يقف إجلالاً وتعظيماً لعَلَمِ بلاده وهو يرفرفُ كالحمام في ساحة المؤسسة. الفرق شاسعٌ بين الأمس واليوم في المشاعر والأحاسيس، لا يستطيع أحَدٌ أن يَعرِفَ كُنهَها.

بمجرد تأدية هذا الواجب المقدس. يلتحق الكلّ بأقسام الدراسة بانتظامٍ رائعٍ لم يشاهده قط في حياته. لا تسمع لغواً أو كلاماً وهم يصعدون السلالم إلا صوت أحذيتِهم السَّوداء اللاّمعة ووجوههم النيّرة تُظهِر علامات الفرحة والسعادة تغمرهم وهم

ملتحقين بمقاعد الدراسة. يتبعهم وكله افتخار وزهْوٌ بنفسه التي يحقّق لها أكبر أمنية وأجمل حُلم في حياتها كلها منذ أن رأت عيناه الحياة في هذه الدنيا.

فتح محفظتَه بوقار وأخرجَ منها دفتراً دَوَّن فيه مُخطّطاً للحصة الأولى.

رَسم الخطوات التي ينبغي أن يتبعها بكل دقة وعناية. يؤمن بأن هذه الحصة الأولى هي أهم خطوة يخطوها كل مُعلمٍ ناجحٍ في حياته. فيها تتجلىّ عبقريتَه في كيفية الاتّصال مع مَنْ سيقضي معهم عاماً دراسياً كاملاً. في هذا اللقاء يُطبَعُ أكثَرُ التلاميذِ بالصورة الأولى عن شخصية المعلم ومهاراته، فإمّا أن يكسبَهم ويَأْسَرَ قلوبَهم ويَجذِبَهم إليه، وإمّا أن يَخسِرَهم بمعاملته فَينفَضونَ من حوله ويَتركوه حائراً في نوع الأسلوب الواجب إتّباعه ليُرجِعَهم إليه حتى يتابعوا طريقة تدريسه وتواصلهم معه.

تمثّلت أول خطوة خطاها مع تلامذته في أول لقاءٍ له معهم في إعطائهم درساً في فنّ التواصل والتعامل كأفراد وجماعات، وكيفية التعامل مع المنهاج ومحاوره سواء من خلال تحضير الدروس وفهمها، أومن خلال التطبيق عليها وتقويمها. رسم لهم صورة واضحة حول المهام المنُوطة بالجميع لتأديتها في أحسن الظروف وأيسَرها، مُؤكداً لهم أن المسؤولية مسؤولية كل واحد منهم أتجاه الآخر . فكل ما لا يرضاه أحَدٌ لنفسه ينبغي أن لا يرضاه لغيره.

أما الخطوة الثانية، فقد تمثّلت في إتمام أخذ المعلومات الشخصية لكل تلميذ عن طريق استمارة كان قد أعدَّها لهذا الغرض.

أنهى الحصة بتذكير تلامذته بأنه سيشرع في أول درس في الحصة المقبلة، فالوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

بالرغم من الوقت الضيّق الذي كان أمامَه في أول حصَّة له في التعليم، فقد أنهاها وهو راضٍ عن نفسه بعد أن حقَّق ما كان ينوي تقديمَه. رأى في ملامح تلامذته ما يُبشّر بعامٍ دراسي موفَّق.

كان عَليه أن يُواصلَ بنفس الخُطَّة والإرادة والعزيمة في بقية الحصص مع الأقسام المُسندة إليه وهو واثقٌ من نفسه ومُعتزٌ بها لكونه خَطا أول خطوة له في التدريس.

صار أشبال الثورة يتطلّعون إلى أول درس يلقيه عليهم في تلك السنة الدراسية 1972- 1973. هم لا يعرفون قيمة هذا التاريخ بالذات. أما هو فيدرك أن وراءه تاريخ طويل. أوله أن عمره بلغ ما يربو عن 24 سنة. قضاها كلّها بعيداً عن هذه الأرض الطيّبة التي تحتضنه اليوم وتوفر له منصباً كان يحلم به وعمره لا يتجاوز العشر سنوات.

14 سنة بالضبط من التعب وضنك الحياة منذ أن وطأت رجلاه المدرسة ليصير يوماً ما معلماً. ها هو اليوم بعد كل هذه السنين يحقق أحلامَه وهو راضٍ عن كل خُطوةٍ خَطاها. يقف أمام

تلاميذه لا يعرف عنهم شيئا سوى انه كان يوماً ما مثلهم وإن اختلف الزمان والمكان ومعهما الظروف . ظروفهم اليوم تختلف تماما عن الظروف التي انتقل يومَها من القرية إلى المدينة ليدخلَ أول سنة له في إعدادية «البكري» بوجدة.

لم يجد صاحبُنا صعوبةً في التكيّف مع محيط المدرسة وجَو الحياة المدرسية فيها، حيث كل شيء متوفر. حجرات الدروس واسعة ونظيفة وأثاثها المدرسي مُعتنى به وكأنّهم اشتروه بالأمس بالرغم من مرور عدة سنوات عليه. انضباطُ التلاميذ ومواظبتهم لا تجد لها مثيلا في مدارس أخرى.

ساعده هذا الجو الدراسي المميز على تأدية وظيفته على أحسن ما يُرام، ما عدا شيء واحد هو التنقل من الحي الذي يسكنه بوسط المدينة بـ"سان بيار" إلى المدرسة التي توجد في جهتها الشرقية. هي بعيدة عنها بعدة كيلومترات، أرغمت صاحبنا أن يركب الحافلة التي تنقله يوميا أربعة مرات للدوام في المدرسة، عدا يوم السبت والأحد في نهاية كل أسبوع .

هذا الأمر أرهقَه شيئاً ما وأجبَره أن يقتطع من أجرة شهره الذي لم يكن يتجاوز آنذاك الألف دينار، جزءاً منه يقضي به حاجياته من أكلٍ وملبسٍ واقتناء أشياء أخرى كالجرائد والسجائر التي كان مُدمِناً في شرب دخانها، مع كل أسف. كان عليه أيضا أن يَقتطع جزءاً من أجرة شهره لكي يعين أسرته. هو مرغم كل عطلة

للذهاب إلى هناك فيما وراء الحدود لزيارة عائلته فيشتري لهم ما يحتاجونه من ملابس إضافة إلى مصاريف السفر.

لم تكد ثلاثة أشهر تمر من تعيينه في مدرسة أشبال الثورة حتى أُتيحت له فرصة ثمينة لتبديلِ تعيينه مع أستاذ آخر رغب في أخذِ مكانه. كان هذا الأخير مُعَيَّنا بمتوسطة العربي بن المهدي المتواجدة بحي سيدي الهواري العريق . شعر وهو يجد هذه الفرصة أن الوَلي الصالح "**سيدي الهواري**" أرادَ أن يُدرِّس أبناء الحي الذي هو مدفون بجوارهم، أو أنَّ هذا الولي الصالح كان يَرى فيه ذلك الشاب المهاجر الذي تحدَّى الصّعابَ حتى صار معلماً يدرس الأدب العربي والتاريخ والجغرافيا والشريعة الإسلامية. تَمَّت الإجراءات الإدارية عن طريق مديرية التربية بسرعة، حيث لا عراقيل ولا بيروقراطية مادام المعنيان راغبان في تبادل مناصب عملهما بالمدينة وفي نفس الاختصاص نفسه.

07

بين التَّدريس والجامِعة

01- متوسطة العربي بن المهيدي:

02- جامعة "السانيا".

03- ويقترب يوم الدخول إلى ارض الوطن.

01-متوسطة العربي بن المهيدي:

في اليوم الأول الذي استلم فيه تعيينَه في متوسطة "العربي بن مهيدي"، بعد موافقة الإدارة الوصية على ذلك التبادل بينه وبين أستاذ مثله، كان يحس بأنه إنسان جديد.

حَضَّر محفظته ولَبِس بِذلتَه واعتنىَ برَبْطة عنقه وامتَطى الحافلة مُبَكّراً حتى يكون من بين الأوائل الذين يدخلون المؤسسة. عندما وصل إلى ساحة البلدية راحت قدماه تسبقانه وهو في ذلك الشارع المنحدر في حي سيدي الهواري. تفاءَل خيرا لكون المتوسطة غير بعيدة عن ضريح الولي الصالح «سيدي الهواري» الذي اقترنت وهران باسمه. لا شك أن تواجدَه في هذا المكان سَيَبسِطُ عليه سلطته الروحية المهابة. فكر أن يزور قبرَه قبل الدخول إلى المؤسسة للتبرك به، غير أنه عَدل عن ذلك مُكتفياً بدعوة الله والنبي (ص) والوالدين وجميع الأولياء الصالحين بأن يكونوا جميعا عوناً له فيما هو قادِمٌ عليه.

وجد بَوَّابَ المؤسسة يُرحّب بقدومه بعد أن عرف أنه أستاذ جديد. عرف ذلك من خلال هيئته وسنه وتبكرته. بادره بالتحية وتوجَّه إلى قاعة الأساتذة التي أرشده إلى مكان تواجدها. كان فعلا في ذلك اليوم أول من يدخل المتوسطة. لحظاتٌ قليلةٌ وجُموعُ الأساتذة والموظفين يلتحقون تباعا ليَمْلأوا المكان روحاً وحيوية. ضَحكاتُهم وابتساماتهم تَعلوا وجوهَهم وكأنهم في حفلٍ بَهيجٍ. الكُل

يُحَيي ويَسألُ ويُطَمئِنُ عن حال الآخر. أحس حينَها أن الجميعَ يُكَونُ أسرة كبيرة وتمنى أن يكونَ فيها عُضوا فاعلا ويجدُ مكانته ضِمنَهم.

قطع حديثَ الجموع دخولُ المدير مُحَيياً الحاضرين. كان قد تعرَّف عليه قبل هذا اليوم عندما سَلَّمَهُ تعيينه الجديد وهو بدوره سلَّم له استعمال زمن الأقسام الذي سيدرسهم.

كان يدرّس لبعض الأقسام الأدب العربي وأخرى التاريخ والجغرافيا والعلوم الإسلامية. ومنها أقسام يدرس فيها جميع هذه المواد. تَطَلَّبَ منه هذا التعَدُّد إعداد عدة مذكرات بات ينجزها حِرصاً منه أن يكون في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه.

عندما التحق التلاميذ بالمتوسطة، خَيم جَوٌّ من المَهابة والوَقار على مُحَيى الجميع وهم يَتَجَمعون في الساحة لتحية العلم الوطني. وقف الكل في صفوفٍ متراصَّةٍ مُنَظّمةٍ وكُلِّفَ تلميذان برفع العلم. رَدَّدَ الجميع النشيدَ الوطني وتعالت حناجرَهم مُحدثة نَغَماً خاصا اقشعَرَّ له بدنه.

يتوجه التلاميذ مُصطفِّين مَثنى مَثنى ويلتحقون بحجرات الدراسة. تبعَهم ببُطءٍ حتى يدخل آخرُهم القسمَ ويقفل الباب وراءه ويأذن لهم بالجلوس.

لم يمض وقت طويل على تواجده في المتوسطة، حتى تمكَّن من نَسج علاقات أخوية مع بقية الأساتذة. عرف أنَّ أغلبهم كان مهاجراً

في المغرب، غير أنهم دخلوا البلادَ قبلَه بكثير، أي مباشرة بعد استقلالها. عرف كذلك أنَّ بعضهم وُظِّفَ مباشرة بعد الاستقلال، وبعضهم ترَقى من التعليم الابتدائي.

رغم إختلاف مؤهلاتهم التي كانت دون شهادة البكالوريا، كانت لأغلب أساتذة متوسطة العربي بن مهيدي في رأس العين كفاءات عليا في التربية والتعليم، يبذلون جهودا كبيرة لإنجاح ديموقراطية التعليم التي كانت شعار المدرسة الجزائرية.

أما التلاميذ الذين تسكن أسرهم في حي سيدي الهواري وحي "بلانتير"[1] فقد كانوا شغوفين بالتعليم، مواظبين ومنضبطين تحدوهم الرغبة والإرادة لينجحوا في مسارهم الدراسي.كلهم أمل بأنهم يُوظفوا يوماً ما بعد نجاحهم ويتمكنون من مساعدة أسرهم التي لم تكن أسراً ثرية.

أغلب هذه الأسر التي تسكن هذه الجهة الغربية من المدينة استقرت فيها منذ أمد بعيد. أغلب منازل الحي قديمة قدم الزمن الذي بُنيت فيه أسفل جبل «مرجارجو» أو "رأس العين" تدل أنَّ ناسَها عرفوا التهميش والفقر والاضطهاد في العهد الاستعماري. عدد كبير أيضا من هذه الأسر تنحدر أصولها من المغرب وخاصة من شماله. هي كذلك أسر مهاجرة هنا تماما مثل أسرته هناك.

1- الصنوبر حاليا.

مفارقة عجيبة هذه الحقيقة التي وقف عليها وهو يتعرف على الأوضاع الاجتماعية لأبنائهم المتمدرسين في المؤسسة.

عرف من خلالهم الوجه الآخر للمدينة. فرق كبير بين هذه الجهة والجهة التي كان فيها بالمعهد. في الجهة الثانية تجد البنايات العصرية والشوارع الواسعة وواجهة البحر الجميلة؛ أما في هذه الجهة التي توجد فيها «متوسطة العربي بن مهيدي» بسيدي الهوَّاري فتختفي تلك الملامح اللَّمَّاعة تاركةً المكان للمنازل البسيطة والأزقة الضيقة وبيوت القصدير. وجهان مختلفان تماماً وفوارق اجتماعية موروثة عن عهد الاستعمار.

كان المجتمع الجزائري في بداية السبعينيات منقسما بين فئتين متمايزتين من الناس، فئة أولى متأثرة بعادات الاستعمار ونمط حياتهم، تجد بعضهم يترددون عن الحانات، يحتسون الخمر بكل أنواعه ولا يُعيرون لذلك أيَّ اهتمام. يحتفلون برأس السنة الميلادية للمسيح وكأنهم في فرنسا. يتحدثون باللغة الفرنسية بطلاقة تتخللها كلمات عربية بالدارجة. تحسبهم أجانب وما هم بذلك بعد أن تتفحص ملامحهم. لا شك أنهم عاشروا الأوروبيين الذين كانوا هنا لفترة طويلة، فتطبَّعوا بطباعهم ولم يتخلصوا منها بعد. أما الفئة الثانية فقد كانت تعيش في الأحياء الشعبية مثل حي الصنوبر(بلانتور) وسيدي الهواري ورأس العين والحمري ومديوني. يحترفون حرفا تختلف عن ناس الفئة الثانية مثل بيع الخضار أو

العمل في مصالح البلدية أوفي الميناء لصيد السمك أو بيعه. حافظوا على تقاليدهم العربية من خلال الأعراف التي ورثوها عن آبائهم المنحدرين من الريف أومن المناطق الداخلية أومن الأسر المهاجرة العائدة من البلدان المجاورة، أومن الأسر المنحدرة من الهضاب العليا.

ازدادت إرادته قُوَّةً وهو يدرِّس أبناء هذه الأسر الأخيرة زارعا في نفوسهم أملَ العيش الأفضل إن هم ثابروا واجتهدوا في دراستهم، فلا شك أنهم سيتمكنون يوما ما مثله من تجاوز أوضاعهم الاجتماعية الراهنة. كان يختار لهم النصوص الأدبية المعبرة عن الأمل والطموح والتفاؤل، ويحكي لهم حياة بعض العباقرة وكيف تمكنوا من تخطي أوضاعهم المزرية وتسلقوا أشجار الحياة اليانعة وحققوا ما لم يحققه غيرهم من أبناء الطبقة الثرية.

02-جامعة "السانيا" [1]

لم يتوقف طموحه في التدريس فقط في التعليم المتوسط، بل راوَدته فكرة إتمام دراسته الجامعية منذ أن كان بالمعهد. اغتنم فرصة تعيينه في المدينة، كما كانت أمنيتُه، وسجَّل نفسه من بين الطلبة الذين انتسَبوا إلى جامعة " السانيا" في السنة 1972- 1973. كان

[1]- أنشأت في 13 أفريل 1965، قال عنها الرئيس الراحل بومدين: "أتمنى لهذه الجامعة أن تخرج عباقرة يخلدون مجد هذا الوطن العظيم»(من السجل الذهبي لجامعة وهران)

يُسمَح للموظفين من مزاولة دراستهم كل مساء بعد الانتهاء من عملهم.

اختار قسم التاريخ لينال فيه شهادة الليسانس. لماذا التاريخ بالذات وهل كان بإمكانه أن يسجل في معهد آخر غيره كالحقوق أو الأدب أو علم النفس أو الاجتماع أو الفلسفة؟

قد يعود هذا الاختيار إلى أنه كان يريد أن يعرف كل شيء عن تاريخ الإنسانية ومن ضمنها تاريخ بلاده التي عاش بعيدا عنها، متأثرا بكل ما تعلمه من أساتذة التاريخ الذين درسوه هذه المادة سواء في المهجر او في المعهد. أضف إلى ذلك أن شهادة الليسانس ستمكنه من الارتقاء ليكون أستاذا في التعليم الثانوي وبالتالي لا تنقطع صلته بالتربية والتعليم أبداً.

لم يكن الأمر هَيِّناً أن يجمَع بين وظيفة التدريس ومزاولة التعليم في الجامعة. كل من يقوم بهذه المهمة عليه أن يعرف كيف يوائم بين هذه وتلك، ويرتب نشاطه ترتيبا يمكنه من الوصول إلى تحقيق غايته. بعد الانتهاء من التدريس في حدود الرابعة أو الخامسة مساء، يتوجه مباشرة إلى الجامعة فيمكث فيها إلى غاية التاسعة أو العاشرة ليلا ليعود إلى المنزل.

بعد أن يتناول العشاء يقوم بتحضير الدروس ولا ينام إلا في حدود منتصف الليل على أقل تقدير. كل هذه الجهود رغم ثِقَلها، كانت عليه هيِّنَةً لكونه عزم على اكتساب مزيد من التعلُّم والمعرفة،

إضافة إلى أنه تعود على الصبر والتضحية لينال مُراده؛ فليس كل شيء يُكتسب بالسّهل الهيّن إن لم تَصحَبْه هاتين الفضيلتين التي حبانا الله بهما. أو كما قال المتنبي:

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ ❖ وَتأتي علَى قَـدْرِ الكِـرامِ المَكــارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صِغارُهـا ❖ وَتَصْغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

فكل من العزائم والمكارم إنما تَكبر أو تصغر على قَدرِ أهلِها، فمن كان كبيرَ الهمَّة، قَويَ العَزْمِ، عَظُمَ الأمرُ الذي يَعزِمُ عليه، وكذلك المكارم، فمن كان أكْرمُ كان ما يأتيه منها أعظَمُ.

عندما دخل الجامعة، قال في قرارة نفسه: إذا كانت مدة الحصول على شهادة الليسانس هي ثلاث سنوات، كما كان معمولا به آنذاك، فلا ضَيْرَ إن استَغْرَق هذه المدة أطول نظرا لظروفه، فهو موظف والحمد لله، ولا يهم عدد السنين التي سيقضيها في الجامعة. قال هذا حتى لا يحبط من معنوياته و لا يقهر عزيمته لسبب من الأسباب تعترضها.

يغتنم نهاية الأسبوع لينقل المحاضرات التي تفوته خلال الأسبوع، يدونُها ويراجعها مع أحد الأصدقاء الذي لم يكن مُنتِسبا للجامعة بل مُداوِما على كل المحاضرات. بهذا لم يترك شيئا من

مواضيع مقاييس السداسي الأول مثل مقياسي القرون العتيقة وعلم الاجتماع يفوته.

لم يكن عدد الطلبة كبيرا كما هو الشأن اليوم في معاهدنا، لم يتعد في السنة الأولى الأربعين طالبا، وحتى هذا العدد تناقص خلال الثلاث سنوات التي قضاها في الجامعة ليصل إلى ما دون العشرين. هذه الظاهرة لم تكن تخص قسم التاريخ بل تكاد تكون عامة في الأقسام الأخرى باستثناء قسم الحقوق الذي عرف أعدادا أكبر من الطلبة حتى كان الجميع ينعتونه بملعب "بوعقل» لكثرة مُريديه.

أما عن الأساتذة الذين تولوا تدريسه آنذاك، فكان منهم الجزائريون وهم قلة، والأجانب من المصريين والسوريين وهم كُثرٌ. لأول مرة في حياته يسمع اللهجة المصرية والسورية مباشرة من أفواه أهلها، بعد أن كان يسمعها فقط عن طريق أمواج الإذاعة أو عبر الأفلام السينمائية. في البداية وجدها غريبة عن لهجته من حيث نطقها للحروف العربية، ولكن مع مرور الزمن تعود عليها وزال عدم فهمِه لِلَكَناتِها[1].

عندما انتهى الفصل الأول من ذلك العام الدراسي الذي تحقَّقت له فيه رغبة التدريس ودخول الجامعة، كان أسعد مخلوق

---

[1] - مفردها لَكنَة ومعناها مخرج الحروف أو المظهر الصوتي الذي يميز لغة شعب ما عن لغة شعب آخر.

على وجه الأرض في الأرض رغم الإجهاد الذي أصابه. يتذكَّر يوما أَلزَمَه زكامٌ قَويٌ الفراشَ ومنعه من الالتحاق بالعمل والدراسة. أصابه عندما نزل من الحافلة المملوءة عن آخرها من الطلبة العائدين من الجامعة. كانت هذه الأخيرة كحمام ساخن وعندما خرج منها اصطدم جسمه بكتلة هواء باردة أَرْدَتْه مريضا بعدها. لم يمنعه هذا المرض المفاجئ ولا ذلك الذهاب والإياب بين المتوسطة والجامعة من الذهاب قُدُما إلى إرضاء نفسه فيما يعمله.

لم يهمل واجباته نحو تلامذته ولم يفرط في المستقبل الذي رسمه قدّامه. ولم يلهه لا الواجب المهني ولا التردد على الجامعة كل مساء من إعطاء روحه ما تحتاجه من ترويح وتنفيس دون أن يطلق لها العنان لتخرج عن حدودها. مغريات المدينة كثيرة ومتنوعة، فإن لم يصن الفرد نفسه منها فستلهيه عن واجباته فتحبط عزيمته وتضعف همته.

كان يلتقي بعد ساعات العمل مع زمرة من الأساتذة جمعته معهم روابط الأخوة والزمالة في العمل، يجلسون مع بعض يرتشفون كؤوس القهوة أو الشاي، وحديثهم لا ينقطع عن التدريس والسياسة وشؤون البلد.

يتذكر يوما دخل في عناد مع أحد الزملاء في إعراب جملة اختلفا حولها؛ فتراهنا بأن الذي يُغلبُ يَدفَعُ ثَمنَ المشروبات خمس مرات متتالية. يحمد الله أنه لم يكن مغلوباً فيكون ذلك على حساب

مدخراته من الأجر الشهري الذي كان يقسمه إلى ثلاثة أجزاء: جزء لمساعدة أخيه المجاهد الذي يسكن دارَه، وجزء لتصريف أموره وجزء ثالث يحتفظ به لعائلته عندما يزورها في المغرب.

لم يتخلَّ عن هوايته في مشاهدة الأفلام في دور السينما. يغتنم الفرصة كلما كان فارغَ شُغلٍ ليتابع بعضها. كم كانت تعجبه الأفلام التي كانت تعرض في «السينماتيك»[1] وتكون متبوعةً بنِقاش حول الفيلم ومخرجه.

كانت لدور السينما وقتَها مَيْزة ونُكهة خاصة عند أغلب الشباب، يدخلونها مرة واحدة على الأقل في الأسبوع. ليس لهم بديل آخر غيرها للترويح على النفس، عكس وقتنا اليوم الذي صار يعج بشتى الوسائل السمعية البصرية ابتداء من التلفزة وقنواتها الفضائية إلى الشبكة العَنكبوتية "الأنترنيت". ورغم هذا الفارق كان مثل هؤلاء الشباب يتمتَّعون بما يشاهدونه من أفلام، وما يستمعون إليه بنشوة خاصة من أغاني أم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ ووردة الجزائرية، إضافة إلى الأغاني المغربية الأصيلة العديدة لعبد الهادي بلخياط والدكالي والمجموعات الغنائية لناس الغيوان وجيل جيلالة وغيرهم. يَروقهم سِحر الكلمات والألحان لتلك الأغاني الخالدة لما فيها من عذوبة

---

[1] - «السينيماتيك» كلمة لاتينية cinémathéque ، قاعة سينما تعرض قيها الأفلام تكونا غالبا متبوعة بنقاش بين المخرج أو مختص قي السينما والجمهور.

ونقاوة وأصالة ووقع خاص على القلوب، يرددونها فتطرب نفوسهم وتهدأ أعصابهم، عكس الأغاني اليوم. عندما يستمع إليها المرء ينتابه القلق والاضطراب بفعل موسيقاها الصاخبة وكلماتها الرديئة البذيئة.

03- ويقترب يوم الدخول إلى ارض الوطن :

تتوالى الأيام والشهور و هو بين التدريس والجامعة، لا ينقطع تفكيره عن أهله الذين تركهم وراءه هناك في المهجر. كان يسأل نفسه دوماً متى يتخلص من البعد عنهم. لقد قاسى الكثير من هذا البُعد منذ أن فارقهم ودخل الكتاب والمدرسة؛ ثم بعدها إلى المدينة ليتمم دراسته، وهذه المرة وهو في أحضان بلده الأصلي وموطن أجداده. عندما سيَلْتَئِم الشَّمل لا شك أنه سيكون أسعد إنسان في هذه الأرض.

عندما زار عائلته في عطلة الربيع لتلك السنة الدراسية، بعد أن تعذر عليه الانتقال إليها في عطلة الشتاء، أصبح كل شيء يبشر بأن يوم الدخول إلى ارض الوطن قد اقترب. قرر الجميع أن يكون ذلك في ذلك من عام 1973، أي في عطلة الصيف حيث الوقت كافٍ للقيام بكل الترتيبات والإجراءات التي تتطلبها العودة.

اتفق مع أخيه الأكبر بأن يبيعَ كلَّ ما كان لدى الأسرة من أرزاق قليلة، ويقوم هو بتحويل ما يقبضه من دراهم إلى الجزائر لتكونَ لهم سنداً في معيشة الأسرة ولو لشهور معدودات، قبل أن يجد

كل واحد من إخوته الثلاثة شغلا يكون مورداً معيشيا لهم في المدينة. أما الأصغر منهم فسُيدخله إلى المدرسة الابتدائية قبل أن يفوته سن التَّمَدْرُس مثل إخوته الذين لم يؤتَ واحد منهم حظا في التعليم طول حياتهم.

عاد إلى الجزائر وكله عزم أن ينهي أول عام دراسي له في التدريس وأول سنة له في الجامعة، ويرى ثمرة جهوده تتحقق في الميدان. من جهة ينجح تلامذته لنيل شهادة التعليم المتوسط وينتقلون إلى التعليم الثانوي، ومن جهة ثانية يتوج هو بنتائج تُخَوِّل له الانتقال إلى السنة الثانية في الجامعة. والأهم من كل ذلك، يتمكن أفراد أسرته من العودة إلى ارض الوطن.

يركب الحافلة كل صباح لتوصله إلى المتوسطة ويمضي كل يومه في التدريس، عدا الفترة بين الصباح والمساء يغتنمها لأخذ الغذاء في المدينة. يستريح في بعض المقاهي ليراجع أو يطالع حتى إذا ما اقتربت عقارب الساعة من الثانية، عاد إلى المتوسطة ليتمم واجبه. بعد الانتهاء من التدريس يسرع المشي لأخذ الحافلة التي توصله إلى الجامعة إن كانت له فيها دروس يحضرها، وإلا أخذ قسطا من الراحة في إحدى طاولات مقاهي المدينة بصحبة أحد الأساتذة الأصدقاء؛ حتى إذا ما نسي كل واحد منهم أتعاب يومهم في المتوسطة، توجَّه كل واحد منهم حيث يسكن عبر حافلة الحي التي تنقلهم وسط ازدحام الركاب وهم يتدافعون لأخذ مقعد لهم فيها.

تلك هي يومياته الأولى في التوظيف والجامعة، عندما يتذكَّرُها اليوم ترجع به ذاكرته إلى ذلك الزمن الذي بَصَمَ وطبع حياته بشتى الذكريات، ذكريات الشباب وما فيه من حيوية ونشاط، وقصته مع الزمن وكيف عاش لحظاته وقطع أشواطه، لا يحدوه شيء سوى أن تكون له مكانة في المجتمع، يتفاعل مع أحداثه وتطوراته جاعلاً أمام أعينه أنَّ المستقبل الحقيقي هو الذي يصنعه الإنسان لنفسه، بجهده وتضحيته وصبره غير آبهٍ بالصعاب التي تعترض سبيله الصحيح في الحياة.

انتهى ذلك العام الدراسي وتحقَّقت كل الأهداف المرسومة، حصل على نتائج مشجعة قي الجامعة، وهنَّأه مدير المتوسطة بتحقيق تلاميذه وفي المواد التي يدرسها على أحسن الدرجات. كم كان الحفل الذي أقيم في ساحة المتوسطة رائعاً تم فيه توزيع الجوائز على الناجحين وكان له الشرف أن يكون من منشطيه. منذ ذلك الوقت أصبح يحب التنشيط وإدارة الملتقيات والمحاضرات. لقد أوتيَ حظاً لم يَحْضَ به غيرُهَ من الزملاء.

عندما انتهت كل أعمال تلك السنة الدراسية في وهران، قفلَ راجعا إلى المغرب وكله عزمٌ على أن يقوم بكل الإجراءات اللازمة والضرورية لتعود أسرته وتدخل أرض الوطن.

08

العودة إلى أرض الوطن

1- إجراءات الدخول إلى الوطن

02- شاحنة العودة:

03- ويَلمَسُون تُرابَ الجزائر:

04- عمارة سيدي الهواري:

05- الضيعة والحياة الجديدة:

1-إجراءات الدخول إلى الوطن:

يَوْمٌ، لم يكن يوماً كسائر الأيام التي عاشتها أسرته في المهجر. الكل ينتظر ركوب الشاحنة التي ستنقلهم إلى الحدود. أمه تجمع أثاث المنزل بكل عناية وتوصي الجميع بأن يضعوا القابل منه للتكسير في أماكن آمنة. تترك جانبا من الأواني والأغطية وكل ما يحتاجون إليه في الرحلة حتى يكون سهلا للاستعمال. سيقضون يوما طويلا في حياتهم وسيقطعون المسافات البعيدة قبل أن يصلوا ارض الوطن.

في الأيام التي سبقت هذا اليوم التاريخي في حياة الأسرة، وأثناء العطلة الصيفية، بدأ يستخرج الوثائق الرسمية التي ستسمح لهم بالعودة إلى ارض الوطن. إجراءات عديدة كان عليه أن يقوم بها في القنصلية والإدارات المغربية؛ جعلته يكره اليوم الذي وُلِد فيه. كان لا ينتهي من الحصول على وثيقة حتى تظهر أخرى تتطلَّب الانتقال إلى إدارة ثانية، ولا تُستَخرج إلا بشَقِّ الأنفس. يتذكَّر أنه لم يتمكن من الحصول على وثيقة تصفية الذمة من الضرائب إلا بعد أن أنتقل إلى كل إدارات الجهات التي عاش فيها أبوه. لم يكن يعرف معنى للبيروقراطية وتعقيداتها إلا من خلال الكتب أو من أفواه الذين عاشوها، وها هو يلمَسُها بنفسه وكأنها سرطان أصاب الإدارة وأصحاب المكاتب. كل واحد يضع له ألف حجة لكي لا يسلمه

الوثيقة التي يريدها مُكتفياً بترديد عبارة: غداً أو بعدَ غدٍ أو إلى الأسبوع القادم، إن لم يكن أكثر من ذلك.

رغم هذه الإجراءات، تمَكَّنَ من جمْع كل الوثائق المطلوبة لمغادرة الأرض التي احتضنتهم وهم صغارا. لا شك أن أحاسيس إخوته وهم يغادرونها بلا رَجعة مُوزَّعةً بين ما ألِفوه هناك من نمط للحياة وعادات أهل البلد الذين عاشوا معهم، وبين حياة جديدة تنتظرهم وهم لا يعرفون عنها شيئا. لا شك أنهم سيجدون ذلك الفرق الذي وجدَه ورجلاه تَطَئان أوَّل مرة أرضَ الوطن، وتتغير صورة الطبيعة التي ألِفوها، والعادات التي تطَبَّعوا عليها مع ناس عاشروهم لِرَدٍ من الزمن.

تُرى، هل سَيتمكَّنون من التَّكَيُّف بسهولة مع الوضع الجديد ويندمجون فيه؟ أم سيعيشون غُرباء كما عاشوا تماماً في أرض المهجر؟ سؤال راوَدَهُ كثيراً ولم يستطع الجواب عليه، وتركه للزمن ليتكفَّلَ بالإجابة عليه.

02-شاحنة العودة:

انتهى جَمعُ الأغراض وأخذ كل واحد منهم مكانه في الشاحنة. صاحبها جزائري مهاجر مثلهم، غير أنَّ ظروفَه تختلف عنهم في كل شيء. هو يملك شاحنة وله أرزاق كافية ولا يُفكر في الرحيل على الأقل في الوقت الذي اختاروه هم للعودة إلى الوطن. كان يُحَدِّثهم عن ذكرياته مع والدهم وكيف كانا صديقين

حميمَيْن لا يفترقان. قال لهم: أن أبَاهم كان يفكر دوما في الدخول إلى الجزائر، ومات ولم يحقق أمنيته، وها أنتم تحقّقونها له. لا شك أنه فخور في قبره بهذا اليوم الخالد. أكان صاحب الشاحنة يُعبِّر فعلا عن الواقع أم يقول هذا ليطمئنهم على قرارهم المتخذ؟

سارت بهم الشاحنة تقطع المسافة بين "برقنت» التي غادروها صباحا و"وجدة»التي لم يصلوها إلا بعد ساعات. تُذكره أمه التي كانت جالسةً بجانبه وهي تحكي عن كل بقعة يصلونها. هي لا تنسى شيئا عن كل صغيرة وكبيرة، الحياة بالنسبة لها كمُسلسل طويل فيه حلقات مُملَّة وأخرى مُمتعة. أكانت راضية مطمئنةً البال وهم يغادرون أرض آبائها وأجدادها وما فيها من ذكريات منذ أن كانت صغيرةً ثم أُمّا لهؤلاء الذين تنقلهم هذه الشاحنة؟ أم كانت حزينةً كئيبة وهي تُفارق أرضَ أجدادها نحو بلد لا تعرف عنه إلا ما قاسته عندما عملت في إحدى السنوات في مزارع الكولون؟

لا شَكَّ أن قلبَها كان مملوءاً بمشاعر الحسرة والألم لكونها ستعيش بعيدة عن أهلها وأرضها كما عاشوا هم تماما.

عندما وصلوا إلى المدينة، توَجَّهوا مباشرة إلى منزل خالهم «سي علي». وبمجرد أن دخلوه حتى راحت جدته»دادّة» تُذرِف دمعات وهي صامتةً لا تقول شيئاً. لقد تأكَّدت اليوم بنفسها أن ما قالَهُ لها سابقا صار حقيقة لا مِراء فيها، سيَرحلون بعيدا عنها ولن تعود أمُّه تزورها ولا هي تزورهم وتمكث عندهم أياما مثلما كانت تفعل عادة.

احتضنتها أمه وكَفْكَفت دموعَها وطمْأَنَتها بأنَّ البلاد التي سيقصدونها ليست بعيدة كما تتصوَّر. أضف إلى ذلك أنّه بإمكانها أن تزورَهم حيثما شاءت، فالحدود ليست مغلقة.

خرج لتَوُّه من المنزل وركب الشاحنة قصد اصطحاب سائقها إلى المصالح الجمركية لمراقبة كل الأشياء المدونة في وثيقة الجرد التي كان قد حضَّرها وأمضاها عند الدرك. سار كل شيء كما كان مخططا له، ولم يبق أمامهم سوى التوجه إلى مركز الحدود. ركب الجميع مرة أخرى الشاحنة بعد أن ودعوا الأهل والأقارب.

الكل خَيَّم عليه الصَّمت وهم يصلون الحدود. ينزل من الشاحنة ويتوجه إلى قاعة كبيرة اصطفَّ فيها العابرون ينتظرون دورَهم أمام مصالح الدرك وشرطة الحدود. تقدم أفراد عائلته وسلم لكل واحد منهم وثائقه التي كان محتفظا بها في محفظته خوفاً من ضياعها. تقدَّم هو الأول وكأنَّه أراد بهذه الحركة أن يقول للآخرين ما يجب فعله. يتبعه أخوه الأكبر وزوجته وابنته ثم أمه وبقية أفراد الأسرة. كانوا ثلاثة عشرَ بالضبط والتَّمام، خمسة ذكور وثمانية إناث كل واحد يحمل تصريحا خاصا للمرور. يَتفحَّص رجال الشرطة والجمارك وثائقَهم ووجوهَهم ويختمونها إيذاناً لهم بالخروج من أرض المهجر. لم تبقَ إلا نفس الإجراءات يقومون بها في الجهة المقابلة عند السلطات الجزائرية ويعبرون الحدود ويدخلون أرض الوطن نهائيا.

تقدَّمت الشاحنة بعد أن عبرت الحدود المغربية وانتظرتهم في الجهة الجزائرية. بعد مدة ليست بالقصيرة وجدوا أنفسهم يتَنفَّسون الصُّعداء. أخيرا انتهى كل شيء وهاهُم في ارض الجزائر يَلْمَسون ترابَها ويستنشقون هواءَها في ذلك اليوم من شهر أوت من عام 1973.

03-ويَلمَسُون تُرابَ الجزائر:

يخرج الجميع من ذلك الصمت المريب الناتج عن الشعور بالخوف الممزوج بالفرح. قال و هو يحدِّث نفسه: الحمد لله أَنَّ كَل شَيءٍ مَرَّ كَما تَصوَّرته وكل الوثائق كانت مضبوطة غير ناقصة، وإلاَّ عدنا أدراجَنا من حيث أتينا، وفي ذلك مصيبة كبيرة، هم في غنىً عن تحَمُّل عواقبها.

افترق الجميع عند نقطة الحدود، فهناك من ركب الشاحنة وهناك من أخذ سيارة أجرة. اختارَ هو وأخوه الأكبر وأمه الشاحنةَ التي تحمل أمتعتَهم المتواضعة من أفرشة و أواني منزلية بسيطة، أما البقية الباقية من أفراد الأسرة فقد اختار لهم سيارة أجرة كبيرة ذات اللون الأصفر، ودَلَّ صاحبها على عنوان الجهة المقصودة.

سارت الشاحنة مرة أخرى في طريقها وهي متَّجهةً نحو الوجهة التي ستستقر فيها هذه الأسرة المهاجرة. راحت تطوي الكيلومترات التي تفصل بين الحدود ومدينة وهران، وكأنها تريد بذلك أن تطوي صفحة من حياة كل من فيها.

لا شك أن الصفحات الجديدة التي ستفتح لن تكون كالصفحات التي سبقتها. على الأقل سيأخذ أخوه الأصغر ذو الست سنوات مقعده في الدراسة، وتُتاح له فرصة التعلم في إحدى مدارس وطنه؛ عكس إخوته الكبار الذين حُرِموا من ذلك. أما الكبار فلا يرجون شيئا سوى أن يجدوا عملاً وسكناً يُوفِّر لهم حياة كريمة.

تنظر أمُّه إلى تلك المساحات الشاسعة من الأراضي المغطاة بالكروم وبقايا الحصاد وهي تتذكر السنة التي قذفت بها الأقدار في إحدى السنوات الغابرة يومَ كانوا صغارا وجاءت لتعمل مع أخيه المجاهد في حقول الكولون. راحت تحكي لهم ذلك وهو مذهولٌ من هذه القصة التي لم يسمعها من قبل. هي تعرف الجزائر وحقولها يوم كان طفلا رضيعاً بين أحضانها. وقع ذلك عندما سجنوا أباه واتهموه ظُلماً بفعل لم يرتكبه، وأرغمت هي قهرا للانتقال مع جماعة من الفلاحين إلى هنا لكي تضمن عيش أبنائها وتجمع نصيبا من الحبوب التي يتركها الحَصَّادون وراءَهم في الحقول. تجمعها في أكياس وتحتفظ بها حتى إذا ما انتهى الصيف عادت أدراجها إلى القرية التي كانوا يسكنونها هناك في أرض المهجر. لم يكن هذا بدون مقابل، بل بعد أن تعمل كأجيرة عند الكولون هي وأخوه المجاهد مثلها مثل الرجال.

عرف من خلال هذه القصة الكثيرَ من الدلالات التي كانت غائبة عنه، رغم أنه كان يَلمسها عند أمه كل مرة: هي ذات إرادة

فولاذية لا تقهرها المحن ولا الظروف القاسية التي عاشتها مثل الناس في ذلك العهد الغابر وتغَلبت عليها بفضل تضحيتها وصبرها.

تأكَّد أيضا بأن رحيلهم اليوم وعودتهم إلى الوطن لن يؤثر على فراقها للأهل والأحباب. الأرض بالنسبة لها واحدة سواء أكانت في هذا البلد أم في غيره من البلدان. المهم بالنسبة لها أن يكونوا سعداء ويضمنوا حياتهم في المستقبل.

عندما اقتربت الشاحنة من وهران، كان التَّعب قد أخذ منهم النصيب الأكبر. كيف لا وهم في هذا اليوم قطعوا المسافات البعيدة وعاشوا العديد من الأحداث، رأَوها تتسارع أمامهم كلمح البصر.

في الصباح الباكر كانوا هناك بعيدين في أرض غير هذه التي يشاهدون مناظرها اليوم بأعينهم والنعاس يكاد يغلبهم.

تُرى، كيف كان ينظر إليها إخوته وهم لم يرَوها من قبل مثله؟ لا شك أن كل شيء يبدو أمامهم غريبا لا يعرفون عنه شيئا، فهم لم يتعوَّدوا على رؤية الحقول المُخضَرَّة ولا العمران الكثيف للقرى التي تمر بها الشاحنة وهي تتزاحم مع السيارات والشاحنات وسط الناس وهم يقطعونها عُجالى. سيزداد الازدحام أشدَّه عندما يصلون إلى المدينة، وسيجد السائق صعوبة لقيادة شاحنته نحو المكان الذي يريد أن تتوقف فيه بعدما كان هو وأخوه المجاهد قد اتفقا عليه من قبل.

تدخل الشاحنة من الجهة الجنوبية للمدينة مُتَّبِعا صاحبُها توجيهاته وهو يدله على الطريق الذي يوصلهم إلى المكان المتفق عليه. إنه ليس داخل المدينة ولا وسط أحيائها، بل يوجد في إحدى مداخلها. في أرض كان أخوه المجاهد قد اشتراها من أحد التجار بالتراضي واستغلها لتكون مأربا كبيرا لأصحاب العربات المجرورة يتركون فيها دوابهم كل ليلة.

رَكَنوا الحافلة في هذا المأرب ونزل الجميع منها مُتَّجِهين مباشرة إلى منزل أخيه الغير البعيد عن المكان.

أخيرا يجتمع شمل كل أفراد الأسرة. لا أحد يصدق تلك اللحظات الحاسمة التي صار فيها كل واحد يعانق الآخر والدموع تنهمر من عينه. كان يوما مشهودا التقى فيه كل أفراد هذه الأسرة والفرحة تغمرهم والسعادة تكتنفهم بظلالها وكأنهم يولدون من جديد وتحت سماء جديدة.

تَوَزَّعَ الجميع على حجرات البيت وانقسموا إلى قسمين، قسم للنساء وقسم آخر للرجال. ينادي أخوه المجاهد على صاحب الشاحنة ليدخله الدار ويشكره على ما قام به:

- جازاك الله خيرا يا أخي على فعلتك هاته، فلن ننسَ لك هذا طول حياتنا.

كيف لا يشكره وهو الذي قطع بهم بشاحنته المسافات الطويلة وأوصلَهم آمنين إلى مقصدهم.

في الصباح الموالي، أفرغوا ما في الشاحنة من أثاث وأغراض ووضعوها في المنزل الجديد الذي اتخذته العائلة مأوى لها. مكان لا يبعد عن المدينة إلا بأقل من كيلومتر في ضيعة مهجورة كان أخوه المجاهد وجدها صالحة لتستقر فيها العائلة مؤقتا حتى يتدبر الله أمرَها. فهي من جهة قريبة جدا من المدينة، ومن جهة ثانية تتوسط حقولا زراعية لإحدى المزارع المسيرة ذاتيا.

هذا المكان سيتخذه إخوته مُنطلَقاً لهم ليتعرفوا على المدينة وأسرارها ويبحثون عن عمل يضمن لهم رزقاً وعيشاً ويتمَكَّنون من التكيُّف مع الوضع الجديد.

كان دخول العائلة أرضَ الوطن في ذلك العام أحسن عمل قام به في حياته على الرغم من أنَّه لم يكن يملك كل الوسائل التي ستوفر لهم كل ضروريات الحياة.

قبل أن يدخل العام الدراسي الجديد، انهمك كعادته في إعداد مذكراته للتدريس وتحضير نفسه حتى يتابع تعليمه في الجامعة، كان عليه أن يتدبَّر أمرَه ويجد سكنا يأويه وأمه وأخوه الأصغر يكون قريبا من المتوسطة التي يُدَرِّسُ فيها ومن المدرسة التي سيسجله فيها. كان عليه أيضا أن يساعد إخوته الآخرين على إيجاد أفضل السُّبل التي تمكنهم من التكيف مع الوضع الجديد.

لا شك أن التَّأَقْلُم مع الحياة الجديدة يحتاج إلى مجموعة من العوامل من ضمنها العمل الذي بدونه لا يستطيع أي إنسان أن يحس

بوجوده خاصة في مجتمع هو بالنسبة لهم جديد في كل شيء: جديدٌ في العادات والتقاليد ونمط الحياة، وجديدٌ في نوع الأشغال التي لم يألَفوها هنا بعد أن تعَوَّدوا على امتِهان حرف أهل الريف من فلاحة وتربية للمواشي. لقد تَعوَّد إخوتُه على الحياة البسيطة، وها هم اليوم يجدون أنفسهم أمام حياة المدينة المعقَّدة في كل شيء: في الملبس والتنقل وتوفير ضروريات الحياة.

وبالرغم من هذه الصعوبات التي واجهها إخوته، فقد كان مُتيَقِّناً أنهم سيجدون مكانة لهم بين ناس المدينة، فهم يملكون الإرادة والصبر والتضحية، وأنَّ الحياة حنَّكتهم هناك في أرض المهجر بكثير من التجارب التي خاضوها في مختلف الظروف والمحن. أضف إلى ذلك أنَّهم أصبحوا اليوم يتمتَّعون في وطنهم بنفس الحقوق والواجبات.

لم يمضِ شهرٌ واحدٌ من الدخول إلى ارض الوطن، حتى بدأت الظروف تتغير نحو الأفضل. بدأ إخوته بعضَ الأعمال التي أدخلتهم إلى عالم جديد. اشتغل اثنان منهم في معمل للبلاستيك لأحد الخواص، وتعلَّما كيف يتعاملان مع الآلات التي تُحَوِّل حُبَيبات البلاستيك إلى أواني منزلية. كان أخوه الأكبر فَرِحاً بعمله هذا خاصة بعدما كسب ثقة صاحب المصنع الذي صار يُكِنُّ له كل احترام لمواظبته وتفانيه في العمل. بهذه الثقة تمكن أن يدخل أخاه

الآخر المصنع وبالتالي أصبحت حاجيات الأسرة مضمونة بفضل عملهما.

أحسَّ أنه حقَّق شيئا جعله يتخَلَّص من عِبْءٍ كبيرٍ كان على عاتقه. لم يعد ذلك البُعد يفصله وأفراد عائلته حيث صاروا قريبين منه وهو أقرب منهم في السراء والضراء. لا يفوته يوم ليَراهم ويرونه، يتبادل معهم المشورة في كل صغيرة وكبيرة، خاصة وأنه لم يكن يسكن بعيداً عنهم.

04- عمارة سيدي الهواري:

يتذَكر تلك العمارة التي تحمل اسم "سيدي الهواري". سكن فيها مع أمه وبعض صغار أسرته الذين هم في سن الدراسة. يتذكرها بطريقها الذي كان يسلكه كل يوم والمتميز بعقبة كبيرة كان يطلعها بشَقِّ الأنْفُس خاصة وهو عائد من الجامعة ليلا.

كلما يزور اليوم حي سيدي الهَوَّاري ينظر إلى تلك العمارة ومنازلها المعلقة كالأدراج في سفح كتلة مرتفعة تطل مباشرة على المتوسطة. بُنيَت هذه العمارة في العهد الاستعماري ضمن مشروع ديغول. أقل ما يقال عن شققها أنها تشبه أقفاصا في حديقة حيوانات.

الشقة التي حَصل عليها عن طريق زميل له لا تحتوي إلا على غرفتين بدون مطبخ ولا حمام. ومع ذلك كان راضياً بها حيث تجمعه مع أمه وأخيه الأصغر وصغار العائلة الذين تمكَّنوا فيها من

مزاولة دراستهم في المدرسة الابتدائية التي تقع وراء العمارة في حي الصنوبر»بلانتور".

فيها بدأت أمه تؤثث عُشَّه للمستقبل. كانت تشتري بالنقود التي يسلمها لها كل نهاية شهر لشراء بعض الأغراض المنزلية من أواني وفراش وخزانة لوضع الثياب. اشتَرى بدوره أول تلفاز بالأبيض والأسود، وصار يتابع عبر شاشته نشرة الأخبار وبرامج متنوعة للتلفزة الوطنية لا غير. لم يكن وقتها جهاز لالتقاط الفضائيات كما هو منتشر اليوم بكثرة.

كانت حياتهم بسيطة مثل حياة بقية ساكني العمارة. تراهم كل يوم ينزلون ويصعدون من السلاليم، وهم يحيون بعضهم باحترام وإجلال. كانوا يُكِنُّون له ولأمِّه كلَّ التقدير بعد أن عرفوا بأنه أستاذ في المتوسطة التي بجانبهم.

05-الضيعة والحياة الجديدة:

يغتنم نهاية كل أسبوع للانتقال هو ومَن معه إلى الضيعة التي يوجد فيها منزل العائلة. يقضونه وكل واحد منهم يحكي يومياته للآخرين بكل فرح وانبساط. يتناولون العَشاء وهم مجتمعون حول مائدة واحدة. تحكي لهم أمهم عن حياتها في العمارة وكيف تعرَّفت على عدد من النسوة وهي تخرج كل يوم لشراء ما تحضره للغذاء والعشاء. وَجَدَت أَن عدداً منهن ينحَدِرْن من نفس البلد الذي تنحدر منه.

ويحكي الأخَوَان العاملان في مصنع البلاستيك كيف هم غير راضين عن العمل فيه، خاصة بعد أن تَعرَّض أخوه الأكبر إلى حادث كاد يفقد فيه أحد أصبعه يسبب الآلة التي يشتغل فيها. لقد أَلِفا العملَ أحراراً في الطبيعة وها هما اليوم مقَيَّدين وراء جدران المصنع، لا يسمعان إلا ضجيجَ الآلات والعمال وهم منهمكين في عملهم. أقسم أحدهما يوماً أنه لن يعود إلى العمل وإلى الآلة التي ربما ستتسَبَّبُ يوماً ما في إعاقة له في إحدى يديه. قالت له أمه وهي تنبهه:

- ماذا ستفعل إذا ضَيَّعْتَ عملَك هذا؟ لماذا لا تصبر حتى يفرجها عليك الله؟

أجابها وهو يكاد متأكدا مما سيفعله:

- سأمارس التجارة مثل كل الناس. نحن في مكان يمكننا من ربح مالٍ أكثر إن عرفنا كيف نستغله. نشتري أنعاماً ونُسَمِّنها ونبيعها في السوق.

تلك هي بداية لعمل اتخذه إخوته كمشروع لهم في الحياة. كان صَعباً شاقاً في البداية خاصة وأنَّ شراء المواشي وبيعها يتطلب أموالاً باهضةً، وعملاً دَءُوباً كلَّ يوم وفَناً في قواعد البيع والشراء، ومع ذلك تَمَكَّنوا مع مَرِّ السنين أن يجدوا لهم مكانة بين تجار المدينة. تعرَّفوا خلال ممارستهم للتجارة على أناسٍ كُثُرٍ وعرفوا كيف يبيعون ويشترون ويُنوعون من سلعتهم التي بدأوا يجلبونها من المناطق الداخلية للبلاد.

لم يكن حديثُهم مقتصراً على شؤون الأسرة، بل كان يتعداه إلى مواضيع أخرى. كانوا يتحدَّثون مثلا عن الوطن والمعارك التي يخوضها في التنمية وتشييد البلاد، وعن الرئيس بومدين وخطاباته الحماسية وهو يَحُثُّ الجزائريين لتَحَدّي الامبريالية ومخططاتها بعد تأميم البترول، كما كانوا يتحدِّثون عن الحرب التي كان يخوضها العرب ضد الصهيونية بعد أن شهدت سيناء والجولان المعارك الضارية في حرب أكتوبر 1973.

يستمع له إخوته وهو يقرأ لهم ما تنشره الصحف كجريدة الجمهورية والشعب من مقالات حول مختلف المواضيع التي تشغل الوطن والأمة. لأول مرَّة يجد نفسه يقاسم إخوته مثل هذه المواضيع التي لم يكونوا يتداولونها إلا نادراً عندما كانوا في أرض المهجر.

فلا الظروف ولا الأجواء كانت تسمح لهم بالخوض في مثل هذه المواضيع مثل ما يفعلونه اليوم. زادت هذه المواضيع من تأقلم إخوته مع الواقع الجديد، وأصبحوا يتابعون الأحداث التي تجري هنا وهناك بأكثر عناية واهتمام. ربَّما هذا الأمر زادهم أكثر تفتحا وساروا هم كذلك يَتَلَمَّسون العالمَ وما يعرفه من تحوُّلات في شتى المجالات.

لم تَمضِ إلا سنوات قليلة من تواجدهم في أرض الوطن حتى سارت الأمور في الاتجاهات الصحيحة. نجح هو في الجامعة وتحصل

على شهادة الليسانس ونجح إخوته في التجارة، فتَيَسَّرت لهم سُبُل التكيف والعيش في العالم الجديد.

عندما يُقارن اليوم بين حياته وحياة إخوته بين الأمس واليوم، يَتنهَّد تنهيدةً من الأعماق، ويقول لنفسه: كم قاسى هو وأفراد أسرته من ضَنَك الحياة، ومع ذلك كانوا كلهم أمل وشوق وحنين للوطن.

انتهى

الفهرس

الرقم	العناوين	الصفحة
	تقديم : بين التاريخ والسيرة، للد. عيسى بخيتي	05
	توطئة	15
	بَينَ الكُتَّابِ وَالمَدرسَة	17
	1- الأصلُ والولادة والنشأة	19
	2- «السَّقَّاية":	26
01	3 –المسجد وكُتَّابُ القرية:	28
	4- قرية «النْعَيْمة»وحَوْشُ الجَدِّ:	31
	5- ويَدخلُ المدرسة:	35
	6- ذِكْرياتٌ لا تُنْسىَ:	42
	من القرية إلى المدينة	61
	1- في القطار نحوالمدينة الكبيرة:	66
02	2- في دار خاله: " سي علي":	75
	3- في حُضن المدينة:	81
	4- إعدادية البكري:	93
	5- في الحمام الشعبي:	97
	وبَدأ يتَلَمَّسُ العَالَمَ مِن حَوْلِه...	101
03	1- دراسته بثانوية «البكري» الإعدادية:	103

الرقم	العناوين	الصفحة
	2- أخبار متقطعة عن الوطن:	107
	3- شاطئ «السعيدية»	114
	الرجوع الى المنطقة الأولى	119
	1- "برقنت»وباديتها:	121
	2- سوق «برقنت»وزاية»سيدي الشيخ	127
04	3- في منزل خالته وابنها «محمد ":	134
	4- مرض الوالد ووفاته:	139
	وتَطَأُ رِجْلاَهُ أَرْضَ الوَطَنِ.	145
	1- زيارتُه الأولى لأرض الوطن:	147
	2- تموشنت:	155
05	3- شهادة الباكالوريا	157
	4- الفجر الجديد :	161
	5- المعهد و»المدينة الجديدة «بوهران:	165
	6- العودة إلى المغرب:	168
	وصار معلما...	175
	1- دار المعلمين L'école normale d'instituteurs	177
06	2- حمام"ربي":	186
	3- وهران وأسرارها:	188

الرقم	العناوين	الصفحة
	4- أحاديث وتطلعات	191
	5- مدرسة أشبال الثورة	194
	بين التدريس والجامعة	201
	01- متوسطة العربي بن المهيدي:	203
07	02- جامعة "السانيا"	207
	03- ويقترب يوم الدخول إلى ارض الوطن :	213
	العودة إلى أرض الوطن	217
	1- إجراءات الدخول إلى الوطن	219
08	02- شاحنة العودة:	220
	03- ويَلمَسُون تُرابَ الجزائر:	223
	04- عمارة سيدي الهواري:	229
	05- الضيعة والحياة الجديدة:	230
	الفهرس	235

صَـدَر للمُـؤلف

01- عين تموشمنت عبر العصور: دراسة طبيعية وتاريخية،

- الطبعة الأولى: دار الكتاب العربي، الجزائر، 2010.

- الطبعة الثانية منقحة ومزيدة: دار القدس العربي وهران، 2013 .

02 - تطور التعليم الثانوي وآفاقه في الجزائر وبقية دول المغرب العربي ، دار الكتاب العربي الجزائر ، 2010.

03- الطريق الميسر لتحضير امتحان البكالوريا، دار الخلدونية، الجزائر، 2010.

04- دليل موظفي التعليم في التشريع المدرسي، متبوع بالنصوص الجديدة، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع تلمسان 2012.

- دليل موظفي التعليم في التشريع المدرسي، ط2، دار كنوز للإنتاج والنشر والتوزيع تلمسان .2015

05- التقويم التربوي وعلاقته بالتحصيل الدراسي، أنوار المعرفة، مستغانم 2013.

06- أثر المصالح المادية الضيقة على القيم الثقافية والاجتماعية (قراءات في الواقع الثقافي والاجتماعي) ، دار القدس العربي، وهران، 2013.

الأستاذ رقيق ميلود

من أسرة جزائرية مهاجرة إلى المغرب الأقصى، ولد عام 1948، حاصل على شهادة الباكالوريا شعبة آدب مزدوجة اللغة من ثانوية عبد المؤمن بوجدة (المغرب) جوان 1971، وشهادة الليسانس في التاريخ من جامعة وهران جوان 1975.

عمل قبل تقاعده في حقل التعليم كأستاذ في التعليم المتوسط في السبعينيات بوهران ثم أستاذا للتعليم الثانوي لمدة 10 سنوات، ثم نائب المدير للدراسات لمدة 10 سنوات أيضا بعين تموشنت، فمدير ثانوية من 1999 إلى غاية إحالته على التقاعد مع مطلع سنة 2009 ليتفرغ للبحث والتأليف.

هذه المذكرات،

يقول في شأنها الدكتور عيسى بخيتي:

" تَقِفُ مُذَكَّراتُ الأستاذ رقيق ميلود على مَحَطَّاتٍ بسيطةٍ بَساطةَ صاحبِها، لا هي استعملت الأنا لِتكونَ فاعلاً ومُغَيِّراً للأمور والقضايا المختلفة، كما تَفعل مُذكرات السياسيين في الغالب، ولا هي تقرأ الحياة الخارجيةَ بِعُمْقٍ كما هو شأنُ مُذَكِّرات الأدباء والمُفَكِّرين، لكنَّها بينَ هذا وذاك، تَقِف مُستسلمةً مفعولٌ بها، تَسْرُد أحداثاً أثَّرت في حياة شخصه سلباً وإيجاباً... فرَصَد بعضَها، وكأنَّه يقول لقارئه، هذه طريقي إلى النَّجاح، لم يكن ميسورا، فخذ العبرة... ويَقِفُ شاهداً على معاناة جيله حينَ تنكَّر لهم الزَّمنُ فأخذوا الرحالَ مُضطرِّين مُلتاعين إلى بلدٍ آخرَ يكفلهم..."

9 789947 908372

WWW.KKONOUZ.COM